حبيب عبد الرب سروري

الملكة المغدورة

رواية

دار الساقي

الملكة المغدورة

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين.
إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

Habib Abdulrab, La reine étripée, L'Harmattan, 1998

Habib Abdulrab, 1998©

©دار الساقي 2017

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٧

ISBN-978-614-03-0112-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

لِناتلي، كليمنتين، وعمبرين.

الجزء الأول

سبعة أشرطة لاصقة، تحديداً

الفصل الأول

عبثٌ ينخر المدينة، ويجوس خلال شوارعها، ويحاصرها من كل الجهات، ويتحكم بكل شي فيها، وينتشر في كل مكان.

وكانت هي هناك مذبوحة من الوريد إلى الوريد بين يديّ، مدفونة دون ضريح ودون قُبّة، ترفع دمها النازف، وترقص عاريةً في تابوتٍ شفيف تقبع تحت ثقله المدمّر. سحبتُ خطوات حزينة، مثقلة متحجّرة، نحو "مقهى الشهداء" في مركز المدينة، المهبط اليومي لزميلَيّ في الصف: عدنان وشكيب، ولي أيضاً.

لم أتخيّل قط قبل ذلك أن يأتي يوم أسحب فيه خطاي مثل محكوم بالأشغال الشاقة، نحو مقهى الشهداء وبيدي شهيد حقيقي في جوف كيس صغير من البلاستيك، شهيد بُقرت أحشاؤه. تتزاحم في رأسي المغموم طوال الطريق الخواطر السوداء الحزينة، باستثناء خاطرة يتيمة بدت بالأحرى تافهة وفي غاية التمرد، بنت هذه الصدفة المحضة (التي لم تحمل في أحسن الحالات سوى توكيد إلى أي مدى يستحق هذا المقهى اسمه). كشفت هذه الخاطرة اليتيمة عن سرائرها عبر آهٍ سريعة تنطلق من الخياشيم أمام "مقهى الشهداء"

وقد جرّد الغبار اللوحة التي تحمل اسمه من بعض الحروف، ونخر جسدها ثقبان مائلان أجهل سبب حدوثهما، وإن ظلت اللوحة مكتوبةً بخطٍّ جميل فوق لافتةٍ واسعةٍ في الوسط، مرصّعةٍ بعشرين صورة فوتوغرافية لشهداء الثورة، يقيدها عشرون شهيداً من المصابيح الكهربائية. وكان التوتر واضحاً على وجهي، حين سلّمت الكيس البلاستيكي حيث يرقد الشطرنج الخاص بشكيب الذي كان ينتظرنا، أنا والشطرنج، بالقرب من باب المقهى. مزّقني الندم والخجل حين رأى شكيب إحدى ملكتي الشطرنج مقطوعةً تماماً إلى نصفين ملصقين بسبعة أشرطة لاصقة. ومع ذلك كانت هذه الملكة قبل يومين فقط، حين استعرت منه هذا الشطرنج، صلبةً كصخرة، جميلةً كعروسة النيل. كانت من الصلابة بحيث لا يستطيع إلا حسام باتر أن يبقر أحشاءها ببضع ضربات باترة.

توقفت حركة الزمن خلال ثوانٍ بليدة يصعب وصفها، قبل أن يطلق في صرخةٍ قصيرة سؤالَه الذي لا يُنسى: ”يا الله! ما الذي حدث؟ ما الذي حلّ بسيدة الشطرنج؟“. أتذكر جوابي على سؤاله. لك أن تسمّيه ما شئت ما عدا أن يكون جواباً. فقد تلعثمت في ألم بكلمات لا رابط بينها من إجابة معدّة سلفاً ولكنها قليلة الخيال. قلت

أي شيء غير الحقيقة. كلمات قد تكون: "سقطت... تحت قائمة سريري... لا... نعم..."، ثم انعقد لساني بشكل واضح وتصلّب في شكل مشنقة تخنق الكلمات الهاربة.

وخلال هذا الزمن المتحجّر استولت علي مأساة ليلة البارحة حين سالت دموعي وأنا أشاهد فأساً صدئة تستعد في حماسة لتهشيم قلب الملكة. وكان القاتل رجلاً لا ترقّ له قناة أمام دموعي... تتدفق قطرات عرق غزير من وجهه الأرجواني، مما جعل من الصعب التعرف عليه، وهو يرتعش وقد خرج عن طبيعته، فقيّد قدميها البريئتين، وثبّتها إلى الجدار، ووجّه بضع ضربات خاطفة شرسة أصابتني بالرعب وأخرستني. وفي الضربة الرابعة بقر بطن الملكة التي تجندلت، وقد خارت قواها، كشجرةٍ قُطعت، عيناها مثبتتان على العدم كعينَي خروف ذُبح أضحيةً في العيد.

صرختُ بكل ما في قلبي الجريح من قوة:

– هذا الشطرنج ليس ملكي. يجب أن أعيده لصاحبه غداً.

لم أجرؤ قط في تلك اللحظات على أن أنظر في عيني شكيب، ولا أعرف أية موجة غضب عصفت بوجهه، وأية أسئلة حامت حول عينيه قبل أن أسمعه يقترح فجأةً، بلهجةٍ هادئة منضبطة، أن نلعب

الشطرنج! ولم تكن لدي أية رغبة في أن أثبّت نظري على رقعة الشطرنج، ولا بالأحرى أن ألمس جثةً سبق أن شاهدت في رعب قطع عنقها. قال لي:

– سأدع لك القطع البيض. إلا أن عليك أن تلعب دون ملكة.

وأضاف بدهاءٍ لطيف: إذا لم يضعفك هذا كثيراً، بالتأكيد.

ربما بدا هذا الاقتراح لأول وهلة مبرراً، إذ كان يهدف من وراء إقصاء ملكتي منذ البداية تحقيق التعادل بين قوانا، ويمكن تجاوز هذا العائق منطقياً بخبرتي في لعب الشطرنج، التي كانت أطول من خبرته. لكن، في العمق، عندما رأى شكيب الهوة السوداء التي ابتلعتني بعد صرخته القوية جداً حاول، بكثيرٍ من نباهة ظلت تؤجّج عرفاني له بالجميل، أن يهدّئني باستمرار، وهو الذي لم يكن في العادة رمزاً للرقة واللطف. فقد أخفى، أولاً، حزنه وراء حركة من رأسه تعني أن أؤجل شرح هذا اللغز إلى أيام أفضل، قبل أن يطرح في دهاء اقتراحه "الوقور"، وغير المنتظر بأي حال، ليجنّبني الاعتراف بحقيقةٍ يغشاني الخجل منها تماماً. كان هدفه في الأساس حلّ عقدة لساني، وأن يتوقف، قبل كل شيء، سيل العرق الذي يغرقني بفيضه... صحيح أن السيدة الوزيرة (بعضهم، وأنا منهم،

يسمّيها الملكة) مشطورةٌ نصفين، وملصقةٌ بسبعة أشرطة لاصقة قد تنطلق منها خلال اللعب رائحةُ مقرفة ومرعبة. كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر، وكان يوم سبت من أيام شهر أكتوبر، شهر الثورات، كما علّمونا – في مطلع السبعينيات – حين أخذنا مكاناً في المقهى نفسه، في مركز الشيخ عثمان[1]، وكانت هناك شهيدة بشحمها ولحمها تقبع في عمق المقهى، بجانب مباراة شطرنج باشرت المشاركة فيها دون أدنى رغبة. كانت مضمّدة بضماد غريب في البطن مازال يترك في نفسي حتى اليوم جرحاً قديماً لا يبرأ.

1 أحد أحياء مدينة عدَن وأكثرها شعبية. يطلق عليه أيضاً: مدينة الشيخ عثمان.

كان الجو حاراً، رطباً، مكهرباً في الواقع. وكانت المظاهرات التي دارت بالقرب من مباراتنا المضجرة سبب ذلك. ضجة صيحات صاخبة، ملتهبة، راقصة تقضّ مضجع مدينةٍ هادئةٍ وادعة. وعلى نحوٍ غير معتاد ينزل المتظاهرون الوالهون في "فرحٍ ثوري" نحو عدن من جبال اليمن وحقولها في سيارات الحزب، يبدو عليهم المرح والنشوة وهم يقومون بأول أطول رحلة إلى العاصمة. كانت الموجة الأولى قد وصلت هناك منذ أسبوع،

حلوق ترعد بصيغ ذات رنين وقافية، تعلن في شعاراتها أن ”حرق الشيذر[2] واجب“ (وكأن الطقس الملتهب بالحرارة لا يكفي!)، وأن تخفيض الرواتب واجب أيضاً، ويطلبون من ”القادة التاريخيين الثلاثة“ تقوية الخط ”المعادي للرجعية“، يصرخون أن الشعب ”كل الشعب“ ماركسي (وهذا في الأساس لا يفتقد الغرابة والفعالية والجاذبية، كما قال زميلنا عدنان)، ويتابعون في طرب:

2 الشيذر: الحجاب

ما نبا هبّي ولا شارلستون ما درينا هو صبي أو صبية
ما نبا خائن ولا خط رجعي والجماهير كلها ماركسية

خانت أفكاري عندئذٍ هذه المباراة التي أتجرّعها بمرارة وشردت نحو والدي. قلت لنفسي بمنطقٍ حرفيٍّ صارم: إما أن قولهم ”الجماهير كلها“ غير صحيح وإما أن أبي على وشك أن يصبح ماركسياً. لمحت فجأةً، بصدفة ساخرة متهكّمة، أن ملكتي توشك أن تعود إلى اللعبة بنشاط، خلال نقلة أو نقلتين، وهو ما سمح لي بأخذ نفس عميق وأن أسرح بخيالي في ثقة... تناولت الرشفة الأولى من فنجان الشاي بالحليب الذي ينتظرني منذ نصف ساعة. النسيان وحده أو ”السيسر“[3] يستطيعان أن يهدّئا نزق هذه الفناجين التي لا

تروَّض. راقبت شكيب يزاوج بين البرطمة والتأوه. راقبت الشارع المقابل الذي بدا شاحباً بطيئاً لا يتغير، يجول فيه بخطوات واسعة رجال شرطة مسلحون بمقصات ومسدسات، وعيون جاحظة. لمحتهم بنظرة متخفية، مرتبكة، حادة. كانوا هذا اليوم كثيرين، يجولون المدينة، يلاحقون بنطلونات "الشارلستون" ليقصّوا أطرافها المثلثة الواسعة في الأسفل (وبهذا يحفظون لمدينتنا روحها المستطيلة بعمق)، وليقصّوا الشعر الطويل "الهبّي". قدّرتُ هامش المناورة المتاح أمامنا في حال توجّهت الشرطة نحونا، فوجدته كبيراً لحسن الحظ، لأن أزياء قطع الشطرنج المذكّرة، التي تمثّل جيشاً في مصر الفرعونية، تدعو للرضى. كانت ثياب البيدق نوعاً من تنّورة قصيرة وثوبٍ بسيط يتمّ ربط طرفيه المتقاطعين إلى مقدمة الحزام، ويُشاهَد نصفا ساقي البيدقين بوضوح أو على الأقل ركبة كل واحد منهما، أما الركبة الثانية فكانت مخفية إلى هذا الحدّ أو ذاك برأس قطعة قماش مثلثة، مثبتة إلى الوسط. أما اللباس الرسمي للملك في بهائه وأبّهته ببزته الرسمية المزينة والمنمقة فكان من الطراز نفسه: حيث يشاهَد تماماً جزءٌ كبير من نصف ساقيه. وعلى كل حال، كان عقباه عاريين تماماً، خاليين، ولله

الحمد، من آثار ”الشارلستون“، وهذا ما لا تستطيع الشرطة إنكاره.

3 السيسر: طبق أسفل فنجان الشاي

وربما بدا السؤال الأصعب ما إذا كان للجنود الفرسان وللبيادق شعرٌ طويل، وما إذا كانت هناك فتوى تصنّف الرجل الذي يحمل شعراً مستعاراً باعتباره ”هبّي“ أم أن ما يبدو شعراً طويلاً هو ببساطة خرقة تغطّي الشعر، أو نوعٌ من اللثام مثل ذلك الذي يرتديه رجال حرب التحرير، وهذه حالة لا يستطيع الشرطي إزاءها إلا أن يبدي احترامه. والحقيقة أن الأمر لم يكن مشكلاً إلى هذا الحد! لأنه، في الأساس، لم يكن من المستحيل إقناع الشرطي بأن رؤوس البيادق لم تكن مغطاة لا بشعر طويل ولا بشعر مستعار، وفي هذه الحالة أستطيع أن أحضر من منزلي كتاباً عن مصر القديمة يثبت للشرطي على نحوٍ لا جدال فيه أن رجال مصر القديمة كانوا يفضّلون الشعر القصير، المصفّف على نحوٍ يدع الآذان مكشوفة وواضحة، وكل شيء يبعث على الافتراض السعيد بوجود منديل حول الرأس. سأستغلّ هذه الحجة، قلت لنفسي وأنا أترقّب مجيء الشرطي إلى طاولتنا، لأحاجج وأناور في ما يخصّ رأس الملك،

وإنكار وجود شعر مستعار، وأنه محاط بما يجعله شاذاً، وسأتحدث بخاصة عن عُصابة الرأس أو عن العمامة – حتى لا أقول التاج – وفي مقدمتها حية كوبرا ونسر، وهو ما يجعله متميزاً تماماً عن رأس "الهبّي"، وسأحتفظ تماماً بهدوئي إذا تناول النقاش مع الشرطي ذي المقص مسألة "فارس" الشطرنج، لأن هذا الفارس يُرمَز له، في كل شطرنج مصري، بفيل. أية كارثة! فهل سيبلغ الشطط بالشرطي حدّ قطع قوائمه؟ لا أعتقد ذلك حقيقة. على أي حال، سأحاول أن أشرح له أن عليه أن يعتبر عبارة "قوائم الفيل" (وهي عبارة فرنسية تعني البنطلون "الشارلستون") مجرد مجاز أو كناية – وهنا ستفيدني دروس البلاغة التي لقّنني إياها أبي منذ أن كان عمري سبع سنوات – على غرار قولنا "شرب فنجاناً". سأقول له: "نحن لا نشرب الفنجان ذاته بل ما بداخله"، أو مثل الكناية الشعبية "كعب عالي نازل" التي يردّدها ركاب الحافلات عندما تكون امرأة على وشك النزول من الحافلة، للقول إن واحدة ممّن لهن كعبٌ عالٍ، أو من الجنس اللطيف، تستعد للنزول. وعلى ذلك، لا نقطع "قوائم الفيل"، قلت بأمل عارم. وفي أسوأ الحالات سأقسم بحياتي وحياة أبي وأمي وإخوتي أن هذا الشطرنج يمثّل

جيشين في مصر الفرعونية وأن "موضة" الشارلستون قد جاءت متأخرة كثيراً عن زمن الفراعنة.

وعند النقلة الثانية والعشرين في لعبة الشطرنج بيني وبين شكيب كان الشرطي قريباً منا. وفي حين كنت أستعد لأمسك بالشريط اللاصق المغبرّ فوق الملكة المحطّمة، أصبحتُ فجأةً مطمئناً إلى مصير الشطرنج. كان لدي فجأةً ما يشبه الانطباع أن الملكة تحمل شريطها اللاصق كحرز. نعم؛ فهذا الجرح الذي بدونه لن يكون الشطرنج متلائماً مع مدينتنا المحطمة بدا لي مثل الثغرة التي فتحها النبي المترحّل الخضر في السفينة، ليس لإغراق راكبيها، كما اعتقد موسى بتسرّع، بل لتقليل قيمتها حتى ينقذ سفينة الفقراء من سطوة ملك يأخذ كل سفينةٍ غصبا، كما كشف ذلك هذا النبي الحكيم فيما بعد. ومثل هذه الثغرة التي تصفها آيات القرآن الكريم، كان هذا الجرح يحمي الشطرنج من مصيرٍ مأساوي. ففي مدينتنا الصغيرة، من حيث هي مستودع عظيم للحكمة والعلوم الباطنية، ينبغي أن تكون محطّماً بعض الشيء لكي تكون سعيداً. هكذا، وبعد أن تطهّرت من كل خوف، أعدتُ التفكير، بمرحٍ متخابث، في والدي مستغرقاً في قراءة **رأس المال**!... كنت واثقاً من أنني لو كشفت

لعدنان هذا الافتراض الذي لا رادّ لتفاهته، سيثبت لي أن من المحتمل أن يكون والدي أكثر "ماركسيةً" من الآباء الروحيين لحياتنا الجديدة، المتعمقين في علوم الماركسية والأميين في الغالب، وغير المتعلمين إلى حدٍّ كبير.

وفي النقلة الثانية والعشرين وصل أحد بيادقي السود إلى خطّ ملك شكيب متحولاً إلى ملكة. حرّكتُ بعناية فائقة ملكتي ذات الأحشاء الممزقة، بعد أن كانت منبوذة في طرف طاولتنا، محرراً إياها من ذبابة كسولة، شديدة الكسل، كانت ملتصقة بأكتاف الملكة وضمادها. ولم أستطع إخفاء ارتعاش يدي وأنا أضع جثة الملكة بدلاً من البيدق الشجاع المقترب من صدر شكيب. وأحسست في الوقت نفسه بالارتياح لعودة هذه الملكة محرجاً أن أرى الشريط اللاصق البائس حول بطنها الجميلة والمأساوية. فأصبحت المباراة في الحال عارية، مسطّحة، عرجاء، وبدا من جديد جحيم هذا الصيف اللانهائي – كنا في شهر أكتوبر! – حصاراً تُوجَّه له جميع أنواع الشتائم. تخلّى شكيب، الذي كان متبحّراً في بلاغة الشتم، عن المباراة بعد اثنين وعشرين نقلة، وأطلق سيلاً من اللعنات على جنون المدينة، وعلى الشمس و"الغضب الثوري" والذباب،

والشطرنج، وزوجة أبية الشرسة. تناولنا الشاي من جديد في انتظار عدنان. وعند حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر هبّت الريح على سطح المقهى، نسمات عليلة مثل أنفاس المحبين على الخدود. لا شيء يساوي هذه اللمسات الحنونة في هذه الساعة، وهذه العلامات التي تعلن الخلاص من طغيان الشمس. ما زالت هناك بعض السحب في بحر سماء زرقاء صافية، قبل أن تتمزق بهدوء في آخر موجات تخلّت عنها الشمس. إنها الساعة التي تتحول فيها "الشيخ عثمان" إلى خلية نحل تعجّ بالحركة، يتدفق الأطفال ساعتها من كل مكان، حول رمالها وسطوح مدارسها، أمام دكاكينها وأسواقها، حول ساحات لعب الكرة وزوايا الظلال، بالقرب من مساكنها وفي شرايين شوارعها... ينهمكون، ويداعبون الكرات، ويثيرون الدوامات، ويضربون أوراق اللعب على الطاولات، ويتسلّقون أعمدة النور، ويقفزون حول الحواجز... ويتحمس لاعبو الكرات الزجاجية أو الحصى مثل حماسة من يدحرجون العجلات أو رواة القصص. أما المراهقون فينهمكون في تقاطع الأحياء، يحملقون في المارة، ويتجاهلون تماماً آخر السيارات التي تحمل المتظاهرين وقد بُحّت أصواتهم، وهدّهم التعب

الثوري، يكرّسون كل نظراتهم على الشابات المارات، يتابعونهن ويتأملونهن، ويحللون حركات أهداب عيونهن، ويتفحّصون الخطّ البياني لمرحهن، ويتعرفون على تفاصيل أزيائهن، ويسجّلون جغرافيا تصفيف شعورهن، ويفرحون لأدنى ابتسامة يمكن اصطيادها، ولأقل لمحة خاطفة. يغازلون في خجل وتهيّج، ويتبادلون مع جماعة الحي المجاور "تقارير" معمقة عن اللواتي مررن، واللواتي لم يمررن بعد، واللواتي قد يمررن، وحول يوميات الحب البطيء، وعن سوق الشعر المعطّر، وبورصة خفقات القلوب. أما من هم أقلّ مراهقةً والآخرون، جميع الآخرين، فيتسكّعون خارج المدينة حيث تعانق العصافير السماء.

بدأ المقهى يمتلئ شيئاً فشيئاً بالرواد. ودخل إلى المقهى شاب سمّى نفسه "القديس" (لتشبّهه بسيمون تمبلر، الممثل في المسلسل التلفزيوني "القديس" الذي عُرض في أواسط الستينيات)، أكمام قميصه مكفوفة حتى الكتفين، والقميص نفسه مكوي بعناية ومحشور بدقة في البنطلون الذي يمكن تمييز عطفتيه بوضوح. تقدّم هذا الشاب بحذر وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة كأنها ملصقة من الخارج، وخلفه شاب آخر يتبعه سراً ويمسك فوق شعر رأسه

القصير المجعّد خيطاً من "العزف"[4] ملفوفاً على شكل الهالة التي تظهر على رأس القديس في المسلسل، أمام أنظارنا المتواطئة التي تمسك في مرح ابتسامة ساخرة.

4 العزف: القشّ

ثم وصل إلى المقهى شابٌّ آخر محمّلاً بحقيبة مملوءة بالحليب، والزبادي، والقرفة، والرز، والزعفران، وقارورة زيت كان قد اشتراها من دكان الشارع المقابل الذي توجّه إليه فجأةً حين رأى امرأةً بالقرب من ذلك الدكان. إنها تلك الفتاة التي لم يتوقف عن مراقبتها، ولم يتوقف عن الأمل بالاقتراب منها، وباجتذابها، وتوسّل اهتمامها به، وحبها له. فاشترى من هناك، متظاهراً بمصادفة محضة، كل ما كانت تشتريه فتاة أحلامه، معتقداً أنها بذلك ستلاحظ منذهلةً التناغم الكامل بين حاجاتهما وأذواقهما، والاتفاق التام بين روحيهما، وميلهما الطبيعي الذي برمجه "خالق الصدف" وما يترتّب على ذلك من إقامة رابطة لا تنفصم عراها أبداً. ثم التحق بنا عدنان.

الفصل الثاني

بعد أن شربنا آخر فناجي شاي، أسلمنا أنفسنا لتسكّعنا الطقسي المعتاد، فقطعنا بضعة شوارع في كل قسم من أقسام "الشيخ عثمان" الأربعة. وفي لحظات الصمت القصيرة كنت أتفحّص شكيب خلسةً. كان من الواضح أنه يحاول تفهم الكوارث التي حلّت بالملكة، وكان من الواضح أيضاً أنه يجهل أن جرح هذه الملكة المصلوبة كان جرحي أيضاً.

كان شكيب أكبرنا، نحن الثلاثة، سناً، وأكثرنا سمرة. وكنت أصغر الثلاثة سناً، وأقلّهم جاذبية. وكان عدنان بخصلات شعره المدورة الجميلة أكثرنا جاذبيةً بلا شك، يعطيه أنفه البارز ملمحاً جذاباً في نظر البعض، ويضفي عليه بعض القبح في نظر آخرين. وكنت أرتدي فوطة عدنية في حين كان الاثنان الآخران يرتديان بنطالين. كانت سنّ كلٍّ منا، نحن الثلاثة، أربع عشرة سنة، وكنا نرتدي قمصاناً بيض مكوية إلى هذا الحدّ أو ذاك. نسيت أن أقول إن اسمي ناجي، أو بالأحرى أرغب في أن أسمّى بهذا الاسم في هذه الرواية، لأن أبي في لحظاته السعيدة كان يفضّل أحياناً أن يطلق

عليّ هذا الاسم الذي عاد إلى ذاكرتي فجأةً اليوم، بعد خُمسِ قرنٍ هنا، في الغرفة رقم ٢٤٨ في مستشفى اوتيل ديو في مدينة روان، حيث أكتب أولى سطور روايتي هذه، على بعد ستة آلاف كيلومتر من عدن. كان شكيب يمشي بجزمة في حين كنا نحن الاثنان، عدنان وأنا، نمشي بصنادل. وكانت قدماي أكثر اتّساخاً وقذارةً كما يقول البعض. ولم يكن هذا رأيي: فأنا أعدّ الأقدام التي لا تستنشق الأرض والريح مخنوقةً وجليديةً و"غير شاعرية"، حزينةً وقذرةً بالضرورة. وعلى أي حال، لعل هذا ما يناسبني تماماً، لأن الغبار يتسرّب بسرعة إلى قدمي، ويحتمل أن السبب طريقتي غير المنتبهة في المشي، طريقة شخص مغرق في التسكّع، مشتت الذهن عند كل خطوة. وغالباً ما يقال لي اليوم، بعد أكثر من عشرين سنة، وعلى بعد ستة آلاف كيلومتر من عدن، إنني أقود سيارتي التي يطلقون عليها "المركب السكران" تماماً كما أمشي على قدمَي، أي بطريقة رديئة جداً. كان شكيب يمشي كرجل عجوز، أما عدنان فكان يمشي كنبيّ. لم أمشِ قط بينهما في الوسط. كنت دائما أكره الوسط.

باشرت الشمس انحدارها المنقذ فوق السهل الوادع حين تركنا المدينة متجهين نحو القفار الواسعة المحيطة بها. تبدأ المدينة هنا

حيث تنتهي، بين آخر مبانيها ونهر يحيط بها عن قرب. وكانت أكواخ الحرفيين والحوانيت الصغيرة والمقاهي... تشكّل نهراً يقطع الرمال، نهراً يتلوى كأفعى منعمة، مسترخية، تحيط بالشيخ عثمان كخاتم تتكون حليته من حوض مربّع من الملاّحات المطرّزة بطواحين قديمة للملح – أُزيلت اليوم تماماً. يتدفق أهل الشيخ عثمان كحجاج مثابرين إلى هذا النهر الذي يسمّونه "نهر المتعة" ليسبح الجميع في مياهه الخيالية التي يجسّدها اصطفاف الأكواخ المزروعة في جوف كثبان الرمل الصلبة (الأكواد). وبين المدينة ونهرها هناك ما كان يُطلَق عليه الضفة الجنوبية. أما فيما وراء النهر، بينه وبين الفضاء اللانهائي، فتوجد كثبان بلا نهاية، إمبراطورية غبار تسمّى الضفة الشمالية. ولجميع الكثبان الواقعة على ضفتي النهر أسماؤها، مثل "كود البواقين" و"كود عشاء الجمال" و"كود الشعراء" و"كود الفاسقين" و"كود المشنّبين" و"كود الفلاسفة" و"كود المخنّثين" و"كود المزّاحين" و"كود المجانين" و"كود عشاق الليل" و"كود عشاق منتصف الليل" – وعشاق الليل مع عشاق منتصف الليل يُكوّنون جزءاً من مجموعة أوسع يُطلَق عليها "مدينة الأحلام" – و"كود الصمت" و"كود

الثرثرة الساخرة (الحشوش)'' (البعض يسميها على نحو ألطف ''كود الرئة الثالثة'') و''كود التسكع''... وتلك التي تحمل اسم زمرة الأصدقاء الذين يترددون عليها بانتظام...

فرق من الشباب يلعبون كرة القدم علي الضفة الجنوبية على امتداد رملي مقسَّم إلى ساحات عديدة، أمام مشاهدين من جميع الأعمار، شديدي الحماسة، وتخفق القلوب بإيقاع العجلات المتطايرة. يكفي زوجان من العجلات وقضيبان وتنكتان صدئتان لتكوين مرمى، وملعب للسعادة. نساء ورجال وأطفال يمشون على نحو متقطع بين المدينة ونهرها، يقضون وقتهم، يتغذون بالكلام والمرح. وهنا وهناك ينتشر حرفيون يعرضون أباريق وفناجين وآنية شاي... قطعان من الخرفان السمينة ذات لونين مميزين (رؤوس سوداء فاحمة وصوف كثيف أصفر) تتزاحم، ترعى العشب المتناثر، وتتثاءب، وتنظر بعين وادعة إلى ذابحيها القادمين.

جمال تجرّ عربات محمّلة بالعلف والحطب، وعابرون غير مستعجلين... يصلون من هذا الجزء أو ذاك من أجزاء المدينة، يمرون ببعضهم بعضاً بهدوء في مشيهم نحو ''عشاء الجمال'' في

آخر النهار. الجمال مسترخية بوضوح، سعيدة، مقرفصة حول حزم من أعشاب أعدّها الجمّالة، تجترّ في سكينة، وتنعم بهذه اللقاءات الحميمة بالقرب من المدينة. إنها تعيش هي الأخرى أيضاً مثل مدينتها أفضل لحظات اليوم، لحظات حلول الليل المحاطة بهالة من عذوبة وسعادة. وبالقرب منها، هنا أو هناك، معاصر زيت تدور حولها دون توقّف جمال أقل حظاً. تنبعث من هذه المعاصر رائحة حادة، ثقيلة، بربرية على نحو لطيف. ينتابني دائماً الألم حين أرى كل هذا العذاب من أجل شريحة كثيفة من زيت يقطر ببطء شديد. لو كانت "الشيخ عثمان" حيواناً لكانت في رأيي جملاً، فلها لون الجمل، وبطء الجمل، وصبره، ولطافته، ووفاؤه، وضغينته، وحياته (يحكى في الشيخ عثمان أن جملاً كان يعبر أحد الأحياء ليلاً تعرّف على مالكه القديم ينام على سرير أمام منزله، فتذكّر القسوة التي كان يعامله بها قبل سنوات عديدة... ولأنه لا يعدّ نفسه جملاً مقدساً، ولا يستطيع انتظار طامة ذات صباح مثل تلك التي أبادت قوم صالح الذين عقروا ناقة الله، عاد في منتصف الليل إلى مكان السرير وألقى بثقله كله على الجمّال القديم ومات فوق جثته هانئاً).

أجهزة مذياع ورجال يتّحدون بالغبار، بعضهم يستمع إلى غناء أم كلثوم، وآخرون ينصتون إلى غناء المرشدي، وأناس متّكئون على بعض الوسائد، أو يتمددون حيث يوجد قليل من الظل. مقايل تبلغ منتهاها، وتسود لحظة التجلي. شعبٌ بأكمله يهرب على نحوٍ مدهش من المكان والمادة والزمان، ويثابر على إنشاد لحن ”القات مستقبل الإنسان“ (وليس ”المرأة مستقبل الإنسان“ كما كتب أراغون وغنّى جان فيرا) أمام إنسانية خرساء، يحلم، في بحثه الحميم عن الصفة الضائعة، بـ ”عربيتة السعيدة“، ويحلم بطريق القات (لتحل مكان طريق البخور) التي تذهب إلى بكين ونيويورك وأوسلو وجوهانسبورج... لا شيء يستهلك الوقت (أو كما يقال: يقتل الوقت) ببطء وعلى نحو حميمي مثل هذه الأعشاب الماكرة لهذا النبات الفلسفي. فالزمان اليمني نفسه جاثم يمضغ قاته، سكراناً حتى الموت. ينتفخ خداه، ويواصلان الانتفاخ، ويمتصّ كرةً رخوةً حلوةً مرّة، تفيض من الأذن حتى الحلق، من طرف الذقن حتى العنق، لتضاعف حجم الرأس على نحوٍ غريب. انعكاسات آخر أشعة الشمس المضطرمة، على خدود تبلغ أقصى حدود انتفاخها، تضفي دائماً على آخر النهار سمةً شاذة مبالغة، تكون مقدمة فلكية

لمقدم نجوم متلألئة ونيازك راجمة...

وصلنا قبيل الغروب إلى أحد ''الأكواد'' المفضّلة عندنا في نهر المتعة، وأوينا إلى مكان مجاور لآخر أنشطة النهار. المدينة أمامنا على الضفة الجنوبية، وخلفنا في ما وراء النهر منطقة مميزة من الضفة الشمالية تسمّى باريس، فيها نخيلٌ منزوٍ وبضع واحات لم تتصحّر تماماً بعد على مشارف غابة ''الأكواد''. كانت باريس بخاصة هذه الغابة من الكثبان الصلبة، بحر الرمل الناعم الذي يعانق الأفق، ويحتضن اللانهاية. هذا الإفريز من الغبار المتدلي حتى محيط الرمل العظيم، الربع الخالي الكبير... كانت الأكواخ في ضواحي واحات باريس غير متماثلة، منها ما يصنع خلاًّ محلياً فاخراً من رحيق أشجار ''البهش''، تلك اللآلئ الغامقة التي تسيل مكونةً عنقوداً ثقيلاً من أشجار تسمّى ''نخيل إبليس''. وبعض الأكواخ تصنع ''عشّاراً'' لذيذاً من الليم[5] الحامض، وقد خُمِّر لأسابيع تحت حرارة الشمس التي تغذّي النهر. وهناك بخاصة ''معابد النشوة''، أكواخ وكهوف تحتضن العطاش لـ''الطاري''، الخمر المحلية المعصورة من دماء قلب ''نخيل إبليس''، وأكواخ تؤوي العطاش لرحيقٍ آخر، ولملذّاتٍ غير أليفة. وتوجد هنا أيضاً

دار سينما الشيخ عثمان: سينما الشرق، المتخصصة، كما يُفهم من اسمها، بالأفلام المصرية والهندية. وهنا أيضاً سينما الحرية التي تعرض، كما يشير اسمها أيضاً، الأفلام الغربية. وهنا كذلك مكان حقيقي لإشباع الفضول: حديقة حيوانات. نعم، حديقة حيوانات رائعة، واسعة، ومنسقة تماماً... وغير لائقة تماماً في مدينة كئيبة. فعالمنا المشدود إلى تماسكه وإلى حياة التقشف قد رفض دائماً ما يقوّض أساس منطقه واتّساقه العميق مع نفسه. فسرعان ما سيبيد حديقة الحيوانات، وينتهي بطريقة مأساوية من هذه التجربة التي لا محل لها من الإعراب.

5 الليم: الليمون

ومع حلول الليل يبتعد الرجال والنساء عن النهر وعن أكواخه، متجاوزين السينما وحديقة الحيوان، يسلكون خلسةً الممرات الغامضة البعيدة، والقناطر الافتراضية الأبعد، وطرقات الأشباح... نحو باريس. يتّجه المعتادون نحو أماكن لقاءات عشقهم، يختفون في مكانٍ ما بين القمر وجبال الغبار، تتضوع خطواتهم بعبق البخور والعطر، وبروائح الورد والياسمين والكاذي والمشاقر (الشقر)... تلك الروائح التي تغسل الأرض المجهدة وترسل عليها

نسمات من هواء منعش رائع لتستريح أخيراً. أما غير المعتادين على المكان فينتظرون مرور علي الأعجم، "سلطان باريس"، الرجل الذي يرسم خارطتها، ويوزّع كثبانها للعاشقين، ويرتّب خلواتهم الحميمة، ويسهر على توفير راحتهم وسعادتهم.

لا يعرف أحد لماذا يسمّى هذا الامتداد من الكثبان الرملية المتصلبة "باريس"؟ ألأن فيه مأوى يرتاده الجمّالة عند ملتقى هذه "الأكواد" يسمّى "Paris de Café" بلغة غير معروفة؟ أم لأن باريس في اللاوعي الشعبي مدينة الحب العاري والحرية؟ ولماذا يسمّى المقهى بهذا الاسم؟ ألأنه المقهى الوحيد الذي يبيع الرّاح من حيث باريس مدينة النشوة؟ أم أنه يحمل ببساطة اسم محيطه الجغرافي؟ لا أحد يعرف. وقد يكون هناك استثناءٌ واحد، هو صاحب باريس، علي الأعجم. لكنه محاصر داخل صمته الأصم، يرفض النطق ولو بكلمة واحدة منذ اثنتين وعشرين سنة مضت. إنه جرح متنقل، يجوب كل يوم الطرقات نفسها في قلب باريس، بوجهه الجميل المنطفئ: شعر رمادي منفوش، وعينان واسعتان أنثويتان، وشارب أسود منسدل، ونظرة عميقة حزينة. يقطع قلب باريس كما يقطعها نهر السين، دون أن ينبس بكلمة، ودون إشارة،

باستثناء واحدة تحدد الأماكن المناسبة للعاشقين الجدد المشتعلين بالرغبة. يواصل سيره بخطواتٍ ثابتة ورأسٍ منحنٍ نحو رملٍ كرّس له اثنتين وعشرين سنة من حبٍّ مستحيل لحبيبته التي حُرم منها والتي ما زالت في انتظاره هي الأخرى، تحمل في جوانحها القدر نفسه من حبٍّ يستعصي على الدمار، وعاطفةٍ لا تموت، هناك في البعيد، في هضبة حضرموت الواسعة، على الجانب الآخر من "الأكواد"، وبينهما زواج ممنوع، وحب لا يقهر، وستمائة كيلومتر من الرمل، وتوق جارف، وعاطفة لا تبلى.

الساعة السادسة والنصف بعد الظهر. بدأ غروب رائع لشمس حمراء ضخمة، في طرف هذه المساحات. مشهد ساحر، ولحظة نادراً ما فاتتني. يحزنني دائماً عدم وجود موسيقى كونية تصدر من أحشاء الأرض، ومن الآفاق الأربعة، لتحية هذه اللحظة ومصاحبتها. لكنني في ذلك اليوم لم أشاهد غروب الشمس كما أفعل كل يوم. لم أكن منشرحاً. قال لي عدنان:

– تبدو شارد الذهن.

كان ينبغي أن يقول "تبدو مجروحاً"؛ مجروحاً ومخنوقاً في الوقت نفسه. حتى أوشكت في بعض اللحظات أن أفشي سر ملكتي

المغدورة (فالرمل واقتراب الليل يبعثان على استفراغ الألم، وعلى التطهر). لكن سري مخيط بعقارب صغيرة في أحشائي ومذاب في دمي. وسرعان ما طردت رغبتي بأيدي أربعين شيطاناً لهم عيون من جمر. لم أستمع إلا قليلاً إلى رفاق الصف. انشغلتُ بمراقبة حركات الناس على ضفة النهر، والقراءة الحرة في ملامحهم. حاولت اختراع أفراحهم وتخيّل أتراحهم. نظري – القصير، والقصير على نحو غير عادي، والذي ستسنح لي لاحقاً فرصة الحديث عنه – يتابع بخاصة، وبقدر ما يستطيع، بعض أزواج من العاشقين يهربون منتظرين غروب الشمس ليتغلغلوا في أعماق باريس. أعجبت بهم كما يعجب الناس بأبطال الروايات. فكم تشبّعت أذناي بعجائب أرض لذّتهم على الجانب الباريسي من النهر، حيث يختلط السر العظيم بالحرية العظيمة بموسيقى الليل.

ليس من غير المتصور مقدار ما لدى مدينتنا من حب المغالاة، من فن تناسل المتناقضات. يوجد في هذه المدينة صنفان من المواطنين، المحبطون بسبب حاجتهم إلى الحب، ضحايا ثقل التقاليد (الذين تصلبت أيديهم وأنهكت عظامهم من وطأة العادة السرية كما يقول شكيب الذي لم يكن مولعا بالتورية)، ويوجد الآخرون: دائرة

”خفية“ من العشاق الأبديين، منهم صفوة ”متخمة“ بالحب. دائرة مغلقة بإحكام. ”هيئة أركان“ عشق متّقد لنساء ورجال غير معروفين، تنسج حياة الملتحقين بهذه الدائرة وتنظمها وتغذيها (يبدو أن هذا موروث من تراث قديم، ومن فن حياة معين معروف في بعض المناطق حول المدن، يزعم أن لهم تقاليد عريقة في ممارسة الحب بحرية). إنها هيئة مغلقة، سرية، ظروف اختراقها مجهولة، إلا أن من المعروف أنه حين يحالف الحظ صديقاً أو جاراً بالانتماء إليها تكون حياته عندئذٍ مزروعةً بالرقة والحب، مفعمةً بالحبور واللذة المعطّرة. ويبدو أنه سيكون أمامه أن يختار بين أن ينغمس في رومانسية مستميتة أو أن يغرق في حبٍّ له مذاقٌ حرّ، في أماكن سرية ولكن بخاصة تحت نجوم ”الأكواد“ والسواحل الواسعة الممتدة من البحر الأحمر حتى الخليج العربي (الفارسي).

أيجب أن أوضح أن مدينتنا مدينة المتناقضات؟ في هذه المدينة التي تمضي النساء نصف أعمارهن تحت ماء الاستحمام يعتنين بزينتهن، ويضعن ثيابهن على ”المشاجب“ لتبخيرها بشذى البخور المنبعث من المباخر الموضوعة في الوسط، ويخلطن أحدث العطور بكيمياء وصفات موروثة منذ آلاف السنين لصناعة

الدهانات، مع زيوت وأعشاب عطرة بعثتها قديماً ملكة سبأ إلى الملك سليمان، ويعطّرن الشعر، ويضعن شيئاً من الزباد خلف الآذان، ويضمّخن الأكتاف والآباط والأرداف والأقدام وبقية أجزاء الجسم بدهانات مختلفة... نساء مدينتنا هؤلاء يردّدن دائماً أنهن قد يفتقدن نهائياً كل شيء، من أصغر كسرة خبز، وأصغر قطرة ماء... لكن سيكون لديهن في علب صغيرة بخور، وزباد، وعنبر، ومسك، وعود (صندل)، وكافور وياسمين. إنهن لا يفعلن هنا سوى التذكير بتمسّكهن بالروائح الزكية، وهو تمسّكٌ قديم منذ بضعة آلاف من السنين، سابقٌ تماماً على قول هيرودوت: ”تفوح من شبه الجزيرة العربية كلها رائحة ذات عذوبة رائعة ومقدسة“. إنه تمسّك ملتاع إلى حدّ أن ”أكبر علامة حزن وأسى يمكن أن يصيب إنسان في ذلك الزمن القديم، أن يحرم من العطر“. في هذه المدينة التي تحرق البخور مساء كل خميس لا تخلو أركان شوارعها من القذارة من كل نوع، وتتدفق مجاري ”الجلي“ فيها بلون أسود غامق.

غمر الشفق كثيبنا، وأسكرنا شكيب بقصص عائلية تخصّ أخاه غير الشقيق الذي كسر هذا الصباح وللمرة الحادية عشرة نظارتيه محتجاً على الشاي الذي زاد فيه السكر. في المرة الماضية كان

ينقص الشاي الذي قدمته له أمه بعض قطع من السكر، فلم يناسب ذوقه.

سألت:

– ألديه نظارات جديدة؟

أجاب شكيب بنبرة محتجة:

– نعم. قدمت له أمه في الحال نظارات جديدة.

– أتساءل عمّا إذا كانت أمه تملك دولاباً كاملاً من النظارات؟

ردّ بسرعة عدنان الذي كان يفكّر بعمق في أسئلة أخرى أقل خفةً من عيوب أخٍ غير شقيق. كان مهموماً بالمظاهرات المحمومة التي تزعزع مدينةً رخوة في رأي المتظاهرين المهتاجين. غزوا المكاتب، وقذفوا الأوراق والملفات الإدارية إلى الخارج باعتبارها رمزاً للبيروقراطية وللترف الفكري. لم يكونوا يحبون، بأي حال من الأحوال، البيروقراطية، والكتابة، والترف الفكري، كما قال عدنان. دفعوا العاملين نحو الشارع، نحو الغليان والرقص الثوري (كما هو واضح: حياة بلا جمود. مشهد ديناميكي ملتهب ومدهش، كما قال). يجب إحراق كل شيء. يجب العيش عند درجة مائة مئوية. من الواضح أن درجة حرارة عدن لم تكفِهم: أربعون درجة

مئوية. لا. ينبغي العيش عند درجة الغليان بالذات، لا أكثر ولا أقل. الدرجة المقدسة. الحد السحري الذي يتحول الماء عنده إلى بخار (حجة علمية قاطعة تبعث على النشوة، كما يقول عدنان). جميعهم أميون إلى درجة تسيل لها دموع الحجارة، لكنهم يجيدون على نحو مذهل ترديد هذه الجملة التي جعلت أكثر من شخص يلتحق بالثورة: إن التحولات الكمية حين تصل إلى درجة معينة تصبح تحولات نوعية، والدليل على ذلك: يتحول الماء من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية حين ترتفع درجة الحرارة، ترتفع، وترتفع حتى تبلغ درجة الفوران – الدرجة الثورية، الدرجة المئة التي ستحول مدينتنا النائمة إلى مدينة مستيقظة. تلك التي ستنقلنا حتماً من عصر ما قبل التاريخ إلى المستقبل المشرق، إلى الجنة على الأرض، كما قال. إنهم جميعاً أميون إلى درجة تجعل الأموات يصرخون، لكنهم يعرفون، على نحوٍ يستحق الإعجاب، القول: هذا هو القانون الثاني من قوانين "مبادئ الديالكتيك" وهو القانون الذي يلي قانون "صراع الأضداد"، ويسبق قانون "نفي النفي". ثم استغرق عدنان في الحديث عن عملية تكرير عدن وتسخينها، نموذج الدرجة المئة... استمعت إليه ببرود وبتقطع. كانت مشكلتي هذه الجثة

القابعة داخل كيس بلاستيك يحمله زميلنا الثالث. كنت خائفاً من هذه المظاهرات، وهذا كل شيء، دون أن أفهم نظرياته. فقد كنت لا أفهم إلا القليل مما يقوله عدنان. كان متقدماً علينا نظرياً بعشر سنوات على الأقل. كنا ثلاثتنا معاً منذ السنة الأولى في المدرسة، في الصف نفسه. كنا دائماً الثلاثة الأوائل في الترتيب نصف السنوي، وكان عدنان بانتظام الثالث، وهذا ما ظل بالنسبة لي لغزاً محيراً، لأنه كان الأفضل في نظري بلا منازع. كنت سأكتفي بالقليل من ذكائه؛ بجذوة صغيرة من نفاذ بصيرته، ومن شجاعته. وكان شكيب دائماً الثاني، ولم يكن أمامه في رأيي ما يأمل فيه. لم تكن سن عدنان تزيد إلا قليلاً عن أربع عشرة سنة حين راوده حلمان في حياته، أن يحل بعض المسائل المفتوحة للبحث في الرياضيات، وأن يكتب الروايات. كما هو المعتاد في مثل هذه الحالة، تستطيعون أن تقولوا لي بسخرية: ”هذا كل شيء!“. سأقول لكم دون تردد أن هذا مع ذلك هو الحد الأدنى مما قد يستطيع فعله. لقد أحب بشغف الأدب والرياضيات. لقد ولد لهذا ببساطة. ووجد القدر نفسه من السهولة والفرح والانشغال بأحدهما. لا يفهم أن يضطر أحد لإعادة

قراءة صفحة رياضيات أو أن لا ينفتح أحد في حماسة على الأعمال الأدبية. تكفيه قراءة سريعة لاستيعاب كل شيء.

أصبح في سن السادسة عشرة بطل شطرنج وكاتب بضع مقالات وقصص قصيرة – تنتشر بين أيدي أصدقائه القدامى، أو تنشرها بعض المجلات التي مُنعت فيما بعد – سأسمّيها على نحو إجمالي "كتابات عدنان" دون الاهتمام بالإشارة إلى الفهارس المفصّلة، حين أستعير بعض العبارات منها في مطلع بعض الفصول، أو حين أشير هنا أو هناك إلى بعض الجمل. وأولئك الذين عرفوا عدنان عن كثب يعتنون بحفظ كتاباته، يقرأونها ويعيدون قراءتها بتأثر وإعجاب. وبمرور الزمن وما يكشفه من حقائق أعيد قراءتها أيضاً بإجلالٍ متّقد. فعندما كان عمره ستة عشر عاماً أحب الشعر والجبر بجنون، يسبر أغوار التناغم الواحد الذي يتخللهما، كما قال، ويشدو في قلبيهما. وكان يقول: "لو كان الشعر يتلاعب بالبنى المجردة لكان ببساطة نظريات في الجبر. ولو كان الحلم والمشاعر في عمق اهتمامات الجبر لتحول دون ريب إلى شعر". لم يتمزق عدنان بفعل هذا الحب المثنّى كما لو كان له قلبان في جوفه. كان عاشقاً للاثنين، لكنهما لم يكونا عشقين متعامدين، فلم تكن له حياة

مزدوجة، بل كان في نظره يعيش عشقاً واحداً. كان يدرك بالغريزة وبجلاء ما وراء الجبر والشعر، ما يعدّ الجبر والشعر تجليات لذلك الفكر عينه، المبدع في بلاغته وبيانه، وإشعاعه وبهائه، وإثارته، الذي حين يتسكع بحرية يصبح شعراً، وحين يتأمل بصلابة يصبح جبراً. شعر وجبر، وجهان للملكة نفسها! تعبيران عن اللغة المتناغمة نفسها. فاخران ومتدفقان. نعم. هكذا قال عدنان. أحدهما يتغذى بالصور والإيقاعات والمشاعر، والآخر بالمنطق والتجريد. وأضاف: "الشعر جبر القلوب"، أو "الجبر شعر الفكر". في كل عالم جبر "شاعر تنقصه مداعبة أنامل رقيقة"، وفي كل شاعر "ينام عالم جبر". وفي كل الأحوال، أرى عالم الجبر والشاعر يقبعان داخل عدنان، عالم المنطق والحالم، يغنيان معاً، بحرية وتناغم ونجاح. كنت مقتنعاً تماماً بأن عدنان يستطيع في الوقت نفسه قراءة ملحمة من الفرضيات وشبكة من الأشعار. تخيّلته دائماً مستلقياً على سريره وأمامه كتابان مفتوحان أمام ناظريه. تخيّلت في تلك الفترة – وأرجو المعذرة لهذا الجموح – أن عدنان حين يكبر سيعشق زوجته وأقرب صديقاتها إليها بالطريقة نفسها. لكن ريشة الواقع لم تترجم يوماً تخيلاتي الطفولية.

كان عدنان، وهو المستفَزّ ممّن كان يسميهم ”الماركسيين الأميين“، يسخر من ”العبث الوحشي“ الذي استحوذ على عدن، وتنبأ بأيام عجاف تمرّ باليمن يسبّبها شبه أميين أياً كان ماضيهم المجيد. كان وهو يراقب من عليائه سير الزمن يتساءل حول ”الاتجاه الحقيقي للمعادلة التي ستسود حياتنا“. هكذا تكلم عدنان وسنّه أربعة عشر عاماً. ولم يكن الخطأ خطأه بل خطأنا. كنا نقرأ عُشر ما يقرأ، و كنا نفهم بعشر سرعة ما يفهم... لم يكلّ عن أن يقول لنا إننا نعيش بضع سنوات حاسمة في حياتنا، ولن يكون البقية، كل ما تبقى من حياتنا، في رأيه، سوى نتائج منطقية لنظرية صاغها في هذه الأيام أولئك الماركسيون الأميون. وكان أكثر تشاؤماً بالنسبة لشمال اليمن. كان يراه ينام في كهف الجهل والاستبداد والظلام. وكان اهتمامه أقل بمعادلة الجمود في الشمال. بدت له تافهة، وأقل قرعاً، وعادية إلى حدٍّ ما. كانت جينات الرماد تثيره أقل من بذور المجهول. وإذا استخدمنا تعابير عدنان نفسه، ”إن تمثيلية مكونة من مشهد مأساوي يتكررخلال قرون (سبتية) عديدة، أقل أصالةً من تلك التي يغزو المشاهدون خلالها خشبة المسرح، ويحطّمون الديكور، ويذبحون الممثلين، ويمثّلون

مسرحية أخرى يذبحون فيها بعضهم بعضاً دون رحمة“.

أما أنا فكانت معدتي تصرخ بالمجاعة، وأقدامي تحلم بسطح مطعم صغير في مركز المدينة. لم أرَ أي شيء يشير إلى نهاية مأساوية للعالم ما دمنا نستطيع تأمل غروب الشمس والمشي بهدوء في وديان الفرح خارج المدينة. صحيح أنني كنت شديد الخوف من هذه المظاهرات، لكن الخوف كان دأبي دائماً، من كل شيء ومن لا شيء. كان كل شيء ولا شيء عندي مأساوياً، وكان لدي بخاصة تفاؤل عنيد يحميني من جميع الحظوظ السيئة. كانت رائحة السمك المشوي في قليل من الصلصة المتّبلة شديدة الإتقان تصدر في هذه الساعة من مطابخ مركز المدينة هي المظاهرة الوحيدة التي أصغي إليها تقرع مسامعي من بعيد، وأشيد بمطالبها وأطرب لحماستها.

الجزء الثاني

الجمعة الدامية، أو رحلة على مسار تحتي بدائي

يتحدد كل إنسان في كل لحظة بمعادلة تتغير على نحوٍ أبدي. وفي كل لحظة تبدّل المتغيرات بمتغيرات ومؤشرات رياضية، ترسم بريشةِ تحولاتٍ لا تتوقف معادلةً جديدة تنبعث متحولةً عن المعادلة السابقة. وليست حياتنا سوى خطٍّ بياني لهذه المعادلات التي تنمو كشجرة، وليس مستقبلنا إلاّ تقدّماً نحو هذه الحروف التي تصونه خصلاتها القاعدية، ومعادلاتها الجنينية، الأولية والبدائية. وكل

شيء مكتوب بشكل مدهش في هذه الخصلات القاعدية. تشابكاتها، وتقلباتها، وتداخلها، تحدد الدالة التي تشكّلنا وتوجهنا، والصيغة التي ترسم ملامحنا، وما يستحيل إليه عزمنا اليومي... هذه الصيغة المكثفة، الأساسية، السامية بالضرورة والحاضرة المجهولة بلا انقطاع، الواضحة وغير المرئية، منحوتةٌ في كلماتنا ونظراتنا، وإن كانت مع ذلك مجهولة.

[اقتباس من كتابات عدنان]

الفصل الأول

هبط الليل في حنو على طريق عودتنا إلى الشيخ عثمان. استغرق عدنان في حديث منفعل مع نفسه، في حين شرد خيالي رغماً عني نحو ضماد المرحومة، والدقائق الأخيرة قبيل اغتيالها الذي كان حينذاك شديد التأثير والوحشية لدرجة أنني اليوم بعد معركة نسيان طويلة ما زلت أعاني من مرضٍ غريب، هو "عقدة الملكة". ولا أسرد هنا – حتى لا أربك رزانة مرحكم – خطوط لوحتها المأساوية. وأجرؤ على القول إن إحباطاتي الأليمة لا تخصّ أحداً سواي. سأغلقها هكذا بالشمع الأحمر رغماً عني في برميل مغلق بإحكام، وألقيه في قعر كهوفي التي لا طريق إليها. وقد تكون الأعراض الهزلية لـ"عقدة الملكة" هذه، إذا جاز لي القول، هي الأعراض التي يكون الحديث عنها ألطف. ولعل في شريط هذه الأعراض (التي نعتُّها زوراً بأنها هزلية لأنها تبدو خطأً غير خطيرة) معبد شطرنج، مجموعة حميمة تزيّن محرابَيّ النورماندي، تقع في ركنٍ مقدّسٍ من غرفتي. ولعل لدي رغبة لا تشبع في أن أكون حارساً شخصياً لملكات هذه المجموعة! إذ

تحتوي على أنواع مختلفة من شطرنج قادم من بلدان مختلفة، من الخشب، ومن الزجاج، ومن العظام، ومن الحديد، ومن العاج، ومن المرمر، ومن الصدف... لا جدوى في أن أقول لكم إن ملكات هذا الخليط السعيد من أنواع الشطرنج سليمة معافاة، ومحروسة بعناية. وبجانبها شطرنج من بخور يبثّ أريجاً عطراً ترعاه ملكتا هذا الشطرنج بحنان. أما الشطرنج المصنوع من الشكولاته فهو محفوظ في فراغ، ولن تكون ملكتاه، حفظهما الله إلى الأبد، مادةً لسندويتش، على الأقل، ما دمت حياً.

وأشعر بميلٍ خاص نحو الملكات من بني البشر، من غادرن هذه الدنيا ومن لا يزلن على قيد الحياة، من الملكة بلقيس إلى الملكة إليزابيث، مروراً بالملكة أروى (تأخذ علي زوجتي أنني أفضّل "تفضيلاً أعمى" شقيقتَيّ اللتين تحملان الاسمين الجميلين: بلقيس وأروى). ولا يتناقض هذا الميل المرضي مع جرعة قوية من "المادية الديالكتيكية" ابتلعتها في الرابعة عشرة من عمري من الترجمة العربية لـ"إنجيل بوليتزر" (وهي دروس مشهورة لجورج بوليتزر في الجامعة العمالية في ضواحي باريس خلال سنتي ١٩٣٥ـ١٩٣٦، طبعت في كتاب **المبادئ الأساسية للفلسفة**،

وكان كتاباً مفضّلاً في اليمن). أليست الألوان الحالية لثرثراتي المتذبذبة على تخوم أقصى يسار الوسط، في هذه النهاية الغامضة التي انتهى إليها القرن العشرين – ما أبعدها عن بوليتزر! –، مقدمات منتهى طريق يناصر عودة الملكية بالضرورة؟... اعتراف، أخيراً، على نحو أقل نبلاً وأكثر جنوناً بلا شك، بأن أميرة ما في برنامج منوعات عادي جداً في القناة الأولى في التلفزيون الفرنسي جعلتني أتأخر عن عشاء مع أخلص أصدقائي في أحد المطاعم – فليعذروني – أليس هذا دليلاً على مرضٍ عضال؟

من الذي بقر أحشاء ملكتي؟ أبي؟ أخي مروان؟ الاثنان معاً؟ أنا؟ حرب جهاد مقدسة قديمة؟ سيف الله الذي حطّم يوم الفتح، في السنة الثامنة من الهجرة النبوية، الحادي عشر من يناير سنة ٦٣٠ ميلادية، أصنام الوثنيين في بيت الله الحرام الكعبة المشرّفة، ورفع رايات نصر الله؟ أم أن حياتنا الجديدة تحولت إلى ساحة أنقاض، ونكبات وهياكل قديمة للغيلان؟

صحيح أن أبي لا يحب الشطرنج أبداً، وهذا ما قد يدعو للاعتقاد بأنه كان ماوياً إلى حدٍّ ما. ففي هذه الحقبة كان في عدن شيء من رائحة ماوية تحوم في الأفق، وكان بعض مريديها يردّدون

الاكتشاف العظيم الذي توصّلت إليه "الثورة الثقافية" أن لعبة الشطرنج تنمّي روح الدفاع عن الملك، وهي لذلك "لعبة إقطاعية". آه لو كانت قطع الشطرنج خالية تماماً من الملك! أو لو غيّرت تسمية "الملك" وألبسته اسماً جديداً من بلاغة أحدث! لو كانت لها خوذات، مجرد خوذات بسيطة!... ربما عندها ستحتوي الكتب الحمراء التي وُزِّعت مجاناً على ملحقات من أحجار الشطرنج. بضعة مليارات من الشطرنج توزَّع مجاناً! شطرنج قد لا نحتاج أن نلعب به. يكفي أن نشاهد المباراة المنتصرة بالضرورة برعاية الملك الجديد ذي العمامة الحمراء. لا، أبي لم يكن ماوياً لا من قريب ولا من بعيد. كان في نظر البعض لاهوتياً صرفاً وأصولياً صارماً. وفي هذه الحالة لن تكون عبارة التوكيد "لا من قريب ولا من بعيد" صحيحة تماماً. أليست المعادلتان اللتان ترسمان مثل هذه المدرسة الفكرية وتلك التي تلخّص الماوية – من حيث هما مدرستان حتميتان، قطعيتان، ونهائيتان – متماثلتين، كما يقول عدنان؟ ألا يمكن استنتاج إحداهما من الأخرى بعملية بسيطة من تغيير أسماء المتغيرات؟ أما البعض الآخر، وأنا منهم، فيرى أن أبي

كان في الأساس شاعراً صوفياً مشبوب العاطفة؛ صائغ أفعال ومتلاعب بالمجاز، نحّات شعر يتغنّى بعشق الجمال الإلهي.

كان أبي يرفض بشدة الألعاب الجديدة لقضاء وقت الفراغ، والتي بدأت حينها تستحوذ على اهتمام الشباب في سنّي: الشطرنج والسينما. وكانت الأفلام السينمائية الذائعة في عدن هي الأفلام الهندية والمصرية، ذات النوعية الرديئة. ولم يجتذبني الكثير منها إلا قليلاً، مثل زميلي في زيارة "الأكواد"، عدنان (الذي كان لا يزال يكلّم نفسه في طريق عودتنا إلى الشيخ عثمان، تحت ضوء النجمات الأُوَل التي تضيء طريقنا إضاءةً خفيفة – كانت أمعائي تعوي من الجوع بقوة. وكنت دائماً أيضاً بعيداً عن المرثية الحزينة لعدن التي تحيك أبياتها مواضيعه القلقة، وتصقل قوافيها وألفاظها المتكدرة). حدّثني عدنان يوماً أن أحد جيرانه كان يرتاد كل يوم صالةً مخصصةً لعرض الأفلام الهندية، هي سينما الشرق، ليشاهد دائماً الفيلم نفسه، تمتلئ عيناه بالدموع كل يوم. "أيعرفون أن شاشةً حقيقية توجد في مكانٍ ما من هذه الصالات؟" هكذا تساءل عدنان حرفياً عند حديثه عن صالات السينما التي تحولت لمصانع دمع في نهاية الأفلام الهندية التي تنتهي دائماً بموت البطل. وهكذا كان من

الطبيعي أن أشارك أبي رأيه المتعلق بالموضة السائدة، مع فارق واحد: هو أنني كنت أميل لاعتبار أنها بلا قيمة، في حين كان يراها ضارة تماماً. ولكن، بالله عليكم، لماذا الشطرنج؟ لماذا الشطرنج؟ من الأفضل أن أعترف دون إبطاء. لقد آلمني وعذبني على نحو لا يمكن وصفه حكمه الذي يدمغ هذه اللعبة بأنها ”مضيعة للوقت“ تشغل الشباب عن سلوك الطريق القويم، تهدر الساعات دون قراءة أو تجويد آيات القرآن الكريم، وتستغرق طاقةً لا يجب صرفها إلا في الخشوع أمام عظمة الله.

قلت لأبي آملاً في رفقه:

– يا أبي. ينصحنا المعلّمون بلعب الشطرنج. قالوا إن فيها رياضيات وأننا نتعلم منها التفكير المنطقي.

قاطعني قائلاً:

– إن الشريعة تمنع منعاً باتاً لعب الشطرنج.

وفتح كتاباً لا أدري ما هو وقرأ منه: ”من لعب الشطرنج في الدنيا لعبه في نار جهنم بحجارةٍ من نار“.

”أفحمني وشواني بهذه الحجة“، قلت وأنا مقتنع بأن هذا النوع من الكتب التي تمنع ازدواج العواطف لا يمكن الالتفاف عليها. لعلّي

أحتاج هذا الشطرنج المصنوع من الجمر لأستطيع اللعب مثل عدنان ”باللمس“ دون نظر، مذيباً مشاعر الإحباط في الكآبة التي أصابتني بعد هذا الحكم الجليدي (فلتعذروني لأن الهرطقة تتسرب دائماً في سراديبي الكئيبة كما تتسرب نسمةٌ متمردة ورقيقة، كذوبان الجليد). وهكذا أخفقت حجتي المتذرّعة بـ”التفكير المنطقي“! لعل الخطأ خطئي. لم يكن أبي يعير دقة ”التفكير المنطقي“ اهتماماً كبيراً، ولم يكن لذلك علاقة في نظره بـ”البحث عن العرفان“، هذا المصطلح الذي وهبه حياته، والذي بفضله حصلتُ على مكاسب عديدة مستغلاً طيبته وبراءته الكبيرة (أعليَّ أن أعترف هنا كم مرة استحوذتُ على نقوده بادّعاء الرغبة في شراء كتاب؟). كان عليَّ بالتأكيد تدبير جملة – لا أدري كيف، ولكن هذا ما حدث – تشير إلى هذا ”البحث عن العرفان“، والتلويح بها علناً؛ أو تمرير فعل يدسُّه بدهاء، ويصبو إليه على نحوٍ غير مباشر.

”من لعب الشطرنج في الدنيا لعبه في نار جهنم بحجارةٍ من نار!“. أحببت بلاغة هذه العبارة، قوة اطمئنانها، وجمالها القمعي، وأصالة الصورة فيها، وإن كرهتُ دلالتها ونبرة التهديد العالية

المعبّر عنه بفن الإرهاب. سحرتني بقوة هذه الجملة ونفّرتني بالقدر نفسه. تخيّلت نفسي وسط زوبعة جلجلة جهنم، تشقّني الجروح وتقطعني، وتجرجرني من عذاب إلى عذاب، يتجدّد جلدي بلا انقطاع (ليتحمل العذاب أكثر فأكثر، ليُشوى ويُشوى، ليتجدّد احتراقه إلى الأبد في نار الحطمة. سعير يلتهم كل شيء بشراهة لا مثيل لها ويتعذر تصورها) وأنا ألعب خطة "التبييت" بشطرنج يلتهب بجمرٍ لا يخمد. إنه عمل فظيع ومرعب. أفضّل تخيّل نفسي أنسحب من جميع المباريات قبل بدئها، مدركاً أن "اللعب باللمس" دون مشاهدة فروسية لن أمارسها قط. "من لعب الشطرنج في الدنيا لعبه..." جملة رائعة ومرعبة لا أملك إزاءها أيَّ سلاحٍ رادع. وفي هزيمتي القاتلة نظرت بكل ضغينة يمكن أن أحسّ بها إلى كتب ألف ممنوع وممنوع. تلك الكتب التي تهزأ بي وتخرج لي على نحوٍ غير لائق ألسنتها من فوق رفوف مكتبة أبي الكبيرة. تعرفت إليها من بين آلاف الكتب الأدبية والدينية في غرفته. هي التي ألهبت عشقه الصوفي الغيور والأعمى. سحر منطقها دماغ والدي. فهل يجوز وفقاً لمنطق هذا الحب المتفاني والوحيد قضاء المرء ساعات في تأمل تماثيل صغيرة من الخشب، وتكريس ذهنه وروحه لها، في

حين أن الحياة، كل الحياة، لو كُرِّست لعبادة الدائم، لا تقرّبنا بما فيه الكفاية إلى الجوهر الإلهي الذي يتعذّر بلوغه؟... ”شطرنج من نار، أي جمال!“، أقول اليوم في ذكرى حكم أبي متأسفاً لعدم وجود شطرنج ملتهب بهذا القدر في محراب الشطرنج الخاص بي.

آلمني حديث أبي ألماً نحسّ به حين نكون مقتنعين أنّ من نكنّ له هذا القدر من الحب ومن الإعجاب يوشك أن يفرض علينا منعاً عبثياً وجارحاً؛ منعاً قوياً مفاجئاً وحاسماً لا رجعة عنه. إن اختُزل القاموس اليمني لهذه الفترة إلى كلمة واحدة فلن تكون بدون منازع إلا كلمة ”لا“، هذه الكلمة الصغيرة المكتنزة وغير القابلة للاختزال؛ هذا العملاق متعدد الرؤوس الذي تدلّلُـه السماء والأرض. ينبغي القول إن سوق الممنوعات كان مكتظاً بـ”لا“ سماوية في مكتبة أبي، عبرت القرون وهي تزمجر بقوةٍ لا يمكن تحطيمها، و”لا“ حديثة العهد، أرضية، تزأر بحماسة في قوانين السبعينيات اليمنية. نعم. لم تعدم عدن بخاصة ”لا“ ماهرة جديدة. فقد ازدهرت صناعة الممنوعات. ومثل الممنوعات القديمة، لم يعترِ الممنوعات الجديدة الحياء هي الأخرى. لم يهرب أي شيء من خيالها، بما في ذلك بعض الأهداف التي أحسن اختيارها، مثل منع تعدد الزوجات ولله

الحمد بفضل "قانون الأسرة" الذي أُلغي اليوم مع أنه وفّر بعض الحقوق الإنسانية للنساء. ومنع القات إلا في عطلة نهاية الأسبوع. واختُطفت بائعات الهوى ذات ليلة ليجدن أنفسهن عند الفجر عاملات منتجات في مصنع صغير لمسحوق الطماطم أُقيم في مكانٍ معزول، بعيدٍ عن المدن وعن الرجال. ومنع الاصطياد (باعتباره نهباً لأملاك الدولة!). وحصر الحديث مع الأجانب بحكم القانون (ليس الأجنبي سوى جاسوس أو مرشّح ليكون جاسوساً!). ومنع السفر إلى الخارج (وهذا منطقي جدا!)، وحمل آلة تصوير، والملكية الخاصة... ومع ذلك تجنّبت كرة القدم أية إدانة لأن الممنوعات القديمة والجديدة نستها. لماذا لم تُمنع كرة القدم؟ أعترف أن هذا قد أزعجني، لأني لا أحب النسيان. لا أحب العمل غير المكتمل. اقترحت فجأةً ونحن على بعد خطوتين من الشيخ عثمان المستلقية بهدوء تحت جنح الليل:

– ما رأيكم لو تناولنا وجبة سمك!

أجاب شكيب:

– لا تفكر إلا في الأكل.

أضاف عدنان:

– نعم. سمك قبل فوات الأوان.

أكان آنذاك يحسّ أن السمك الرائع في بحارنا الدافئة المعروض في أسواق سخية في سخاء حبات الرمل يتوارى قبل أن يختفي تماماً، ولن يبقى إلا في رؤوس الأطفال وهم يحاولون أن يكوّنوا فكرة تقريبية عنه في مخيلاتهم! أكان يشعر أن عدن، أرض الصيادين القديمة، التي تفنى إن حُرمت من اللمسات الحانية لأمواجها الدافئة، وتتكدّر دون ابتسامات بحارها المشمسة، عدن محطة القوافل في جميع الأزمان، المستلقية في منتصف الطريق بين المحيطات، وبوتقة امتزاج الأجناس المختلفة كما أراد لها القدر، عدن هذه ستدير ظهرها للماء، لما هو حقيقي، لكل شيء إلا للنفي والهاوية وبحر المؤامرات؟

اشترينا سمكة "جحش" كبيرة بدرهم واحد من صياد يبيع السمك خلسةً خارج إحدى أسواق السمك الإحدى عشرة في الشيخ عثمان. وهي أسواق لها شكل مشابه لشكل أحياء المدينة المستطيلة المتوازية. ثم ذهبنا إلى أحد المطاعم الشعبية اللذيذة المتناثرة في مدارات الأسواق الإحدى عشرة. عهدنا بسمكتنا إلى طاهي المطعم فغسلها وطلاها بصلصة مبهّرة باعتدال، وشواها في فرنه

الأرضي. وطلبنا ثلاثة صحون من الفتّة بالتمر وصحفتين من "الشتني" و"العشار"، وتقاسمنا، نحن الثلاثة، القيمة المتواضعة، ولم يبقَ بعدها سوى أن نحتسي ثلاثة فناجين من الشاي في مقهى ردفان المجاور، لأن وصفة الشاي في هذا المقهى، في رأي أهل الشيخ عثمان، منافس حقيقي لشاي مقهى الشهداء، إذا استثنينا شاي المقاهي الصغيرة في أرجاء "نهر المتعة". وهكذا انتهى تجوالنا في البوتقة الليلية التي تلتقي عندها الأغاني الصاعدة من المقاهي، وأضواء السيارات، وأصوات المؤذنين، واصطكاك بهارات طاوات[6] الطبخ عندما يخترقها اللهب، وانفجار ضحكات مدينة في حالة استراحة، ونسيم الليل العليل... ثم افترقت خطانا تُمزِّق ضوءاً مصفّراً باهتاً، لنعود إلى منازلنا. ذهبنا، عدنان وأنا، إلى القسم (أ) حيث نسكن، فكان حضوري على وجبة العشاء العائلية بعد نصف ساعة رمزيا تماماً. مجرد اشتراك ظاهري لإخفاء أنني كنت قد أُتخمت مع زميلَيّ. أما شكيب فقد اتجه نحو الجهة المعاكسة في القسم (د)، يحاول تخيل الكلمات الأخيرة الصادرة عن الملكة المبقورة داخل حقيبته، تتركّز أفكاره حول قطرات دمها، وجرحها، وضمادها، وشريطها اللاصق... ولكنه لم يهتدِ إلى شيء من ذلك.

لن يكتشف أبسط سر من أسرار هذه الملكة قبل أن يقرأ بقية هذه المخطوطة. لأنني سأبذل جهداً لكشف خبايا هذه الملكة، سيرتها وعذاباتها، وسأبتدئ هنا من عطلة نهاية أسبوعها الأخير، الذي بدأ قبل ذلك بيومين، يوم الخميس، بعد التسكع ساعة الغسق مع عدنان وشكيب، في عطلة نهاية أسبوع كئيبة ومأساوية كنت الشاهد الوحيد عليها وضحيتها الوحيد.

6 الطاوة: صحن معدني سميك يستخدم فوق الوقيد للطباخة أو في الفرن.

الفصل الثاني

دخل الشطرنج الجميل، الذي أعارني إياه شكيب في عطلة نهاية الأسبوع، غرفتي يتسلل على أطراف أصابع القدمين، بالطريقة الوحيدة الممكنة: الطريق السرية. وقفت وحيداً أمام أول شطرنج يتسلل إلى بيتنا، كما لو كنت مشبوباً بالرغبة أمام عشقٍ ممنوع. انهمكت بانفعال محاولاً تمثيل مباراة حلّ بعض تمارين الشطرنج، ولعب بعض الألعاب التي عرضت في الصحف. جاء هذا الشطرنج حديثاً من القاهرة، لم يأتِ في حقيبة سفر، بل جاء وحيداً في حقيبة يد عم شكيب، محمياً تماماً، ملفوفاً بعناية، قاطعاً البحر الأحمر بكل ما يستحق من احترام يليق به قبل تقديمه لزميل دراستي العزيز. أي إحساس أن ألعب الشطرنج في غرفة نومي الواقعة في الطابق الثاني من أحد منازلنا الثلاثة المتجاورة في الشيخ عثمان ودون ورقتي المخططة تخطيطاً رديئاً إلى أربعة وستين مربعاً، دون حاجة إلى شطرنجي الخيالي الذي يضطرب ويتبعثر عند أقل شرود قبل أن يتداعى كـ"استمناء فاشل"، وفق تعبير شكيب! أي متعة أن ألعب بشطرنج حقيقي، واقعي مثل جسدٍ مستلقٍ، جميل

ووفي. أي فرح أن ألمس أعضاءه الجليلة البارزة، وأن أتأملها بإعجاب! فليسقط الشطرنج الافتراضي، وليسقط الحب الافتراضي، وليسقط التمثيل الفاشل!... الساعة التاسعة مساء؛ ساعة السجال الشعري المعتاد مساء كل خميس الذي يشارك فيه جميع أفراد عائلتنا الكبيرة، في الساعة التاسعة تماماً. أخفيت الشطرنج دون أي تأخير بعد ساعة كاملة من التمرين وقبل أن يأتي من يدعوني ويكتشفه. دار السجال الشعري بين مجموعتين انقسمت إليها عائلتنا، أخي الصغير، مروان – الذي كان يقترب من تمام السنة التاسعة من عمره – وحده من جانب، وبقية أفراد العائلة من جانب آخر. كانت القاعدة أن يسرد كلٌّ من الجانبين من الذاكرة، بالتداول، بيتاً من الشعر العربي العمودي يبدأ بآخر قافية للبيت الذي قرأه الفريق المنافس. تبدأ المباراة ببيت شعر يقوله أحد الفريقين وتتوقف بعجز أحدهما عن الردّ ببيت شعر لم يُقل بعد، يبدأ بقافية آخر بيت سبق. وعند الساعة العاشرة مساءً فاز مروان من جديد بالمباراة مساء هذا الخميس. وكالعادة انقطعت أنفاسنا الواحد بعد الآخر، وانهزمنا أمام ذاكرة لا تُقهر، فانتهت المباراة في الحال، وعدت أواصل مجموعة تمارين الشطرنج حتى غلبني النوم.

كان مروان يعشق حفظ الشعر العربي القديم وقراءته من الذاكرة، وبذلك يقوّي قدرات ذاكرته غير العادية. كنت أتساءل دائماً كيف يستطيع اختزان القصائد في رأسه. بدا لي أنه لا يحفظها على نحو ساذج، أو حفظاً بسيطاً كما يفعل الآخرون. لعله يبعثرها في مكان ما من ذاكرته، موزّعة إلى جداول بعدد حروف الهجاء، فيخزن كل بيت شعري تلقائياً في رأس الجدول الخاص به ليكون جاهزاً للانطلاق أولاً عند أبسط حافز. وهكذا استطاع إبهارنا بباقة محفوظاته الأسبوعية المتجددة باضطراد. يسخر منا بسرد مجموعات الأبيات الجديدة، المتجددة، المختارة بعناية، تفيض بسخاء في مواجهة فريقنا المنسحب من المباراة بعد أن استنفد محفوظاته الجافة كلها. ولم يكن غريباً أن يسرد مروان – بخوارزميات الخزن الذكي في ذاكرته المضيئة – أبيات شعر أبينا أكثر مما يحفظها الشاعر نفسه. وهذا ما أبهج الأب بلا شك. أن يسمع قصائده ترنّ وتتردد بصوت شخص آخر، صوت غنائي شجي، هو صوت ولده المدلل، وبخاصة أنه لم يستطع – وهو الذي يتنفس الشعر ويتنفس من أجل الشعر – أن ينشر قصائده في عدن، في تلك الفترة المتّسمة بـ"الغليان الثوري". كانت قراءة مروان لها

نشيداً متناغماً، صافياً، ومضطرماً. كانت تموجات صوته، وإيقاعاته، إخراجاً ماهراً ورائعاً لأبيات الشعر الموزون المقفّى بحيث يظهر أدقّ الجمال خفاء في الكلمات، يوشّي القوافي ويثير النشوة الشعرية المكتنزة.

كان أبي يحلم في شوق بنشر مجموعاته الشعرية يوماً ما في عدن، وقد كلّفني أنا، أكبر أبنائه، بهذه المهمة، إذا لم يحلّ هذا اليوم إلا بعد وفاته. كان عدد هذه المجموعات الشعرية أربع، مخطوطة بخطه من نسخة وحيدة. يبلغ خطه ذروة الجمال حين يخطّ به قصائده. كم أحب قلمه الذي كتبها به. وعلى كل حال، كانت للأقلام والدفاتر قصة طويلة مع أبي. كان يرى أن الأوراق كائن ينبغي التعامل معه بعناية ومداعبته برقة، وكان يغضب لعدم احترام الورق ولسوء استخدامه، وكان يعتقد أن أفضل تعريف للكائن الإنساني أنه "حيوان يحسن استخدام القلم". فالقلم في رأيه ليس أداة بسيطة، بل أنبل صفحة كتبها الإنسان. وكانت أثمن هدية يمكن إهداؤها إليه دفتراً أنيقاً أو قلماً جميلاً. وكان يملك مجموعة رائعة من الأقلام. كان هذا غريباً منه، هو الذي لا علاقة له بالهرطقة، لأن هذا لا ينسجم مع تعاليم السنّة التي تعدّ جمع الأشياء الثمينة أمراً

مكروهاً. كان يبري الأقلام بنفسه بصورة مائلة وبعناية فائقة لإعطاء الكلمات التي يخطّها بدقة شكلاً واضحاً وبارزاً. وكان يختار بنفسه أيضاً الحبر الأسود الذي يغمس تلك الأقلام فيه أو يملأ به الأقلام الحديثة. ينبغي رؤيته وهو يرضعها بتحريك أطرافها برقة. كان سعيداً دائماً حين تكون أقلامه مشبعة بالحبر، وكان خوف أزرق يستولي عليه من أن يأتي يوم يختفي فيه الحبر من دكاكين عدن.

كم كان القلم المخصص لقصائده متميزاً! خطّ به مجموعاته الشعرية الأربع، وكذلك مجموعتيه الأخيرتين. وهو أيضاً القلم الذي كانت أمي تضعه في اليد اليمنى الصغيرة لكلٍّ منا عند الولادة (وهي عادة قديمة منتشرة إلى حدّ ما في أحيائنا، حيث يُعرب الآباء عن تمنياتهم لمواليدهم بالثقافة والذكاء. إنها عادة تغيّرت نسبياً اليوم وحلّ الدولار الأميركي محلّ القلم). وكان يستولي عليه الحزن حين لا يعود هذا القلم قادراً على الكتابة. حدث ذلك في مطلع الثمانينيات حين لم يعد بالإمكان استبداله. فلم يعد يوجد في عدن حينها إلا نوع بائس من أقلام حبر جاف لا تناسبها أية درجة حرارة عدنية. أقلام تذوب في الحر فيسيل منها خليط قاتم يلطّخ جيوبنا وأصابعنا

وتُصاب في الظل بإمساكٍ مستعصٍ على العلاج، يُنتج عند محاولة الكتابة لطخاتٍ قبيحة أو خطوطاً متقطعة بدلاً من الخطوط الواضحة الرفيعة.

كم أحب أبي ابن الفارض، الشاعر الصوفي في القرن الثالث عشر الميلادي، الذي كان يسمّى "سلطان العاشقين". ومثل قصائد هذا الشاعر الباحث بلا كلل عن ذات الله، كانت قصائد أبي اكتشافاً أبدياً واحتفالاً بجلاله الذي لا ينفد. وأحبَّ الحلاج بشغف، ذلك الساعي أبداً نحو المطلق. وكقصائد الحلاج كُتبت قصائد أبي بدم عشقٍ عاصف لوحدة الوجود. حرّكت عذابات الحلاج (المصلوب في القرن العاشر الميلادي بسبب هذا الحب الموحّد، المتطرف في وحدانيته في رأي البعض، بحيث بلغ به حدَّ أن يصرخ "أنا الحق" متجرِّئاً بذلك على إعلان اتّحاده بالجوهر الإلهي الذي لا سبيل إلى بلوغه) أكثرَ مشاعر أبي حزناً، وأسالت دموعه الحرّى. لم يستطع أبداً تقبّل أولئك الذين يجهدون للصدّ عن هذا الحب الموحّد، الحميم والمباشر. ولم يستطع، للأسف، مباركة أية عاطفة إنسانية إن لم تكن مشبوبة، مقدّسة وأبدية، مستحوذة، ولا تنقسم، وحيدة وتامة. ولنهاية أبي صلة مأساوية بأولئك الذين رحلوا عشية فقدان

مؤلفاتهم. كان ذلك في مطلع الثمانينيات. فبعد بضعة أيام صادر جندي – أمّيٌّ تماماً – مجموعاته الشعرية الست على الجانب الشمالي من الحدود بين جنوب اليمن وشمالها، مدّعياً لزوم مراقبة محتوى هذه المخطوطات القادمة من بلاد الشيوعيين. أراد أبي المرهق حينها قضاء بضعة أسابيع من الراحة في القرية التي ولد فيها في الشمال. وكان يصطحب معه مجموعاته الشعرية في جميع رحلاته، فسلبها منه هذه المرة جندي بطل – عاجز تماماً عن قراءة كلمة من كلماتها – وفُقدت إلى الأبد. وهكذا لم تُنشر أبداً، ولم تثر أدنى قراءة نقدية، أو أي تعليق، ولم تُلقَ علناً في النار مثل مؤلفات عالم القرن الثاني عشر الميلادي، مؤلف **تهافت الفلاسفة**، الغزالي الحبيب إلى نفس أبي، أو مثل مؤلفات العالم الكبير الذي ردّ عليه بـ**تهافت التهافت**، ابن رشد. ولن تُطلق المناقشات الحامية كتلك التي شهدتها محاكمة الحلاج وقد استغرقت تسع سنوات... فلنعترف أن الذين أخرسوا الكلمات قديماً كانوا أكثر ثقافةً من جلاديها اليوم.

ومع ذلك، لم يحمل أبي هذه المرة، كما اعتاد في رحلاته كلها، قلمه الذي يخطّ به شعره. فقد انطفأ هو الآخر قبيل ذلك بقليل. وهكذا توقف عن الحياة وعن الكتابة في الوقت الذي انطفأ فيه قلمه

وأخرست مجموعاته الشعرية. وكان موته مثل موت أي يمني يحترم نفسه، فناءً كلياً دون أدنى أثر. وعلى الرغم من ذلك، ترك بعض ذكريات لا تنسى، في محيطه، مكتبة فخورة كبيرة. وكان أثاثه كل ما استطاع شراءه من أشياء ثمينة: كتبه ومخطوطاته المكتوبة بخطّ مؤلفيها، بأغلفتها الجلدية، التي ستبقى دائماً محفوظة في أمان. قضيت طفولتي كلها أحمل منها حفنة كل أسبوع إلى حِرفيٍّ يشتغل بتجليد الكتب في الشيخ عثمان، لينحت لها أغلفة جلدية جميلة تكون كساءً جميلاً يحميها إلى الأبد، ويحتضنها على الدوام، ويُخلّدها على مرّ الأزمان.

وترك أبي أيضاً في درج مغلق من مكتبته خزانة صغيرة من الخشب السميك، مخبأة تماماً، لم تُكتشف إلا بعد موته، تحتوي مجموعة حميمة، أو كنزاً من أقلام الرصاص من كل نوع. متحف رائع مشيّد في الخفاء. بعضها لطيف طريف، وبعضها جليل أخاذ، بعضها بممحاة وبعضها بدونها، بعضها نادر وبعضها مما يوزَّع كدعاية (أقلام كندا دراي، أو بلموليف التي عرفتها في طفولتي، وغيرها كثير). وكانت جميعها مبريّة بدقة، مقلّمة تماماً، مصفوفة بطريقة حسنة. بدت في هيئة احتفال جميل، غني، وممتع. مهرجان

لا نهاية له. جيش من أقلام رصاص من جميع الألوان، يقف في وضع الاستعداد تحسباً لاختفاء المداد أو منع الأقلام. فلا شيء، في الحقيقة، يستطيع الحلول محل قلم الرصاص.

الفصل الثالث

بدأ يوم الجمعة الحزينة الذي أُعدمت فيه ملكتي كما يبدأ أي يوم عادي. استيقظت أمي قبل فناء الليل بقليل، نحو الساعة الرابعة والنصف صباحاً، لتنظيف "الطاوة" الحديدية وإشعال الحطب في موقدها "الصعد". وضعت "الطاوة" على الحجرتين السوداوين اللتين يتكوّن منهما "الصعد"، مقابل طاولتها الصغيرة ولفّتها الخشبية والمقعد الخشبي الثلاثي القوائم. تناولت العجينة التي أعدّتها وتركتها تتخمّر منذ المساء، عجنتها بشدة ومهارة وقسّمتها إلى كرات صغيرة رخوة ودهنت كل واحدة منها على حدة بطبقة رقيقة من الزيت، ثم فردتها بطرف أصابع يدها وفرشتها في أقراص دائرية. سوّت حافاتها باللفّة الخشبية، قبل أن تلفّها من جديد في مكعبات، ثم تركتها في صحفة العجين للحظات وهي تستمع لأذان الفجر. ثم اغتسلت غسلاً تاماً وقرأت بصوت منخفض بعض آيات من القرآن الحكيم، وبعض أدعية ترددها في الصباح، وصلّت صلاة الفجر في دارة[7] منزلنا تحت نجوم تتثاءب وقد استولى عليها النعاس، على بعد خطوات من العجينة المكعّبة، التي عادت إليها

بعد الانتهاء من صلاتها وأعادت فردها وسوّتها للمرة الأخيرة قبل أن تسلّمها إلى نار "الطاوة". تحرّكها ثم تحرّكها حتى تتحول إلى أقراص لذيذة معجونة بنعومة يدها، وبطراوة الصباح، وبكل ما في العالم من لطف ورقة.

7 دارة: غرفة مفتوحة على السماء، في وسط المنازل الشعبيّة في الشيخ عثمان.

عاد مروان بعد تناول طعام الإفطار ليكون في قلب حياتنا العائلية. إذ قام بواجبه الصباحي الذي أصبح معتاداً عليه منذ بضعة شهور، فيبدأ بقراءة صفحة جديدة من القرآن، ثلاث مرات، قبل أن يقرأها من الذاكرة، محتكراً بذلك إعجاب العائلة كلها. وكان ترتيله لتلك الآيات القرآنية الجميلة والصعبة صافياً وشجياً، لا يعتوره أي خطأ نحوي، كما لو كان يفهم تماماً دلالات الكلمات التي ينطقها نطقاً جميلاً. والمؤكد أن مروان كان الطفل المدلّل لأبينا. كان يخفّف عن قلبه الحزين مرارة رؤيتي أبتعد كل يوم أكثر فأكثر عمّا يراه "صراطاً مستقيماً" لا يعرف كيف يعيدني إليه. وأصبح مروان فيما بعد دون منافس بطل اليمن الجنوبي في حفظ القرآن، وهو لقب استُحدث على غرار الدول الإسلامية الأخرى. وهكذا شارك في مسابقات عديدة بين أبطال حفظ القرآن في هذه البلدان، ليجمع

الميداليات والهدايا اللائقة بهذه المنافسة. كان غالباً الأول، لأنه كان يستطيع انطلاقاً من آية يتم اختيارها اعتباطاً أن يواصل تلاوة الآيات التالية من الذاكرة، حتى نهاية السورة المختارة، ويجيب عن جميع أسئلة لجنة الامتحان بسرعة مذهلة تعود بلا شك إلى خوارزميات فعالة يستخدمها لتصنيف سور القرآن في ذاكرته. سأله أحد الممتحنين:

– ما هي السورة التي يتردّد فيها اسم الله ست عشرة مرة؟

التمع شيء ما في أعماق دماغ مروان، وانفتحت نوافذ عديدة صغيرة متوازية على شاشة التحكّم في دماغه لحظة سماع سؤال هذا الإمام، وأضاءت في وقت متزامن مؤشرات جميع لوحات النوافذ – السور للحظة قصيرة، ثم انطفأت جميعها باستثناء نافذة "الكهف"، وامتطى عنوانها خليةً عصبية قاطعاً بعض التلافيف الدماغية بسرعة فائقة... وإذا بمروان يردّ دون تفكير ودون أن يحتاج الممتحن إلى حساب كم انقضى من الدقائق التي كانت مكرّسة للردّ على السؤال: "سورة الكهف".

لاحظوا تماماً: أكثر من مائة وعشر سور تسكن رأسه، مثل ملفات كمبيوتر، وأكثر من ٦٢٦٠ آية محفورة على جدار دماغه،

وعشرات الآلاف من الكلمات، مفهرسة ومصنّفة، مرسومة في ذاكرته الهائلة! من يستطيع أن يهزّ هذه الذاكرة أو يشبعها؟ وكم سيحتاج من الوقت لالتهام موسوعة ضخمة، أو لابتلاع مكتبة؟

كان مروان، بطل حفظ القرآن، منقذاً عظيماً لبلده. ودخلت التاريخ حجة قاطعة كان بطلها. حدث ذلك في اجتماع وفود تمثل الدول الإسلامية. ولتسمحوا لي أن أحكي قصتها كما نقّحها الحي الذي عشت فيه، بأسلوب بلاغة أساطين رجال السخرية في هذا الحي، وميلهم المفرط للصور الكاريكاتورية المبالغة.

قالوا: تقدم رئيس وفد، يتدحرج نحو المنصة بخطى ثقيلة رعناء. كان واضحاً أنه لم يعجب جماعة "الملتحين" بسبب كرشه المتكوّر أمامه، ولم يعجب أيضاً جماعة "الكروش الكبيرة" بسبب لحيته المبالغ في طولها. وأخيراً وصل بشقّ الأنفس إلى المنصة. حكّ سرّته بريشة – تنتهي ببضع حجارة كريمة – صُنعت خصيصاً لمساعدته على الاتصال بسرّته البعيدة عن متناول أصابعه. طرف لحيته يوجّه هذا الاتصال في الليل. لديه هذه المرة فضيحة يعلنها لمغازلة العشيرتين الرئيسيتين المتناحرتين في المؤتمر، ليتحالف

على الأقل مع إحداهما دون أن يضطر لتقصير لحيته، أو دون أن يتّبع نظاماً غذائياً أو رياضياً لتخفيض حجم كرشه.

– أتعرفون إخوتي الكرام أن علامات امتحان مقرر دروس الدين في المنهج الدراسي في عدن أقل بست مرات من علامات امتحان مقرر دروس الرياضيات بدلاً من أن يكون العكس؟

استنكر هذا الوضع وأضاف مكرراً ثلاث مرات:

– أناشدكم الله أن تطردوا هذا الوفد الشيطاني من مؤتمرنا.

ردّ رئيس الوفد اليمني الجنوبي بانتباه قائلاً:

– أُذكِّركم بأن بطل حفظ القرآن في العالم الإسلامي من بلادنا، وهذا يشهد بما لا يدع مجالاً للشك على "الاهتمام المتزايد الذي توليه قيادتنا السياسية الجماعية لتكثيف نشر التعليم الإسلامي وتوسيعه وتعزيزه في صفوف الطبقة العاملة وبقية الشغيلة".

وكان رئيس الوفد لا يستطيع أن يلفظ جملتين دون الحديث عن "الاهتمام المتزايد". كان ينطقها مدمجة وكأنها كلمة واحدة. يعجز عن نطق كلمة "اهتمام" دون أن يضيف إليها كلمة "متزايد". وغالباً ما كان الناس حينها يتحدثون عن عادته المضحكة في نطق "الاهتمام المتزايد"، وكانوا يتساءلون ما إذا كان يعرف أنه يوجد

في اللغة كلمة ״اهتمام״ بمفردها أو أن للاهتمام غير المتزايد مكاناً تحت الشمس. نفد مروان بسبب قدرته على الحفظ من خدمة عسكرية شاقة مدتها سنتان ونصف. فقد أعفي منها لمكافأة خدمته الجليلة لبلاده. وسرعان ما حاول طلبة المرحلة الثانوية حينذاك – في السنوات التي كانت فيها ״المادية التاريخية״ لغةً رسمية – دون جدوى حفظ القرآن في سنتهم الأخيرة على أمل التخلص من عمل مرهق مدته ثلاثون شهراً. ومن مفارقات حيّنا أن مروان، على عكس الكثير من أطفال مدينتنا، لم يأكل قلب غراب في الذكرى السابعة لميلاده (وهي عادة قديمة في أحيائنا حيث يدعو الآباء أطفال الحي إلى حفلة ״قلب الغراب״ التي يأكل فيها طفلهم قلب غراب معتقدين أن ذلك يوسّع الذاكرة ويشحذ نفاذ البصيرة وحدة الذهن).

وبعد عرض مروان الصباحي المدهش، نحو الساعة العاشرة من صباح هذه الجمعة المدمّرة، عدت إلى غرفتي معتقداً أنني بمأمن لأعيد لعب مباراة بطولة الولايات المتحدة الأميركية في الشطرنج لعام ١٩٥٩ بين فيشر وريشيفسكي. أحسّ مروان بالملل. أحسّ بحاجة مدمن محروم إلى حفظ شيء ما. صعد إلى غرفتي للبحث

عن المعلّقات السبع من شعر الجاهلية. وكنت مستغرقاً في استعادة خطوات المباراة، مسحوراً بالنقلة الحادية عشرة لفيشر، التي كسب فيها ملكة منافسه، فلم أسمع خطوات أخي وهو يقترب. شاهدني مروان وأنا أسرع في خوف لإخفاء معبد الأوثان الذي يلعنه أبونا، ولاحظ على درج مكتبتي أحد تلك الكتب الجديدة الموزّعة مجاناً، لمؤلف وسيم تغطي ملامحه الجليلة ثلثي الغلاف. صحيح أنه كان بإمكان أخي أن يفكّر بابن سينا، أو بابن رشد، فقد بدا لي التشابه واضحاً، لكن طقس تغليف أسفار الفلسفة في مطبوعات دار ”مير“ السوفيتية كان ”من طراز جديد“، وفقاً للعبارة الشعبية الساخرة ذات الآثار البعيدة والمعاني المحزنة، لأنها دخلت وتشوشت وتعرضت للإسفاف في عبارة ”حزب من طراز جديد“، ذلك الذي أحاطت ببنائه حربان أهليتان. لا. إنه ابن عم آري لابن سينا، مؤلِّف مجهول تماماً في ضواحي عدن قبيل ذلك، اسمه إنجلس.

كان بين مروان وأبي نسيج من علاقة تواطؤ تزعجنا. كان أبي لا يخفي إعجابه الشديد بابنه وكان يفصح عن تفضيله علناً. وكان مروان – ربما في مقابل هذا التفضيل وربما عن قناعة، والراجح أن ذلك بدافع المصلحة بلا شك – ينقل إلى أبي كل ما يحدث في

كواليس العائلة. كان مروان يتجسس علينا بمعنى من المعاني. وهكذا نقل إليه في الحال الاكتشافين اللذين عثر عليهما: الشطرنج وإنجلس.

نادراً ما كان أبي يصعد إلى غرفتي. لكنه هرول نحوها هذه المرة.

الفصل الرابع

خطوات عنيفة تصفع الدرج.

هناك لحظات يتشابك فيها التاريخ بثقله، والحاضر بإخفاقاته، والأساطير، والحقائق، والاعتقادات، والآمال... في لحظة قصيرة كثيفة من الزمن، حادة وعارية كأنها انفجار.

كان الرجل الذي يصعد الدرج في ذروة الحزن والكآبة، محمرّاً من الغيظ، وخارجاً عن أطواره. آه، لو استطعت معرفة ما يدور في رأسه حين صعد الدرج بسرعة فائقة. لو استطعت معرفة كيف يتحول رجل في مثل رقته إلى شخص عنيف؟ أأراد أن يؤلمني بقدر ما سببت له من آلام خلال سنوات مراهقتي العاصفة حين كان يلاحظ بمرارة أنني ابتعد باضطراد عن صراطه المستقيم؟ فوجئ بتحولي عن طريقه خلال الدروس التي يخصصها لي الساعة الرابعة بعد الظهر ولمدة ساعة، منذ كان عمري سبع سنوات. هذه الساعة المخصصة للفقه، والتوحيد، والسيرة، والبلاغة، والتفسير، والنحو، أصبحت بمرور الزمن أقسى وأصعب ساعة على نفسي في ساعات النهار. تناقض عميق في صميم تربيته الثقافية جعل

اهتمامي يذوي. وكان هناك من جانب آخر مبادئ الأخوة النبيلة. علّمنا أبي حب الآخرين بصرف النظر عن أصولهم، وأن نرفض الاستبعاد، أن نسرّ بمناقب الآخرين، ان نعجب بتاريخ الشعوب... كان، دون أن يقول ذلك في كلمات ودون وعي منه، مواطناً في عالم متعدد الثقافات ومتعدد الأعراق. ولنتجرأ على استعارة بعض صيغ اللغة المنتفخة في يمن السبعينيات لنقول إنه كان نقيض الملامح العشائرية، والمناطقية، والقبلية، والعنصرية التي تتسم بها الثقافة السائدة. ومن جانب آخر، نجد ما يناقض ذلك أيضاً في تعليمه وحتى في دروسه الدينية، في الوقت نفسه. وكان غالباً ما يبدو لي تعليمه غير منطقي وباعثاً على الكآبة. فقد وقعت ذات يوم على كتاب يصف مصيراً جهنميا لأبوين اقترفا فعل الزنا، ويقرّر أن أطفالهم غير الشرعيين سيُعذَّبون أيضاً. وكان من الصعب على أن أقبل أن يذهب الأطفال أيضا إلى النار. لم أستطع فهم لماذا تورَّث خطيئة الوالدين لأطفالهما، ولماذا لم ينزعج أبي لذلك وهو الذي كان متمسّكاً بالعدل، وبأن لا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى. وكنت أعرف أن من السهل استمالته بأي كتاب تبدأ صفحاته الأولى بتمجيد عظمة الله في ولهٍ وعشق، وأن جملةً بليغة تثير أعمق

أحاسيسه وتجعله مدلَّهاً يصعب إقناعه بعكس ذلك، مشدوهاً ومسحوراً بحيث يصعب جداله بمنطق رصين.

وإذا طبّق هذا عليَّ حيناً فذلك يعني أن جاري العزيز خالد، الولد الوسيم الموهوب الذي يسكن شارع النصر – والنصر أيضاً اسم حيّنا –، سينتهي في جهنم بلا جدال. كان هذا غير قابل للفهم، وشيء ما قبيح، مشوش، مثل دمّلٍ متقيّح في أعماق المعدة، تقيأته في شكل أسئلة تشعل وجه أبي بغضبٍ مدمدم: لماذا يجب أن يذهب خالد إلى النار، يا أبتاه؟ ماذا فعل؟ أية خطيئة ارتكبها؟ فليكن مصير الأبوين النار، لكن خالد، يا أبي، أية جريمة ارتكبها؟... أرقتني هذه الأسئلة بقوة وعذّبتني عذاباً أججته إجابة أبي المنقادة دون تفكير. كان عمر خالد سبعة أيام فقط عندما عثرت عليه الجدة مالكة، أقدر قابلة في حيناً، صباح ذات يوم في علبة خشبية ذات فتحتين صغيرتين، بالقرب من نهر المجاري الأسود "الجلّي" في حينا. كان يصرخ بالعويل من الحرّ والجوع. أخذت مالكة تلك العلبة غير مبالية بما يقول الناس. أخذته عندها، ووجدت له أماً، ابنتها نادية، أكبر العوانس سنّاً في شارع النصر. لم يكن يؤرّق حياة نادية سوى شيء واحد: أن يكون لها طفل كمن تستقبل أمها باقةً منهم كل يوم

لتكون الجدة مالكة أماً ثانية لكل طفل. وكان للجدة مالكة مكانة مميزة في بيتنا (أليست هي من منح كلاًّ منّا أول لمسة حنان في حياته؟). أغمض سكان الحي عيونهم عمّا فعلته قابلتنا المحترمة من فعل لا يتفق مع السُّنّة المتوارثة. ووجدت الجدة مالكة أيضاً أباً لخالد. من يصلح لهذه المهمة أفضل من ابنها عمر، الذي له دزينة من الأطفال؟ كان كل شيء على ما يرام في انتظار أن يثير خالد نفسه مشكلته الوجودية، يوم يعرف أن الأخ لا يتزوج أخته، أو بالأحرى يوم يصف له عددٌ ممّن تملّكتهم الغيرة – بسبب العدد الكبير من الأهداف التي يسجلها في مباريات كرة القدم – يدفعهم "شيطان الغضب" لونَ المهد ذي الفتحتين الصغيرتين الذي عُثر عليه داخله ذات يوم بالقرب من مجاري "الجلّي" الشنيعة.

لماذا سيكون مصير خالد النار حتماً، أباه؟ ماذا فعل؟ ما هي خطيئته؟ أزعجت أبي كثيراً هذه الأسئلة، وعذبته عذاباً شديداً. لأنه كان يحب من أعماقه خالداً المهذب الذكي. وكنت أحب من أعماق القلب أن أشعل النار في خبايا رأس أبي. فهل كانت أسئلتي الدنيوية ما جعل هذا الرجل المشتعل غضباً على بعد خطوات من بابي يقرّر قطع رأس هذه الملكة السوداء؟ أكان يفكّر، وهو على عتبة هذا

الباب الذي نادراً ما دخله، أن يسبّب لي من الأذى بقدر ما عذبته بهذه الأسئلة الغريبة المحرّمة؟ أأراد أن أدفع ثمن هذا الانتهاك للمحرّمات الذي عذّبه في سرّه أم أراد عقاب ابنٍ غاب طويلاً عن المسجد؟ لأنه لم يعد يراني حين بلغ عمري الرابعة عشرة بجانبه في المسجد كما كنت أفعل في طفولتي في أوقات الصلوات. وكان هذا الأمر مصدرَ ألمٍ عميق له وسببَ غضبه المدمدم مني بانتظام. لهذا السبب أردت، رغم كل شيء، منذ سنّ العاشرة، أن أوجد تعايشاً سلمياً بيني وبينه حول هذا الموضوع. لن أنسى أنني في يومٍ سارّ قررت التظاهر بالحضور لأخفّف من ألمه لأنه لم يعد يراني في المسجد خلال أيام متوالية. رتّبتُ لحضوري أمامه مرةً كل أسبوعين تقريباً في لحظة مغادرته المسجد. قلت لنفسي فرحاً باكتشافي: "سيعتقد أنني صلّيت، وسيهدأ على الأقل لمدة عشرة أيام، وبعدها يجب أن أعاود الكرّة".

وعند قرب الانتهاء من صلاة المغرب، أردت تنفيذ مخططي لأول مرة. كانت الساعة حوالي السادسة والنصف بعد الظهر، وكنت ألعب كرة القدم مع رفاق الحي، حافي القدمين، في "نهر المتعة". وكان مغيب الشمس يضع آخر اللمسات على لوحة الأفق،

موحياً بليلٍ آسر تامّ الجمال. تركت اللعب بسرعة وحزن، وأسرعت الخطى نحو المسجد لأسجّل حضوري. عبرتُ اختصاراً للوقت بجانب بقايا مركبة قديمة غارقة في الرمل، وكان بقربها حوالي عشرين صبياً في نحو العاشرة من العمر يتحلقون حول جهاز تسجيل، يتزاحمون كقطيع من الخرفان، حفاة، مسترخين مثل جِمال، ساعة "العشاء"، يتعلّمون الرقص الغربي. ولم يكن الوقت يسمح لي بالتصفيق. ركضت أسرع من ذي قبل قاطعاً الباب الأول للمسجد. تقدمت بسرعة أمام أبي الذي كان يستعد للعودة إلى البيت. نظر إلى قدمَيّ في ذهول. في الواقع، نسيت في اضطرابي من كذبتي التي أعددتُ لها أنّ قدميّ ما زالتا تحملان بقايا الرمل. لم تكن قدماي اللتان يجب أن تُغسلا في مطهار الوضوء بالمسجد قبل الصلاة ضحية جهلٍ بشروط الوضوء، بل ضحية كذبٍ صريح. كانتا قدمَيّ ممثّلٍ فاشل (لأن هذه الكذبة لا يمكن أن تمرّ حتى على أبٍ بريء أو واثقٍ ثقةً عمياء كأبي). فبعد ثلاث سنوات من درس الساعة الرابعة بعد الظهر، لم أكن أجهل شروط الوضوء، وشروط الصلاة، والعبادة الخاشعة التي تفتح باب الاتحاد بالله. أيعقل أن أنسى شروط الصلاة بعد حوالي ألف ساعة من دروسه التي ألقاها

بتفانٍ وحماسة؟ وحتى لو كنت في تلك الفترة أقضي تلك الساعات في التفكير بزملائي الذين يقفزون مسرورين في مكانٍ ما وراء حيّنا، وفي اختراع مباريات وهمية أسجّل خلالها جميع الأهداف التي لم أنجح في تسجيلها في أي وقت، وأحترق من نفاذ صبري قبل أن ينتهي الدرس الساعة الخامسة بعد الظهر، الساعة المباركة التي أستطيع عندها الانطلاق للركض وراء كرة على بساط من رمل ناعم.

كان غضب أبي عميقاً، وحقيقياً، ومركّزاً، ومسالماً أمام الكذبة الكبيرة التي لطّخت قدمَيّ. لهذه الأسباب الأربعة كان ألمي شديداً على نحوٍ خاص. كان زملائي الذين تعرضوا أحياناً للعقاب بالقضبان أو بالسياط أقل حزناً مني. منذئذٍ عرفت كيف أقابل أبي بأقدام مغسولة قبل دقيقتين، وكنت أنشّف قدمَيّ المغسولتين حديثاً تنشيفاً خفيفاً، لإخفاء جريمتي المتقنة. لأنني تعلمت أيضاً أنه ينبغي أن تبدو قدماي وكأنهما قد غُسلتا قبل ربع ساعة على الأقل، هو الزمن التقريبي الذي تستغرقه صلاة صحيحة خاشعة. وكم دُهشت لكونه لم ينظر ثانيةً إلى درجة بلل قدميّ قط، ولا حتى إلى حالتهما العامة. وبعد بضعة شهور اشتاق أبي إلى الزمن الماضي الذي كنا

فيه بعد الصلاة نختبر طريقة الإمام في قراءة آيات القرآن، وهو زمن كنت أعرض أمامه انتقادي لأسلوب تلاوة الإمام، مستنداً إلى الدروس المبكرة والمكثفة التي كان يلقيها أبي، في التجويد، والقراءات السبع وطرق التلاوة التي تظهر مخارج الحروف، ومقاطع الكلمات، ونطق الكلمات مع المحافظة على الانسجام فيما بينها، وعلى نبراتها، ووقفاتها، وإيقاع سياقاتها، مظهراً الفوارق اللحنية الدقيقة دون نقص أو مبالغة... كان حينها عظيم السرور كمعلّم واثق من أن دروسه فُهمت كما ينبغي.

راوده أمل إحياء بعض لحظات ذلك السرور القديم في هذا الزمن الحديث، حين أصبح التقاطع معه عند خروجه من المسجد طقساً مثيراً وتقليداً راسخاً. وفي يوم من هذه الأيام قطعت المسجد نحو الباب واثقاً من إجادتي لسيناريو سيسمح لي بأسبوعين من الطمأنينة العائلية، عندما سمعت صوت أبي الخافت الرصين يناديني:

– أحضرت منذ بداية الصلاة؟

تمتمت بصوتٍ مضطرب:

– نعم... (لم أكن أعرف قط إخفاء اضطرابي كل مرة أكذب فيها. لكن أبي كان، لحسن الحظ، طيباً فلم يلاحظ العرق الذي يتصبّب على كلماتي لتصبح متعددة الأوتار، تتراكب وتتلاشى جهاراً في تلك اللحظات).

سألني بصوتٍ شجيٍّ ومشتاق:

– ما رأيك في أسلوب الإمام في قراءة الآيات؟

شعرت بالورطة التي أوقعني فيها هذا السؤال غير المتوقع فتساءلت بحماسة: ”أكان هناك خطأ كبير في تلاوة الإمام؟ أوقع في سهو أم في خطأ نحوي؟ وهل صحّح له أحد المصلين خطأه بصوتٍ مرتفع؟“... ماذا أستطيع أن أقول، بحق الشيطان؟ أصابني الخرس أمام سؤاله في حين كان يفكّر. ظنّ أن ذهني كان شارداً أثناء قراءة الإمام. كان من الصعب عليه تقبّل شرود الذهن في هذه اللحظات العظيمة المكرّسة للقاء الله، في لحظات الخشوع أمام عظمة الخالق، وهو الذي يعدّ الصلاة ابتهالاً جماعياً وذوباناً مشتركاً أمام الشعلة المقدسة. أبالإمكان تدمير هذا العمل الإيقاعي الموحّد، الذي يؤدّيه الجميع بعشق نحو الواحد العظيم، بنغمات نشاز من الشرود الخائن، ومن تشتيت شيطاني للذهن؟ أيعقل أن يهجر أحد خلال

هنيهات، أياً كان قصرها، هذا الصعود الجماعي نحو الملأ الأعلى؟ أيمكن أن يخشع الإنسان لله جزئياً؟ لا يمكن أن تكون إجابة أبي عن هذه الأسئلة إلا بـ"لا" صافية ومربّعة، وهو الذي قال لي يوماً، في درس من دروس الساعة الرابعة بعد الظهر، هذه الجملة الجميلة التي لن أنساها (ليس فقط لأنها وضعت نهاية لتلك الأهداف البهلوانية التي كنت أسجّلها في مباريات كرة قدم أقيمها في خيالي): "من التهبت عاطفته كلها ارتوت نصف رغبته. أما من لم تشتعل إلا نصف عاطفته تظل رغبته كلها ظامئة أبداً". لا أذكر لماذا كنت أحب دائماً تذكير نفسي بهذه الجملة في صيغة رياضية مختزلة، أقلّ تهويماً، ومرقّمة بصرامة: "من قدّم ١٠٠ في المائة من عاطفته، أشبع ٥٠ في المئة من رغبته. ومن قدم فقط ٥٠ في المائة من عاطفته لا يُشبع إلا صفراً من رغبته". لعله تساءل: أكان تشتتي الذهني خلال هذه الصلاة كاملاً؟ أكنت في هذه اللحظة المقدسة حاضراً جسداً فقط؟ لا. لا يستطيع أبي تصديق ذلك. أراد بأية وسيلة أن يطرد من ذهنه الافتراض الشيطاني بأنّ تشتتي الذهني كان تاماً. أراد أن يجنّبني الإحراج، وأن يقدّم لي مخرجاً لا أستطيع وصفه إلا بأنه مشرِّف. كان يرى أنني لا أستطيع أن أنسى بهذه

السرعة السورة التي رتّلها الإمام، وأن سؤالاً بسيطاً حول هذه الواقعة البسيطة يستطيع حلّ عقدة لساني المستعصية على الحل. من الواضح أنه لم يكن بعد قد شكّ في أن حضوري الصلاة قد اقتصر على الحضور الجسدي.

سأل أبي بأكثر نغمات صوته رحمةً:

– أتذكر على الأقل السورة التي قرأها الإمام؟

فهم من رؤية عرقي المنزعج وصمتي المرهق أنني كذبت للمرة الثانية. احترقت قطعة من قلبه مرةً أخرى لتغذّي غضباً لا يقلّ في حقيقته وعمقه عن غضبه في المرة الأولى حين حضرت إلى باب المسجد بقدمين مسودّتين متظاهراً أنني قابلت الخالق بقدمين نجستين.

توصّل الفصل الجديد من التعايش السلمي بيني وبين أبي إلى استنباط النتائج مما سبق: فقد كنت في كل مرة أسأل أول ولد يخرج من المسجد: "ما السورة التي قرأ منها الإمام؟" ثم أقطع قطر المسجد نحو الباب الذي يخرج منه أبي، كما كنت أفعل في السابق. وكانت خيبتي كبيرة لأنه لم يعد إلى طرح هذا السؤال علي. أقرّرَ أن يقطع من الجذور هذه السلسلة من فصول لا تبعث في نفسه

الرضى حين اقتحم باب غرفتي مندفعاً بعينين زائغتين باحثاً عن إنجلس وعن الشطرنج؟

لا. أغلب الظن أن الرجل الذي أمامي لم يعد يفكّر في هذه الفصول. فقد انقشعت دورات نزاعاتنا بسرعة في سماواته، تحت رياح عشقه، أو عند أقل عبارة جميلة، أو اقتباس لطيف أهمس به في أحاديثنا اليومية... كانت الضغينة غريبة عنه: وكان يغضّ البصر عمّا هو دنيوي، هو الذي يعيش بعيداً عن ترهاتنا الأرضية الصغيرة. نعم. إنني مقتنع بأن مشاجراتنا الصغيرة المتبادلة كانت بعيدة تماماً عن تفكيره ذلك اليوم.

ثمة سرٌّ دفين يقطع العصور، فظٌّ، وجوهريٌّ، ولا مناص من جبروته.

وسيُسفك دمٌ عما قريب، وتسقط رؤوس... ينبغي التوغل في أنساب الشر لإدراك مناطق العواصف التي تخترق النظرة المصدومة المنبهرة للرجل المندفع الذي يفتّش غرفتي مسكوناً بعاصفة لا سبيل لتجنّبها.

الجزء الثالث

عودة الملكة

قال الملاك للرجل:

– تَمَنَّ أمنيةً وسيستجيب الله لها حال عودتي عند الفجر، شرط أن يكون لصديقك الحميم ضعفها؛ إذا رغبت في دينار سيكون له ديناران، وإذا رغبت في قصر سيكون لديه قصران.

وعاد الملك عند الفجر ليجد الرجل منهكاً من التعب والأرق والتفكير، فسأله عن أمنيته فأجاب:

– أتمنى أن يصيبني الله العلي القدير بالعور.

[مقتبس من مجموعة قصص جدات شارع النصر]

الفصل الأول

أعليَّ الآن أن أحكي قصة غزو غرفتي، ذلك الغزو الذي استُبيحت خلاله الملكة؟

اعذروني. تنقصني الشجاعة دائماً للإقدام على ذلك. لا ينقصني الشعور بالعار... لن أقول عن هذا الشعور شيئاً. فهل نستطيع بهدوء تدنيس جثمان تمّ دفنه في ضريح بمقبرة؟ أيعقل أن نثرثر حول احتضار مرحومة صلبنا كل ذكرى لها إلى الأبد، كما تُحرّق آخر صفحات كتاب؟... لا. لن أقول عنها شيئاً. كونوا واثقين من هذا. لن أقول سوى إنه، منذ تلك الجمعة المشؤومة، انتصب سدٌّ يستحيل تجاوزه بيني وبين أبي. لم نتحدث بعدها أبداً حتى مماته. حاولت بكل ما لديَّ من قوة مدفوعاً بسيلٍ خفي لا يُقاوم أن تنمحي ذكريات ذلك اليوم، كما يحاول الإنسان نسيان أقل ذكرى لاغتصابه. غيّرتُ أيضاً نِحلتي منذ ذلك اليوم. بدت لي نِحلة ماركس أكثر إقناعاً، ذات منطق ونقاء مدهشَين. لم يبدُ لي أي شيء صحيحاً بقدر صحة آيات مروّجي الصراع الطبقي، شريطة أن لا تكون فرضياتها الأساسية غير صحيحة (لكن الله وحده قادر على التثبّت من ذلك...). وأخيراً،

لم أفطر من صيامي عن لعب الشطرنج منذ المباراة القسرية في مقهى الشهداء. أصبحت الرقعة المربّعة، ووثنها المحطّم مع أشرطته اللاصقة السبعة، بقوة الرمز والتماثل، كعبتي المحبّبة، ومعبدي المفضّل، وفضاء تأملي وعبادتي وهربي... وليس فضاء الصدامات والحيل والمذابح. على العكس، سأحكي بكل طيب خاطر معركتي كي أنسى (ليس يسيراً نسيان غزوة صليبية). لكني سأغضّ الطرف عمّا حدث في بقية تلك الجمعة الحزينة، وسأواصل في ما وراء هذا الفاصل المأساوي سيرة مليكتي الخالدة، مدفوعاً بهدفٍ وحيد هو كشف خفايا اللحظات الجوهرية التي انبعثتْ فيها متحديةً النسيان، وسأبذل جهدي لوصف هذه اللحظات من حياتي، وتسجيلها بأفضل ما أستطيع. وهكذا سأكتفي، لأذكّر بذلك وأقسم عليه بأغلظ الأيمان، بالبحث عن آثار تلك اللحظات التي عادت فيها ملكتي متحررةً من قبر النسيان.

حدثت أولى هيجاناتها بعد بضعة شهور على مجزرتها؛ يوم قلت لعدنان معلِّقاً على حدث من الأحداث الرئيسية في حياتي: ”أتعرف يا عدنان أنني كنت مثل لاعب شطرنج يلعب محروماً من الملكة منذ أول نقلة، ثم يراها تعود للعب من جديد في المباراة نفسها“.

ولكشف خبايا تلك الحادثة (الآن، وأنا في الغرفة رقم ٢٤٨ في مستشفى "اوتيل ديو" في مدينة روان الفرنسية، وهي غرفة تلائم ذلك تماماً) يجب أن أغوص عميقاً، وعلى نحو عمودي، إلى الأعماق؛ نحو الطبقات الأثرية الأبعد، والأكثر هشاشةً، حيث يتكون أساس شخصيتنا، ودالاّتنا الأولية. ولكي أفعل ذلك ينبغي، قبل كل شيء، أن أقول إنني من وقتٍ مبكرٍ من حياتي، نحو السابعة من العمر، كنت أعاني من عطبٍ في مكانٍ ما من جهازي البصري. كنت أرى العالم الخارجي عبر غشاوة يزيد غبشها كل يوم، فأفتقد مذاقَ كل ما تلتهمه عيناي، ليزيد غموضه يوماً بعد يوم. ولم تتوقف الأشياء عن فقدان الدقة في أشكالها، وبدا الناس أشباحاً أكثر فأكثر. وفي سن الرابعة عشرة – سنة موت مليكتي – بدأ العالم المادي يشبه شريطاً تلفزيونياً من أشرطة قناة مشفّرة تشاهَد دون مفتاح فكّ الشيفرة. وبدوت بهذا العائق البصري مثل لاعب شطرنج خسر في بداية المباراة قطعته الأساسية، أي الملكة.

ما هو مصدر العجز الذي أُصبت به؟ أيعاني جهازي البصري من عجزٍ في التخيل؟ أم أن هناك ثقباً كبيراً في شبكية عيني؟ أم أن الأعصاب البصرية التي تربط هذه الشبكية المسكينة بمركز البصر

في القشرة الدماغية كانت في اضطرابٍ مستمر؟ أم أن جهاز الإحساس في هذه القشرة الدماغية كان معطّلاً، أو كان ببساطة غبياً؟ فقد توجّب عليَّ، وأنا لا أزال في سنّ السابعة، حين أخذنا أبي في آخر النهار لنتمشّى على ضفة ''نهر المتعة''، أن استنتج أن أفقي أقرب بكثير من أفق الآخرين. إذ كان جميع إخواني وأخواتي يفرحون وهم يرون طائرات إنجليزية صغيرة تتشكّل في ألعاب بهلوانية جوية في سماء مطار يقع في مكانٍ متقدّمٍ بعض الشيء من باريس، فيما وراء الأقواس الصامتة التي يذرعها علي الأخرس، في أطراف كثبان الرمل الصلبة (الأكواد)، على بعد بضع خطوات من الأفق. كان الجميع مندهشاً وهو يشاهد هذه الطائرات التي لا تتوقف عن الإقلاع معاً لتشكّل أقواساً بهلوانية جميلة في الفضاء. الجميع يشاهدون ذلك إلا أنا. لم أستطع مدّ بصري نحو الأفق، ولا معرفة أين أركّز نظري في السماء الفسيحة.

قال لي أخي محمود وهو يركّز سبّابته في اتجاه الألعاب الجوية:

– انظر. هناك. مقابل أصبعي تماماً.

استغربت إحدى خواتي قائلة:

– إنها واضحة جداً.

وأضافت أخرى:

– إنها في غاية الوضوح!

رددتُ على محمود قائلاً:

– لا أرى شيئاً هناك. ضع أصبعك في الاتجاه الصحيح، أتوسّل إليك.

هكذا جرى حوار أخرس فيما بيننا. كنت أُحمِّل المسؤولية تكراراً لعجزهم عن الإشارة إلى الاتجاه الصحيح. وكانوا يظنون أنني أفتقد القدرة على إدراك الاتجاهات. وفي شهر رمضان من سنتي السابعة راودني أملٌ كبير في أن أنتهي من هذا الانحراف الغريب الذي سيطر على جهازي البصري: كانت أبواب السماء مفتوحة في ليلة القدر (وهي الليلة التي يُرجَّح أنها تنتهي فجر السابع والعشرين من رمضان)؛ ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، كما يقول القرآن الحكيم، نزل فيها جبريل بالقرآن على النبي، {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}. وفي اللحظة المباركة ينزل جبريل على المؤمن (ربما في صورة روح) ليعلن له أن الله سيستجيب لأمنيته. أخذت بهذا حرفياً مرةً أخرى. بقيت مستيقظاً، مسلّحاً بالصبر، مستعداً لهذا الحلم. يكفي أن أعلن أمنيتي

لجبريل ليُستجاب لها في الحال. من يدري؟ قلت لنفسي. ربما كنت المحظوظ الوحيد هذه الليلة.

حددت مطلبين لأتمناهما في هذه الليلة. الأول: العثور على قلم الباركر الجميل الذي أهداني إياه أبي وفقدته وأنا أجري في حيّنا مع زملائي قبل بضعة شهور من قدوم شهر رمضان في سنتي السابعة. كانت لحظة حزن مريرة. إذ كانت ريشة قلم الحبر الجميل أثمن ما في مجموعة أبي من الأقلام، وأفضل هدية قدّمها لي. أحببنا ذاك القلم كلانا. ترددت، للبحث عنه، على تلك الأماكن عشرات المرات دون جدوى، مثبتاً عينَيّ المسكينتين على كل علبة فارغة، فاحصاً كل حبة رمل، مفتّشاً كل صفيحة صدئة، أكنس الأوراق والعجلات التالفة، ورؤوس الأسماك الجافة، والهياكل العظمية للفئران المتحللة، كما لو كنت أبحث عن جزءٍ حميمٍ من جسدي فقدته في تراب حيّنا.

والأمنية الثانية أن يصلح في الحال هذا الخلل الكبير الذي يسمّم عينَيّ الاثنتين، وأن يضع محل هاتين البيضتين الكبيرتين المتفحّمتين، المملوءتين بالرماد أو بالرمل أو بما لا أعرف، كرتين مبصرتين أصليتين، تحتويان على قرنيتين حقيقيتين، وشبكيتين

حقيقيتين أيضاً. وفي نحو الساعة الثالثة صباحاً أغمضت أجفاني بهدوء قبل أن أتهاوى تحت وطأة نومٍ عميق استولى عليّ وأقصاني بعيداً في موعد ملائكي... وفي الغداة أنّبتُ نفسي بحسرة لتقاعسي الجبان الذي حرمني – من يدري؟ – من تحقيق أمنيتين غاليتين، بل من أغلى أمنياتي على الإطلاق.

وفي سن الثامنة تضاعف ضعف نظري بمعدّل ١.٣، في حين تضاعفت قائمة أمنياتي التي تنتظر مجيء جبريل تسع مرات (وهكذا اشتملت على ثمانية عشر مطلباً)... وبدأت في هذه السنة أحصد الثمار الحزينة لنظري العجيب، تلك الثمار التي نزلت عليّ خلال عطلة الصيف حين ذهبت مع عائلتي إلى قرية "المرفد"، التي ولد فيها أبي، بالقرب من مدينة تعز. قطعنا طريقنا (التي أصبحت صخرية كلما توغلنا، وأكثر تنوعاً وإدهاشاً) في ثمانٍ وأربعين ساعة مع أنها لا تزيد عن مئتي كيلومتر، قطعنا بعضها على ظهور الحمير. كلما تقدمنا في طريقنا عدنا إلى الزمن الغابر. نترحّل خلال الديار التي لم تتغير بمرور العصور، تمتد على مساحات عذراء، مذهلة. وكلما اقتربت سيارتنا اللندروفر من قرية أبي قطعنا قرىً بدت السيارة فيها طبقاً طائراً... انحشرنا داخل

مركبتنا الفضائية التي تترنّح على طريق لا تهدأ أبداً، نتطلّع في نظرات الفلاحين، المصعوقة والمعجبة، الذين صعدوا على سطوح منازلهم لتأمل مركبتنا ذات العجلات الأربع التي تتقدم بخطوات صغيرة في مضائق صعبة، وطرقاتٍ منحدرة ذات جمالٍ وحشي.

امتلأت عيناي في غرام بسحر المشهد الذي تقبع فيه قريتنا، وبالحقول التي تحيط بها في جمال، وبالخضرة المتناسقة المتلألئة الطاغية. وكان طقسها مختلفاً عن حرِّ عدن الشديد الرطب؛ طقس تنازعته سماء مشمسة ورحمة المرتفعات، وفرضت عليه أن يكون جميلاً إلى الأبد، مجرّداً من أية حاجة إلى التبريد أو التسخين؛ من التدفئة أو حركة مراوح التبريد. طقس يتذبذب في إطار درجات حرارة نموذجية، بين البرودة المباركة والدفء اللطيف. ومنذ أول نظرة أحببت الجبل المهيب، جبل القلة، الذي ينتصب في سحر وفتنة مقابل قريتنا، متشكِّلاً في هيئة إنسانية تامة ذات تناسقٍ استثنائيّ. هاهو برأسٍ بصير ومنكبين عريضين، واقفاً كعملاق، يحمل على جسده المهيل مدرجاتٍ مبنيةً بعناية ومنحوتةً بدقة، تُزرَع عليها الذرة، وقرىً معلّقةً على نحوٍ يدعو للإعجاب، وأشجاراً خضراء متباهيةً سعيدة، وأعشاباً عطرة مترعة بالشمس، يفوح منها سيلٌ

من عبقٍ يُسكِر الأنفاس (عشقت غمر جسدي في ولهٍ لوقتٍ طويل داخل هذا السيل). بيوتٌ صغيرة غير منتظمة في صفوف، ودون أية رتابة مستطيلة أو أي شكل قسري، ترقد هناك في سكينة. قصورٌ تُطلُّ على سفوحه وقممه. "صفحةٌ فريدة في معمار المرتفعات، كُتبت في سموّ بفنٍّ ومهارةٍ تدعوان للدهشة"، هكذا قالت جملة شهيرة في كتاب عن فن العمارة. تتمدد السواقي على خدّ الجبل، تشير – مثل التجاعيد الوهمية الرائعة على جباه الشابات – إلى مقدار ما يتمتع به هذا الخدّ من حيوية وسكون. قبور هنا وهناك. غناء العصافير ينبعث من كل مكان. أطفالٌ يلعبون، ويركضون أحياناً، يتسلقون الجبل بسرعة كالعصافير... ومع ذلك، لم يستطع جبل القلة إخفاء مسحةَ حزنٍ شفيفٍ أبديّ. كنتُ أتجوّل غالباً مع شبان قريتي في الطرقات المؤدية إلى قمته المغلّفة بالألغاز والأساطير، ممتطين مدرجاته المنحوتة برفق. كنّا نمخر عبابَ نتفٍ من السحب البيض التي تلفّه في حنان وتستسلم له طويلاً كما لو كانت في مقيلِ قات على بعد خطوتين من السماء. كانت نساء القرية يقدّمنَ لنا بيضاً مسلوقاً على الجمر ومكسوّاً بشريحة خفيفة

من الملح والفلفل، ويحلبنَ أمام أعيننا حليباً كنا نشربه والرغوة لا تزال تعلوه.

شدت انتباهي بعض العصافير التي تسكن حقول جبل القلة، تسمّى "الجوالب"، ولعلها نوعٌ من الحمام. وأثار انتباهي بخاصة بيت شعر غنائي يربطه الناس بغناء الجوالب الحزين الذي يترجمونه في منطقتنا في بيت من شطرين، يُغنَّيان بإيقاع غناء الطير الكئيب نفسه:

يجعل له حنش اسودي
من قتل ولدي

وبعد بضعة أيام من اكتشافي للحنين المبثوث في هذا الغناء الحزين أخبرتُ صبياً من منطقة مجاورة كيف يقرأ ناس قريتنا دموع الجوالب. فقال لي إن لمنطقته أيضاً قراءتها الشعرية الخاصة بها لهذا الغناء، بحيث تختلف الكلمات والصور الشعرية عمّا هو في منطقتنا، لكن جوهر الغناء والدعاء متماثل... فبدأت جمع الروايات من مختلف المناطق، مفتوناً في كل مرة بالتماثل التام بين القراءات الشعبية وبتماثل شكل ترجمتها الشعرية في الترجمات المختلفة، وبالمعنى الواحد الذي يجمعها. وبدا التماثل مذهلاً لدرجة أن بعض

المناطق البعيدة عن قريتنا، مثل بلد يقع على الطرف الآخر الجنوبي، تشدو فيه الجوالب بلحنها على النحو التالي:

من قتل السعاديد[8]

[8] السعاديد: صغار الجوالب.

لا عيّد العيد

ولا يمكن إلا أن تكون كثرة هذه الترجمات لافتة للنظر في بلد دون اتصالات، أو وسائل نقل حديثة، بلد مشطور إلى شطرين – كما لو كانت وحدة الأذن الموسيقية غير قابلة للانقسام – بلد ينام بمعزل عن الحركة وعن الزمن.

لم تتمنَّ لي أية جولبة حنشاً أسود أو تتّخذني هدفاً لنحيبها المنتقم، دون أن يفرحني ذلك، لأنني لم أستطع، بسبب بصري الضعيف، إصابة أية جولبة خلال مباريات الصيد التي خضناها أنا وأولاد عمي، مستخدمين "مذرقاً"[9] لإطلاق الحجارة في مدرجات القلة وحول القرية. اصطادوا كلهم إلا أنا بالتأكيد. كانت حقيبة يدي فارغة تماماً. ولكي أكون صادقاً أقول إن هذا قد ناسبني إلى حدّ بعيد، دون قصدٍ مني. لأنني لو حملت في حقيبة يدي أية جولبة ميتة أو مجروحة لارتعدت فرائصي من الخوف بلا شك. وعند أول

عودة من الصيد تذرّعت بعدم دقة ’’المذرق‘‘ الذي أطلقت به الحجارة. لكنّا تبادلنا في المرة الثانية ’’المذارق‘‘. فاستسلمت عندها لقول ابن عمي إن ’’العدني أخرق‘‘... وكما كانت الحال دائماً، لم يفترض أحد أن مصدر الخلل ليس في قدرتي على إدراك الاتجاه، بل في عينَيّ اللتين تريان كبطاطتين. ومع ذلك، شيءٌ ما تغيّر من حولي: فإذا كنت فيما مضى قد تحمّلت فقدان رؤية الألعاب البهلوانية الجوية وانتهيت إلى تخيّل سمائي الخالية مطرّزةً بطائرات راقصة، فقد كان الأمر هذه المرة مختلفاً تماماً، ومزعجاً تماماً. فلم أعرف بعد انتهاء الصيد كيف أواجه بنات عمي اللواتي يقتربن منا لإحصاء عدد الجوالب التي اصطادها كلٌّ منا. فقد قهرتني قسوة الرقم صفر، وأحرجني ضعف عينَيّ المشلولتين وعرّاني أمامهن. واصلتْ نتائج بصري الغريب إزعاجي بقوة خلال هذه الرحلة التي لا تُنسى إلى قرية أبي المزدهرة. صدمتني تلك النتائج، بعد خيبة أمل بنات العم، في أماكن أخرى أكثر خطورة، أو بالأحرى أكثر حميمية. ولم تسلم من ذلك حتى أول تجربة جنسية لي، إن جاز تسميتها كذلك. فقد رتّبتْ جماعة من الأولاد في سنّي، وقت القيلولة، اجتماعاً سرياً في اصطبل عمي

”حيث لا تدخل الملائكة أبداً متجنّبةً رائحةً لا تطاق“ كما قال رفيق في الجماعة. إذ يبقى الملكان الحارسان ”ملَك السيئات وملَك الحسنات“، أو المدّعي ومحامي الدفاع، خارج الإصطبل، وتغيب كل معصية عن سجلّ الحساب العام يوم الحساب، كما قال بصورة لا تخلو من المنطق. سألت: ”ما سبب هذا الاجتماع؟“ أجاب محرّك الجماعة: ”لنريك ما نستطيع فعله لتعرف أن أطفال المدينة المساكين لا يستطيعون حتى تخيّله“. كانوا يدخّنون في السر سجائر ”روثمانس“ و”ثري فايف“ و”كليوبترا“... متمترسين خلف بضعة أكياس من الأعشاب. تناولت سيجارة ”ثري فايف“ احتراماً لأمي التي تتمسّك بالأعداد الوتر. دخّنتُها حتى تجاوزتُ أطرافها تاركاً عقبها معضوضاً من الوسط بين طرف شبه ملتهم وطرف محترق كلية. كنت أتغصّبها في غمّ فخوراً متظاهراً بالسرور. إذ لا يكون تدخين أول سيجارة غرائبياً إلا حين يجري تدخينها في حفرة زاوية اصطبل.

9 المذرق (تُلفظ بالمحكية ”مزرق“ بالزاي): المقلاع.

أصبحت الأشياء فيما بعد أصعب، وأكثر غموضاً وإحراجاً. فقد انتظموا في صف وراء البهائم الثلاث التي يملكها عمي! وقف كلٌّ

منهم أمامي كمشاهد وحيد خلف بهيمة، فاتحاً حياءها بيد (أية حركة غريبة، وأية براعة!)، مستخدماً اليد الأخرى بطريقة لا تقلّ مهارةً لتدقيق التصويب وتصحيح أي اتّصال فاشل (أي امتحان صعب!). لاحظت باهتمام هاتين الحركتين الأساسيتين اللتين ينبغي تنفيذهما بالترتيب، على نحو عمودي. وجاء دوري بعد لحظات. أية كارثة! لم يثر جسدي، ولم توقظه أية لمسة مداعبة. أحسست بالضياع والانكماش والتقلّص والنحول من المفاجأة والذعر.

سألوني في لحظة معينة قبل الانتهاء من عملهم أن أرقب المتعة واللذة عند بهائمهم. وصدقت ذلك تماماً، وكنت أفسّر بسذاجة ورومانسية كل حركة من عيون البهائم. ثم قلت لهم إنني أفضل أن آخذ دوري في الغد، مدّعياً أن أبي سيدعوني عمّا قريب. أحسست بالحاجة إلى التدريب، لأن أي خطأ ارتكبه سيكون قاتلاً. سيتّهمونني إلى الأبد بالعنّة، أي بالعجز الجنسي (يكفيني عجز عينيّ). إذ لم يكن لدى هؤلاء القرويين الكثير من التقدير لنا نحن العدنيين، المسترخين، غير المبالين، طريي العود، زائدي التدليل، العاجزين، في رأيهم. وعند الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي لهذا العرض التدريبي كان الليل عميقاً، وكثيفاً، وشاملاً على نحوٍ

بارز. بدا أفق قرانا دون قمر ودون كهرباء محفوفاً بشرشف أسود ضخم وكوني، يلفّه صمتٌ كثيف عام باستثناء رنين صراصير الليل، ورجع صدى أصوات ابن آوى عنيد يجوب أعلى سفوح جبل القلة. تسللت نازلاً على أطراف أصابع قدمَيّ نحو الاصطبل لأتدرّب استعداداً لمباراة الغد. خفق قلبي بقوة، وصعب عليّ العثور على الطريق المؤدية إلى الاصطبل. تضافر الظلام الدامس وضعف نظري ليعطياني سيماء أعمى. ترددت عند كل خطوة، وسقطت فوق كل الحفر؛ حفر درجات السلم وحفر أرضية الاصطبل... ارتعشت عند كل حركة، ثم اصطدم رأسي بمؤخرة دابة. "إنها هي، أروع الثلاث" قلت أحرّض نفسي على نحو أو آخر في هذا الظلام البهيم. إنها تلك التي كانت لها بعد ظهر هذا اليوم عينان معبرتان، متعطشتان وحالمتان. بل وبدا لي أنني رأيت عينيها المخمليتين تبرقان في الظلام! كنت في حاجة إلى دوافع. وبقدر ما خشيت هذه التجربة الغريبة في الظلام وعفن الاصطبل، كنت راغباً في أن أحقق النجاح في هذا الامتحان المتعة العميقة التي زعموا حصولها، وأن يُقدَّم لي بخاصة انتماءٌ لا ريب فيه إلى عامة الناس العاديين! وأخيراً عثرت على تنكة سمحت لي بالتحكّم في

الوضع بشيء من العلو. ونجحت بجهدٍ جهيد في أن أقرّب التنكة وراء العشيقة المصطفاة. لكنني سقطت ثلاث مرات أو أربع قبل أن أتمكن من تثبيت التنكة. لا بدّ لأي أعمى يسرق في الظلام من أن يحدث أضراراً. فقد أحدثت خطواتي المتعثرة الكثير من الضوضاء، وكذلك فعلت تحركاتي العنيفة في الاصطبل حتى سمع عمي هذه الضجة من غرفة نومه - لم تكن بكل تأكيد صيحات بهيمة مستمتعة. وقبل أن أتمكن من تلك التي يفترض أن تكون الشاهد الأكبر على فحولتي، والقاضي الأعلى، وحاملة الحكم الذي ربما يلحق بي إلى الأبد أسوأ احتقار، سمعت عمي يهمهم راكضاً نحو الاصطبل متسائلاً عمّا يحدث هناك في تلك الساعة. اختبأت خلف ثلاث تنكات دائرية (غير مستطيلة في هذه المنطقة، والحمد لله) في رعب وقد استولى عليّ شعورٌ بالعار وذهولٌ مميت. أرآني؟ أأراد غضّ الطرف ليجنّب المهانة ولداً يريد أن يزوّجه إحدى بناته العديدات (أذكاهن، وأقلهنّ جمالاً. ومنذ أن أحسست بنيّة العم تجنّبت الكلام معها أو حتى رؤيتها، مع أنها كانت رقيقة ولطيفة. ويوم علمت أنها ماتت بمرض السل ذرفت عيناي دمعتين سريتين)...

أخافتني هذه الأسئلة. لم أستطع قراءة إجاباتها في عينَيّ عمي اللتين لست في حاجة لأن أؤكد أنني كنت عاجزاً عن رؤيتهما بوضوح.

وفي هذه السنة التي شهدت رحلتي الأولى إلى قرية أبي، أعددت بعناية قائمتي في انتظار ليلة القدر على الورق منذ مطلع شهر رمضان. واحتوت ثمانية عشر مطلباً لا يمكن التفاوض حولها بغرض تقديمها إلى الملاك. قفزت غشاوة عيني هذه المرة إلى أول القائمة، يليها القلم الضائع وقد تراجع إلى المرتبة الثانية. ولكي أتجنّب مضايقة جبريل تمرّنتُ مرات عديدة على قراءة سريعة لقائمتي... استيقظت صباح يوم السابع والعشرين من رمضان والقائمة تحت الوسادة، حزيناً ومتهاوياً، بعد انتصار متأخر للنوم الذي هبط عليّ بضربة سريعة وغير متوقعة. ضربة ملعونة.

وفي سن التاسعة تضاعف ضعف نظري ثلاث مرات، وتضاعفت قائمة طلباتي حتى ما لا نهاية. فقد جلدتني نتائج ضعف نظري بقوة أكثر فأكثر. كنت على ثقة من أنه إذا فات موعدي الملائكي في ليلة القدر القادمة فلن يكون بتقصيرٍ منّي. فقد رفضوا مشاركتي في فريق كرة القدم في حيّي لأن المهاجم الذي يضرب بقدمه في الفراغ، ولا يرى الحجرتين اللتين تحددان مرمى الفريق

الخصم، عديم الفائدة. إذ اشتعل مدرّب فريقنا وقائده غضباً ووضع نهاية لتجربتي الكروية عندما بصق في وجهي أمام فريقنا ومشجعيه بهذا القول المأثور ”ينبغي للمرء أن يختار بين لعب كرة القدم أو إضاعة حياته في العادة السرية“، مشيراً إلى فرضية لها رنين الحكمة في الاعتقادات الشعبية لحينا تقول إن ”الإفراط في العادة السرية يضعف النظر“. لقد كان على الأقل من اللياقة بحيث لم يتّهم قدرتي الشهيرة على إدراك الاتجاه. ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الشرف المضاع عهد إليّ بالملفات المالية لفريقنا الذي هبط إلى الدرجة الثانية بعد نتائجه المخيبة للآمال في دوري فريق الدرجة الأولى للقسم (أ).

ولا يمكن أن أنسى المباراة النهائية في هذا الدوري. فقد دخل صبي بعد عشر دقائق من انطلاق صفارة البداية إلى أرض الملعب منطلقاً كالسهم هامساً للحكم بأن أباه يريده لأمر عاجل. وتوجّب البحث عن حكم آخر. وللأسف، اختارني بعض اللاعبين البارزين لأحلّ محلّ الحكم. أكان اختياري بسبب ترتيبي من حيث درجات النجاح في المدرسة؟ أم لأنني كنت عملياً محايداً من حيث أن فريقي تعرض للهزيمة بسببي بلا شك، على يد الفريقين اللذين صعدا إلى

المباراة النهائية؟ كان ينبغي أن أهرب أو أن أرفض أو أن أختفي في برميل ما أيّاً كان، أو التذرّع بأي عذر غير معقول. وجدت نفسي أركض في كل الاتجاهات! فهمت بعد دقيقة مقدار صعوبة أن تكون حكماً في مباراة كرة قدم، وبخاصة حين يدور الحكم في شرود بلا توقف، ويلهث بسرعة، وبالذات حين يكون مثلي شبه أعمى. لقد كانت محنة قاسية بالنسبة لشخص لا يستطيع التدقيق، ولا الحزم وإغضاب الآخرين. شخص يحب – إذا استعرنا عبارة إحدى قصص عدنان – "أن يمشي دائماً في الظل، بقلب يبحر على إيقاع خطواته الخفيفة"... فليعذرني عدنان إذا كان في تعريفي لذاتي شيء من الإفراط. وبعد بضع دقائق خرجت الكرة عن مجال رؤيتي مقتربةً من القائمين الافتراضيين اللذين يحددان المرمى، ثم خرجت من الملعب تماماً. فهل مرت بين القائمين؟ كنت عاجزاً تماماً عن الإجابة عن هذا السؤال. ترددت ولم أصفر لاحتساب هدف. وكان بين الفريقين اللذين لا يعرف أحد من أعضائهما مواهبي البصرية من أسعدته هذه الهدية (لأن ما حدث كان تسجيل هدف صحيح). وكان بينهم من تذمّر، وهم الأحد عشر لاعباً ذوو "الفانيلات" الخضر، ومشجّعوهم الذين انهالوا عليّ ضرباً بأقدام

غاضبة رجّتني بعنف. وغادرت أرض الملعب مهاناً ممزقاً ومحطّماً تماماً، تحت سيل شتائم مقذعة مثل "مرتزق، مشترى، وغد، قذر"... دعك من ذكر أكثر الشتائم سوقية.

لقد تركت هذه المباراة أثرها عليّ كوشم. لأن الألقاب تتالت عليّ بعدها. فالوفاء للألقاب ثابت في أحيائنا إلى درجة تجعل الأسماء الحقيقية تسقط في النسيان. ولكي أوجز نظرية الألقاب في الشيخ عثمان يجب أن أوضح أنها تُصنع أساساً في معملين كبيرين: أحدهما مدرسة الألقاب المباشرة، والآخر مدرسة الألقاب المدروسة بعناية. فأطلق علي المتحمسون للمدرسة الأولى لقباً وجدته بسيطاً وفلسفياً. فقد سمّوني "الأعشى". أما الآخرون فقد قسوا عليّ وسمّوني "زرقاء اليمامة". ومن الأفضل لأسباب ستنال تفهّمكم أن أوجز على العموم في الحديث عن بيئة الألقاب هذه، وهي الألقاب التي أصبحت بعدي الخامس. وسأرفض لنفسي تصنيف أو ذكر المسلسلات الأخرى من الألقاب – ولها كلها علاقة بمشاركتي في هذا الدوري – والتي تتالت فيما بعد، وبخاصة تلك المستوحاة من نظرية قائد فريقي حول سبب تدهور النظر. شيء واحد شرح صدري وخفّف عني في هذه الفترة: صيغة ماكرة

مفصّلة على مقاسي معدّة لنزول الملاك في السابع والعشرين من رمضان في سنتي التاسعة. لم تكن هناك حاجة إلى ورقة، فقد كانت الصيغة مقتضبة. فلن يكون لدى الملاك الوقت لكي يتنفس الصعداء، إذا جاز القول. وكانت تنتظره دون صبر جملة نهائية على طرف لساني ذلك المساء، هي: ”أريد من الآن وصاعداً أن تتحقق جميع أمنياتي في الحال“. فكيف سيكون ردّ فعله أمام هذه الجملة الذكية القصيرة، الباردة والماكرة؟ وكنت أستطيع أن أزيد في تكثيفها بحذف كلمة ”في الحال“، لكني اعترف أنني أخشى أن تصيب عالم الملائكة عدوى بيروقراطية عالمنا السفلي. وكنت مستعجلاً لرؤية رأس الملاك بمجرد النطق بأمنيتي. إنها أمنية من القوة بحيث لا يمكن اختزالها، ومن الخطورة – من حيث المنطق – بحيث قد تسبّب الاضطراب في مملكة السماء.

أية كارثة! لم يطرق جبريل بابي في تلك الليلة، مع أن هذا الباب كان مفتوحاً على مصراعيه كأنه معسكر إيواء. وكنت في حال ترحاب لا مزيد عليه، بشوشاً كما لم أكن من قبل، مستيقظاً كساعة معلّقة على الجدار، مرابطاً مستعداً. العينان مشدودتان إلى السماء، تتقرّيان سديمها، وتفتشان ثقوبها المضيئة وشقوقها الصغيرة

الشفافة وطرقاتها العمودية... ولا شك أن الملاك سيفضّل أن يبعث السعادة في قلب شخص أقل طمعاً. سألني عدنان المطّلع تماماً على حالتي النفسية في الأسبوع الأخير من شهر رمضان، وعلى التطور الدلالي للرسم البياني لرغباتي:

– أمرَّ فعلاً على شخص آخر؟

وأضاف قائلاً:

– فلنفترض أن جبريل وقع قبل بضعة قرون على إنسان تمنّى أمنيةً ما مثل "من الآن وصاعداً لا تمرّ أبداً على أي شخص آخر. أتمنّى، يا جبريل العزيز، أن تكون أمنيتي آخر أمنية في ليالي القدر جميعها".

لفت انتباهي عدنان قائلاً:

– تصوّر أن إنساناً ما قال له شيئاً مشابهاً. أليس من المنطقي أن يكون قد أوقف رحلته السنوية؟ كيف تستطيع التأكد من أن لا تكون ليلة القدر قد أصبحت ببساطة لاغية؟ لعلّك تضيع ساعات نومك بلا فائدة!

تساءلت في الحال: "أحدث أن وُجِّهت هذه الأمنية إلى جبريل؟ أنعيش قروناً من انتظارٍ لا طائل من ورائه؟ أأضعتُ وقتي

ببلاهة؟“. ثم اختتم عدنان الحديث بكلماته التي نفذت إلى أعماقي بحيث لا يمكن نسيانها قائلاً: ”فعل كل شيء صيغة تحمل في أحشائها نفيها! قد يبدو هذا تناقضاً، ولكن هذا هو الواقع: فعل كل شيء يعني... عدم فعل أي شيء“.

من أين يأتي عدنان بأسئلته غير المتوقعة؟ من كشف له عن هذه الأفكار المذهلة؟ من يستطيع أن ينوّرني أفضل من هذا المنطق الشيطاني العنيد الذي يتمتع به عدنان النوراني؟ إلى أي حد يستطيع هذا الصديق السماوي تحويل معتقداتي إلى بخار يتطاير في الهواء، وأن يبثّني نسمةً خفيفة من الشكّ المتفتح.

الفصل الثاني

أصبحت أكثر واقعيةً بعد التوضيح الرائع الذي عرضه عدنان. تخلّيتُ شيئاً فشيئاً عن انتظار ليالي القدر لتذليل المصاعب التي تواجهني. فقد تطلّب مني هذا العلاج الغيبي طول انتظار. ولم أجد إلا حلاًّ وحيداً للتخلص من اختلال نظري: أبي. إلا أنني، لسبب يعود إلى القصور الذاتي أو إلى هذا التفاؤل المثالي الذي خدّرني، ظللت أعتقد (من وقت إلى آخر بثقة ظلّت تتناقص) أن جبريل لن ينساني. وعلى الرغم من الواقعية التي فرضت نفسها في دماغي، والتي ازداد تغلّبها بالتدريج، وعلى الرغم من عينيّ اللتين تصرخان بعجزهما، حلمت في هدوء ودون انقطاع بأن معجزةً ستحلّ في صباحٍ ما أستيقظ فيه بعينين تبرقان وتنفتحان على عالمٍ لا يشوبه الغموض والتشوش فأبدو وكأن أية غشاوة لم تحجب شبكيتي، كما لو كان كل ما حدث لعينيّ مجرد وهم. وكأن اللكمات التي كسرت عظام الحكم في المباراة النهائية في القسم (أ) لم تكن سوى كابوساً وقد انزاح. قلت يوماً لأبي في وقتٍ ما من سنتي الحادية عشرة أو الثانية عشرة، حين كنا لا نزال نتحدث بصورة

عادية:

– لم أعد قادراً على البقاء هكذا. أحتاج إلى نظارات طبية، أباه. أحتاج إلى عدسات تصحّح نظري.

ردَّ قائلاً:

– لا.

قلت:

– من المستحيل أن أواصل العيش على هذا النحو عاجزاً عن قراءة كلمة واحدة على السبورة في الفصل مع أني أجلس في الصف الأول.

أجاب قائلاً:

– ما أن نقرّر حمل النظارات حتى نصبح عبيداً لها.

– وماذا أفعل، إذاً؟ متى سأرى بشكلٍ عادي مثل كل الناس؟

– إروِ عينيك بالكحل كل ليلة قبل أن تنام. الكحل يقوّي النظر. فأنا أتكحّل كل ليلة وها أنا، وأنا في الستين من العمر كما تعرف، أقرأ كتبي ذات الأحرف الصغيرة وذراعَيّ ممدودتان. أتعرف ماذا وجد المؤرخون في عينَيّ زرقاء اليمامة؟

سألت منفعلاً ومنزعجاً من سماع والدي ينطق هذا الاسم الذي اخترقني كالسهم:

– ماذا وجدوا؟

– وجدوا شرايين مشرَّبة بالكحل.

كان من السهل الردّ على اعتراض أبي: فلم تذكر النظارات في كتب الممنوعات في مكتبته، ولله الحمد. ولكني وقعت أسير حجّته. فقد كان يقلقني كثيراً أن أكون عبداً لشيءٍ ما يغتال رغباتي الطفولية بالتمتع بحرية لانهائية، مطلقة دون حدّ. أحيت حجته أحلامي القديمة بالتجوال حتى أطراف الحرية، بعيداً عن العذابات الأرضية، وعن سجون نسمّيها: العمل، والنظام، والنظارات، والأوامر، والمرض، والسلطة، والمسؤولية... هناك على كوكب حيث نقضي الحياة في قراءة الروايات وكتابة الشعر، ونلغي كل عبودية سوى عبودية الحرية. ترجمت حجته في أعماقي كالتالي: "أن أكون فراشة دون نظارات، أو أن لا أكون...". كما أن الشرايين المشرَّبة بالكحل قد استوقفتني، ولم أعرف ما إذا كان من الممكن واقعياً أن تكون كذلك أم أن هذه مجرد صورة شعرية. وفي كل الأحوال، يتّحد الواقع والمجاز في ذهن أبي، فلا نعرف معه قط

أين ينتهي الواقع وأين يبدأ الخيال. ومع ذلك، يهمني أن أعرف ما إذا كان ينبغي قراءة جملته حرفياً أم أنها مجاز. تحتاج شرايين عيني لمعرفة هذا البديل. ستتطلب الحالة الأولى أن أفقأهما لأحشوهما بأطنان من الكحل، وفي الحالة الثانية لا أملك إلا ملاحظة الأصالة العميقة للصورة التي ابتكرها، ونتائجها المحدودة على واقع بصري.

وتوجد أيضاً أسباب أخرى لهذه السنوات العجاف من عمر بصري. فقد أخافتني صورة المغنّي المصري محمد عبد الوهاب بعينيه غير المشاهدتين وراء عدسات فلكية مكبّرة. ولذلك أرعبتني فكرة عزل عيني وراء مثل هذا الحاجز. كما أن عشيرةً مكونةً من أصحابي في المدرسة قد جعلت عدوها المفضل جميع حملة النظارات، وبخاصة "عصابة الطلبة الأربعة" حاملي النظارات، الذين وُصفوا بأنهم متحذلقون مدّعو معرفة، معقّدون ومثقفون مزيفون. وأضاف بعض أصحابي أيضاً ألقاباً أخرى إلى هذه الألقاب الجليلة! أحسست أن النظارات نوعٌ من الخيانة لهم. ثم كان هناك بخاصة ذلك التحول المدهش في دالآتي الأولية، وتلك السنوات من انتظار الرحمة الإلهية التي ستغيّر في ليلةٍ ما ظلام

شبكيّتي. وفي انتظارها واصلت الهرب من فقر العقلانية وغموض الواقعية، في توق لصباح جميل يغسل عينيّ تماماً من مرضهما بمعجزة، بكحل أو بدون كحل.

وأخيراً جاءت القطرة التي جعلت الكأس يفيض. مررت ذات صباح جميل أمام مقهى. وكان على بعد أمتار مني شبح يشبه عدنان يجلس على السطح. حيّيت الشبح من بعيد. وكالعادة بسبب قصر نظري لم أستطع تبيّن ما إن كانت تحيتي قد حلّت في الفراغ، وما إن كان الشخص الذي حييته ينظر نحوي في تلك اللحظة، وهو ما يفسّر لماذا ينتهي دائماً تلويحي بالتحية على نحوٍ غريب بحكّ الرأس. وهكذا ظننت أن حركة يدي يمكن أن تُفسَّر دائماً كما لو أنني أحكّ رأسي فأتجنّب أن أبدو آلة تحيات طائشة.

وبعد دقائق ثلاث من مروري بالقرب من المقهى قابلت عدنان في طريقي. كان من حييته قبل ذلك أخاه الذي لم يعد بيني وبينه كلام منذ تقاطعنا قبل سنتين. تعرّض اعتزازي بنفسي لصفعة مؤلمة. وبعد ساعتين كنت مصطفّاً في صالة انتظار طبيب العيون في مستشفى الجمهورية، المستشفى الرئيسي في عدن. كان لمرضي اسم هو "العشى". وحين رأى طبيب العيون نظري

القصير لم يستطع إلا بصعوبة تصور أنني أكشف على نظري لأول مرة. ولعله تساءل: كيف يمكن أن تبقى عينان بهذا القدر من الضعف بلا نظارة؟ قال لي حين لاحظ أنني أجري هذا الفحص لأول مرة:

– هذه أول مرة في الواقع!

– ماذا؟

أكّد طبيب العيون العجوز الذي يتحدث بسرعة بلهجة ذات لكنة هندية خفيفة:

– منذ خمسٍ وعشرين سنة من حياتي المهنية هذه أول مرة يبدأ فيها المريض بعدسات طبية بهذه الدرجة العالية من الضعف.

ثم تساءل ببرطمة تدلّ على الاستغراب:

– لماذا انتظرت طوال هذه المدة قبل أن تأتي إلى المستشفى؟ كيف تستطيع الرؤية؟

غمغمت مضطرباً لا أعرف بالضبط بِمَ أجبت.

وبعد أسبوع كنت أضع نظارات وعمري خمس عشرة سنة. استغرق تكيّفي ساعات عديدة دار خلالها رأسي على نحوٍ مزعج. كنت أصطدم أحياناً بالمصابيح، أو أدفع العابرين، قبل أن أبدأ شيئاً

فشيئاً رؤية الأمور على حقيقتها... تفجّر حينها في رأسي مصدر فرح لا يوصف؛ فرح مختلط باندهاشٍ هائل.

وداعاً للعينين المشدودتين دائماً إلى الضغط على شبكيتي لتؤدّيا دورهما، ووداعاً للتكنيك البدائي، الذي يلفّ قبضة الكفّ في شكل منظار أمام العين لترشيح الصور الواصلة إليها ومراكمتها قبل أن تتبعثر بسرعة في كرتَي العينين دون هذا التكنيك، الآتي منذ آلاف السنين. ووداعاً للرغبة القديمة – التي راودتني منذ أول يوم لي في المدرسة – بأن أتربّع فوق كتفَي المدرِّس لأتمكّن من قراءة ما يكتب على السبورة. وأخيراً سأستطيع الجلوس في آخر المقاعد في الصف الدراسي، مقاعد الحرية، مع أخلص أصدقائي، على بعد خطوتين من النافذة الكبيرة، مقابل ملعب كرة القدم في المدرسة. بدا كل ذلك أشبه بمعجزة.

وأخيراً بدأ وجه الحياة الحقيقي بالكشف عن نفسه أكثر فأكثر دون قناع من عشى نظري. وداعاً للصور المشوشة بضجيجٍ مصطنع، أو المتراكبة، الخاطئة. لقد تغيّر كوكبي الذي أعيش عليه! فقدت الصور بسرعة أشكالها المبالغة في التجريد، وأصبحت مشخّصة. بدا جبل شمسان البركاني بالقرب من حي كريتر في

عدن (أحد أحياء عدن السبعة) أكثر تعقيداً من الصورة المسطّحة لكتلة صخرية ضخمة، وهي الصورة التي كانت لديّ عنه. شاهدت لأول مرة جزيئات حجرية على السفوح المحترقة، ومضائق قاحلة فوق مساحات عارية، رائعة. رأيت لأول مرة عمالقة تخدّدها التجاعيد. تظهر الأشكال أكثر دقةً وتعقيداً من تلك الصور التي ذابت في الماضي في عينَيّ. صراصير وجرذان وسحليات تظهر دون انقطاع بالقرب من السقوف وفي كل زوايا المطبخ. عرفت أن حَبّ الشباب في الوجه والمخاط في الأنف موجود أكثر مما اعتقدت سابقاً. ما أقبح الأسنان الصفراء! نعم. ليس العمى الإعاقة المطلقة التي نعتقد. بدأتُ رؤية تفاصيل الحياة وجدرانها المشقّقة، واكتشفتُ أن ثياب أبي اللدود ليست مكوية بما فيه الكفاية، وأن عمامته كانت موضوعة على رأسه على نحوٍ رصين، إذ يلفّها بعناية فوق جبهته (كم أحببت جبهته!). كان يقرأ ويقرأ ويواظب على القراءة باهتمام. يكتب ويكتب ويكتب بصبر شديد. لم يتكرّس عملياً سوى لهاتين المتعتين بلا انقطاع حين لا يكون مشغولاً بأداء صلواته. اكتشفتُ أيضاً أن الشباب الدائم في وجه أمي لم يكن قط هبة أثيرية من غبش

نظريّ يكسوه جمالاً. فقد بدا لي عند التدقيق فيه جميلاً، سماوياً، ناعماً، نقياً، ونضراً على الدوام.

وعرفت إشارات المرور من أسهم وعلامات منع الدخول. وفهمت أخيراً دور لوحات كان من الصعب عليّ فيما مضى معرفة سبب وجودها. قرأت لوحةً تقول "لا تسرع يا بابا فنحن في انتظارك" معلّقةً بين مصباحين في الشارع الذي يربط الشيخ عثمان بكريتر. لقد قرأها الجميع ربما مئات المرات. أما أنا فأكتشفها لأول مرة. وما أن احتلّت النظارات الطبية مركز خارطة وجهي حتى أطلقتُ حملة مطاردة عشى النظر في الحي الذي أسكنه. صنعت لعبة أرقام بأحجام مختلفة، مثل تلك التي عند طبيب العيون، وبالقياس على حالتي – بالطبع وقد وضعت النظارات على وجهي – استطعت بسرعة فرز العيون المصابة في عائلتي. وجدت أن أختي الصغيرة ليلى وأخي مروان ضعيفا نظر. وسرعان ما كان عندهما نظارات طبية. وانضمّت فيما بعد ثلاث جدات – والجدة في قاموسنا الاجتماعي امرأة يتجاوز عمرها حاجز السنة الأربعين – إلى حلقة حاملي النظارات. ثلاث عجائز في حينا يبحثن عن نظارات! أي حادث غريب؛ واقعة مهمة في تاريخ حي

النصر، الذي أعيد تسميته بالمناسبة إلى "حي العجائز الثلاث ذوات النظارات". أصبحت الجدات الثلاث موضوعاً رئيسياً للثرثرة والهزل في الشيخ عثمان، لأنهن حملن نظارات! لم تحمل أية امرأة في هذه السنّ نظارات من قبل، ولم تعرف امرأة لها هذه السنّ القراءة أو الكتابة. فقد اكتشفتُ، أولاً، ضعف نظر الجدة مالكة، قابلة حينا المحبوبة، ثم ضعف نظر العمة فوزية، أعزّ صديقات أمي، وأخيراً ضعف نظر الجدة نور، مثقفة جدات الحي، التي تستمع كل ليلة إلى أخبار القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية قبل أن تقوم بجولتها من منزل إلى آخر لتحكي نشرة أخبارها، بكلماتها وطريقتها في النطق. تشعر زميلاتها بأنها تتجاوزهن وتسحرهن حين تعرض عدتها من العبارات المستمدة للتو من نشرة أخبار لندن. فكانت كلمات مثل "وفد" غير مفهومة عند الجدات وبخاصة حين تقدم الجدة نور مقطعاً وتؤخّر مقطعاً آخر لتنطقها "ودف".

رافقتُ السيدات الجليلات الثلاث في "تاكسي" إلى طبيب العيون نفسه، في مستشفى الجمهورية، وقت الزوال. لم ينتهِ الطبيب بعد من اكتشاف نماذج جديدة تضرب أرقاماً قياسية في ضعف نظرها. وكذلك بائع النظارات. إذ سيتم عمّا قريب تحطيم الرقم القياسي

الذي ضربته خالة شكيب، زوج أبيه، التي كانت تملك كمية احتياطية من النظارات لابنها الذي يكسر في غضب زوج نظارات في اليوم. وسيأتي تحطيم الرقم القياسي السابق على يد الجدة نور، قائدة "ودف" الجدات إلى بائع النظارات. عدت ومعي رفيقاتي الثلاث ملفوفات بالأسود، ومعهن ثلاث ورقات من طبيب العيون وقد ختمها بائع النظارات. ساد جوٌّ مفعمٌ بالفرح في التاكسي الذي دار بنا حول جبل شمسان. قلت لنفسي إن الجدات الثلاث سيندهشن، بعد مضي أسبوع، حين يشاهدن ثنيات حقول الحجارة والنار التي تغطيه. ابتعد التاكسي الذي يقلّنا عن آخر شاطئ صخري، وعبر الطريق الطويلة المحاذية لملاحات الشيخ عثمان، التي تربطها بأجزاء عدن الأخرى. ومررنا باللوحة الكبيرة التي ترحّب بالقادمين إلى الشيخ عثمان فقرأتها دون أن أضيّق فتحتَي عينَيّ لأول مرة بعد خمس عشرة سنة. وبعد قليل ستحلّ محلها لافتة ضخمة وغريبة بعض الشيء كُتب عليها بأحرف حمراء "شعبنا لا يخاف الصواريخ الأميركية والبريطانية. بل يخاف من التسيّب الأيديولوجي!". وسيكون كاتب هذا العمل الكبير راعياً قديماً يدعى

حشوان: اللعنة المرعبة في حياتي وفي حياة كثيرين وبخاصة في حياة عدنان.

ذهبت إلى عدنان في يوم من الأيام الأولى لحملي عدسات عجيبة ملصقة بوجهي. نظارات سوداء من نموذج وحيد كان موجوداً حينها. أعلمته بالخبر. لم يدرك عدنان "البعد التاريخي" الذي جسّدتْه هذه العدسات بالنسبة لي. لم يردّ حتى على تأكيدي بأن النظارات أعظم وأبرع اكتشاف عرفه تاريخ الإنسانية. حاولت العثور على صورة يمكن أن تقنع عدنان، وهو الذي يتمتع بنظر حديد. وكانت صورة أضرمت، للأسف، جرحاً ما زال حياً ودامياً:

– أتعرف يا عدنان أنني كنت كلاعب شطرنج يلعب محروماً من ملكته منذ بداية اللعب ثم يراها تعود إلى اللعب من جديد!

تمّت المهمة! ابتسم عدنان في حين كنت أرتعش صامتاً بذكريات حية دائمة، عن الملكة المغتالة، عن المباراة مع شكيب وقد عادت الملكة إلى ساحة اللعب في النقلة الثانية والعشرين، حين أمسكت بالملكة لأول مرة، محرّراً إياها من ذبابة شديدة الكسل تقبع فوقها. كانت رائحة همجية لا تزال تصدر عن أحشائها المبقورة، ومن أشرطتها اللاصقة، ومن اغتصابها الذي هو سرّي العظيم. سرحت

أفكاري في لحظة طويلة نحو أبي الذي خضت معه حرب استنزاف صماء صامتة.

توجد أشياء نراها تماماً والنظارات منتصبة تحت الجبهة، في حين أن أشياء أخرى لا تكفي النظارات لرؤيتها. ومن الأشياء التي تقدّم النظارات خدمةً لا تقدَّر بثمن لرؤيتها ذلك الوجه الذي رأيته في نافذة منزل غير بعيد عن منزلنا، بعد بضعة أيام من حلولها على عينَيّ نهائياً. وجه بنقاء وجمال لا يتصورهما إلا خيال الشعراء. هذا ما كنت سأعتقده قبل هذا اليوم. وجه سيملأ عمّا قريب، وعمّا قريب جداً، سماء لياليَّ، وسيغطّي هذه الآلاف من النجوم الرائعة في سماء الشيخ عثمان، وسيحلّ محلّ كلّ ما يتحرك في مدينتي، وسيجعلني أحب هذه المدينة، وأنسى نواقصها، وثقلها، وغزواتها. وسيغرم قلبي عمّا قريب جداً بذلك الوجه في رقة وجنون، وسيخفق، ويخفق، ويخفق... وسيذرف دمعتين أخيرتين على قبر الملكة المغتالة، ذات ليلة على "كود" بالقرب من هذا الوجه المعطر، ثم سيدفن إلى الأبد تلك الملكة. إلى الأبد. إلى الأبد.

توجد أشياء لا تفعل معها النظارات شيئاً، ولا يراها تماماً سوى عدنان.

الجزء الرابع

٣٧٣

”ما يبقى من مدينة هو النظرة المتحررة التي ألقاها عليها شاعر شبه مخمور.“

أمين معلوف، **سمرقند**

الفصل الأول

جعلتني ابتسامة ابتهال الخفية، التي ربما كنت هدفها، أُحبّ على الأقل شيئين: حيّنا والأرقام الأولية. ولكن إلى من وجّهت تلك الابتسامة المقنعة الصادرة من نافذة المنزل رقم ٣٧٣ من شارع النصر، قبيل غروب الشمس؟ أهي ثمرة من ثمرات خيال نظاراتي الجديدة كل الجدة؟ أهي نتيجة خطأ في بؤرة العدسات؛ خطأ رائع؟ وهم مجرد وحالم؟ أأكون هدف هذه الابتسامة الشذروان؟ أأتيح لي شيء من هذه المصادر للعذوبة قبل أن تلتصق نظاراتي بجلدي؟ وهل حدث أن ابتسمت لي فتاة طوال تلك السنوات الغارقة في الغبش؟... كم يدعو للقلق ألاّ أكون قادراً على الإجابة عن السؤال التالي الذي يشكّل هوةً سوداء: "هل سبق أن ابتسمت لي فتاة في يوم من الأيام؟" وكم هو محيّر ألاّ نستطيع أبداً استعادة الصفحات المثقوبة من ماضينا.

كانت ابتهال تُمضي بضع دقائق كل يوم تقريباً، لحظة توقف شمس الشيخ عثمان الصهباء عن العضّ، بالقرب من نافذتها لتشاهد انتهاء النهار، أو بالأصحّ بدايته الحقيقية. كان وجهها الناعم اللطيف

يحب التسكّع ليخفي شيئاً ما أجهله، من نوع آخر تماماً. قدمت عائلتها للإقامة في حيّنا قبل زمنٍ ليس ببعيد. مثل قبيلة من المنفيين إلى الأبد، وربما سيئة الحظ. لأنها ما هاجرت إلى مكان إلاّ وحدثت حركة عرقية أو دينية أو سياسية وصادرت ممتلكاتها، وخنقتها... فبعد أن وجدت هذه العائلة نفسها مرفوضةً مؤخراً في تنزانيا ثم في إثيوبيا، قررت أن تدع الأطفال يسكنون في عدن، معتقدةً أن الطمأنينة النهائية ستسود في النهاية، وأن وضعها غير المنتمي إلى بلد بعينه قد وجد نهايةً في بلدها الجديد القديم، الحقيقي. فهل كان ذلك مجرد وهم؟ وفي المنزل رقم ٣٧٣ من حينا سكنت أيضاً أمل، الأخت الكبرى لابتهال، وابنها مارب، ثم أزال، أخو ابتهال. أما الوالدين فقد هاجرا إلى السعودية. أحببت كثيراً أزال. كان يكبرني سناً بستة شهور، وكان يعرف من البلدان أكثر مما نعرف نحن السكان الدائمين لأقسام الشيخ عثمان الأربعة. وسبق له أن شاهد غابات إفريقيا، وأشجار النخيل الباسقة الظليلة، وأشجار المنجة والباباي الكثيفة، والأشجار المحمّلة بفواكه عديدة الألوان، والغابات المترعة بالظلال، وغناء العصافير، والحدائق الغنّاء تجري من تحتها الأنهار أبداً، والأزهار التي تنمو في كل مكان.

لم يكن في الشيخ عثمان سوى شجرة واحدة تحاول بصعوبة أن تنمو. يشاهد المارّة في حينا هذه الشجرة المعلم الأثري، الشجرة الوحيدة في الشيخ عثمان، وسط شارع النصر. أتذكر (وكان عمري اثنتا عشرة سنة) حين بعثنا أبي إلى قرب لحج لجلب تربة صالحة للزراعة، وحفر بأصابعه، التي لم تجعلها الأوراق وسجادات الصلاة صلبة، حفرةً كبيرة أمام منزلنا الأوسط. أخفقت محاولات عديدة قبل أن تبدأ هذه الشجرة بالنمو. توجّب على أبي أولاً أن يبذل جهداً كبيراً، وأن يوسّط أشخاصاً لهم نفوذ لإلغاء قرار البلدية بمنع هذه الشجرة التي "تعيق المرور، وتهدّد أساسات المنازل، وتسيء إلى معمار مدينتنا، وتمسّ النظام العام". ثم توجّب أن يتصدّى لهجمات الغنم التي تلتهم باستمرار كل ورقة تنمو. فلأول مرة تجد هذه الغنم الشجاعة شيئاً طرياً تلتهمه، له مذاق مختلف عن مذاق الأعشاب الجافة التي تباع في دكاكين العلف في "نهر المتعة". وتكوّنت "جبهة الصمود والتصدي" في منزلنا بقيادة أخي محمود. اتّحدنا لمنع الحيوانات من مهاجمة الشجرة. وكذلك حمايتها من لاهب، الشاب المتوحش في حينا، الذي كان في سن الثالثة عشرة قد أزبد وأرعد. كانت جميع قطط حينا قد أصبحت

عوراء بسبب "مزرق" لاهب لإطلاق الحجارة. وكانت المصابيح الصغيرة، التي تعلو أعمدة يبلغ علوّها عدداً من الأمتار، دائماً محطّمة. والحقيقة أن هذا لا يهم. لأنها حتى حين تكون مضيئة، يبقى حيناً شبه مظلم. أحب حيّنا حين يكون مظلماً. فشبه الإظلام يناسبه على نحو رائع. لقد كان دائماً نقياً، والحمد لله، من أضواء "النيون" القذرة التي تجرح العيون وتلوّث السماء.

أضاف لاهب إلى مطارداته الليلية للقطط والمصابيح مطاردة الشجرة. فقد وجد أبي، مرةً بعد مرة، في طريقه إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، هذه الشجرة وقد نُزعت وأُلقيت بالقرب من باب منزلنا، مثل طفلٍ اغتُصب وقُتل. وعندها قررت جبهتنا (جبهة الصمود والتصدي) إقامة أسلاك شائكة لتحصين موقع الشجرة التي بدأت حينها تنمو حقيقةً وتعطي ظلالاً متزايدة، كثيراً من الظل قبل أن تصبح مظلةً كبيرة تحمينا من حرائق الشمس في سماء مجهدة.

رأى أزال – الذي كان هو الآخر مستغرقاً في التفكير بأمور بعيدة – الكثير من أوراق الشجر ومن النباتات المختلفة. فهل كان مستغرقاً، أثناء طوسانه، بالحدائق الرائعة ذات الحشائش الخضراء المزروعة بالزهور، وبالجداول التي تتدفق حيث تحلّق الفراشات

والعصافير متعددة الألوان؟ أكان يفكّر بأنواع النباتات الاستوائية، أم بالنخيل الباسقة على ضفاف الأنهار، أم بالطرقات المحفوفة بالورود المزهرة في كل مكان، بعيداً عن الشيخ عثمان؟ أكان يفكّر بالانعكاسات الأرضية لجنات عدن التي توجد على الرغم من الذكر المحيّر لاسم مدينتنا، عدن، بعيداً جداً عن عدننا التي لا زهور فيها. كان تمدُّن أزال فوق مستوى تمدّننا بما لا يقاس. كان أكثر جاذبيةً من أطفال حينا. يتصرف دائماً بهدوء، وبودّ، وبطيبة وأدب مميزين. وكان لون عينيه أصفى من ألوان عيوننا، وبشرته أصفى من بشرتنا. وكان يتحدث بلكنة خفيفة غير محددة. كان بالنسبة لي سفير العالم الخارجي الذي يبتدئ فيما وراء البحر الواسع حول عدن. أحببت كثيراً ما كان يقصّ عليّ من قصص عاشتها أسرته. وشيئاً فشيئاً بدأتُ أعرف أذواقهم وذكرياتهم. وأدهشتني حياة هؤلاء المقتلَعين، اتّساع ماضيهم وتعبيراتهم ونظراتهم، وعري ماضينا وضيق عباراتنا ونظراتنا، وبيّنت لي إلى أي حدّ كانت قبيلتنا نقية وبلا قيمة في الوقت نفسه.

توقفت ابتهال منذ بضعة أسابيع عن التنزّه في المدينة. فوفقاً للقواعد المقدّسة لضوابطنا الاجتماعية، لم تعد في سنّ تسمح لها

بالبقاء خارج المنزل دون هدفٍ مبرّر. إذ عليها، وقد بلغت الرابعة عشرة من عمرها، أن تمرّ سرّاً وراء نافذتها، لتصبح ظلاً حتى تتجنّب أن تكون مشاهَدة. وكانت سنّي خمس عشرة سنة وبضعة أشهر، وهي تماماً السنّ الشرعي لصائدي الظلال، التائقين لأسره ليل نهار، بقلبٍ مرتعش. وكانت اللحظة الوحيدة التي تعبر فيها ابتهال حيَّنا لحظة عودتها من المدرسة. كم كانت خطوتها مختلفة عن خطوات البنات في سنّها! لم تتعلّم المشي في اتجاهٍ مستقيم، منقبضة، وعيناها مركّزتان على قدميها. كانت تتخطّر، وتنظر إلى اليمين وإلى الشمال، برقّة كما لو تركت جسدها النحيل الناعم ينخطف بأنغام موسيقى غير مسموعة. وأحياناً تنفجر بضحكات مجنونة. كانت تحب الضحك دون امتناع. من الواضح أنها لم تكن تتمسك كثيراً بالقواعد الصارمة التي تقيّد حياتنا. كان جلدها مسكوناً بالحرية. وكان الضحك يسكن عينين تطردان أية صرامة. كنت أترقّب عودتها من المدرسة كل يوم لأشاهدها سراً بقلبٍ يضطرب. لم تُتَح لي فرصة الحديث إليها إلاّ مرتين حين لم يعد بإمكانها الخروج غالبا. أولاهما في دكان سيف الأعمى الواقع في طرف حيّنا حين أرسلتني أمي لأشتري سمناً وطحيناً. كانت ابتهال

الزبونة الوحيدة حين وصلت. وكنت أحب شراء المحتاجات عند سيف العجوز. كما كنت أحب مشاهدة هذا الرجل الذي ولد أعمى، بوجهه الجميل الجذاب. هذا الرجل الذي اشتركتُ معه في لقب "الأعمى". لكن الحظ حالفه، إذا جاز لي القول، ليحمل عماه بجدارة منذ الولادة. أعجبت بأصابعه القادرة على المعرفة، وأحببت كثيراً مشاهدتها تتلاعب بالأشياء في دكانه، وتتلمّسها، وتحسّ بها، وتسمعها، وتداعبها، حتى ولو ضربتني هذه الأصابع في إحدى الأيام بكلاّبٍ مزدوج، ولو دون قصد! لم يكن سيف من ضربني بذلك الكَلاّب، بل أخو عدنان الذي لم أعد أكلّمه، حين كان في جماعة من الزملاء بالقرب من دكان سيف، حين مررت بالقرب منهم. كانوا جميعاً يتحدثون عن براعة أصابع سيف الأعمى، وعن حلاقته المتقنة لذقنه، وامتدحوا قوة بصيرته حين قال أخو عدنان بصوتٍ عال: "لأصابع الأعمى قوة إبصار زرقاء اليمامة" أمام عيون داعرة لجمهور كثير الهزل.

تحدثتُ إلى ابتهال وهي تستعدّ لمغادرة الدكان في حين كان سيف يضع على إحدى كفتَي الميزان النحاسي بضعة أحجار لمعادلة الإناء الرصاصي الذي أحضرتُه لأضع فيه السمن، ويضع

على الكفّة الأخرى من ميزانه قطعة حديد وزن نصف رطل، ويملأ الإناء بالسمن الطري المعطّر ملعقةً بعد ملعقة، ويضع يده تحت الميزان ليلتقط اللحظة التي توشك عندها الملعقة الأخيرة أن توازن كفتي الميزان، وكان يحضر لي مخروطين كبيرين من أوراق الصحف، ويضع رطلين من الطحين في المخروطين اللذين صنعهما من الورق ووضعهما في الكفة نفسها من الميزان، ويلمس بانتباه ورقة النقود التي أعطيته إياها ليجد أنها ورقة خمسة دراهم، ويضعها في جيب الحزام الذي يثبت الفوطة إلى وسطه، وليعيد لي من هذا الجيب ثلاث قطع نقدية كلٌّ منها درهم.

سألتُ ابتهال ما إذا كانت قد لاقت صعوبة في الدراسة باللغة الإنجليزية، في مدرستها، في تنزانيا. فقالت لا، لأنها بدأت تتعلّم الإنجليزية منذ الصف الأول. سألتها ما إذا كانت قد شاهدت أفيالاً في أفريقيا، فردّتْ بالنفي أيضاً. وسألتها ما إذا شاهدت هناك نموراً، فردّت بالنفي. وسألتها ما إذا كانت قد زارت منذ وصولها إلى عدن الحدائق الجميلة بالقرب من لحج على بعد ساعة من الشيخ عثمان، فقالت إن عائلتها تفكّر في إمضاء يوم هناك، في أحد أيام الجمعة. ثم سألتها إذا كانت قد رأت بالقرب من التواهي (أحد أحياء عدن

السبعة) الشواطئ الجميلة: جولدمور، وساحل العشاق، وساحل الباخرة الغارقة التي ما زال حطامها مشاهداً هناك حيث تستطيع تسلّق درج طويل محفور في الجبل المجاور، للتمتّع بمشاهدة المناظر المذهلة، بدورة ٣٦٠ درجة حول عدن، أرخبيلها وزرقتها، ثم هبوط الدرج من الجهة الأخرى للجبل، إلى الصهاريج القديمة في كريتر. وستكون من هناك على بعد كيلومترين على الأقل من ميناء الصيادين الصغير الجميل في صيرة، بجانب جبل صيرة الصغير الغريب، حيث اختبأ قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل. قاطعتني ابتهال قبل أن أستطيع أن أصف لها جلال غروب الشمس في صيرة. اقترب أحد الزبائن من باب الدكان، ومن غير اللائق أن يخوض كائنان من جنسين مختلفين، ولهما هذه السنّ، في محادثة بهذه الجرأة. قالت إن عائلتها تنوي الذهاب إلى التواهي بعد ظهر يوم الجمعة التالية. ولم أفكّر ليلتها إلا في شيء واحد: أن أقبّل خديها الأبيضين النضرين، وعينيها الواسعتين الخضراوين الصافيتين الحالمتين، وصوتها الرقيق، وشفتيها السحريتين. أن أقبّل تلك الشفتين الاستثنائيتين... تراقصت الأحلام بحرية في رأسي.

وكانت المرة الثانية التي أتحدث فيها مع ابتهال عند سيف الأعمى أيضاً (أيمكن أن يكون غير ذلك؟) بعد بضع شهور. أرسلتني أمي لأشتري رطلاً من الشاي وخمسة أرطال من السكر. وكانت ابتهال هناك وحيدة. وكنت أحمل منذ يومين كيساً من العنب الرازقي اخترته بعناية من الصندوق الذي أهداه عمي القادم من صنعاء لعائلتنا. وزّعت منه بشيءٍ من المباهاة على أعزّ زملائي. ألحّت عليّ رغبةٌ منذ وصول العنب أن أقدّم العنقودين الكبيرين الكثيفين لابتهال. سألتها عن رأيها الآن في حيّنا، بعد أن عاشت فيه بضعة شهور. قالت إن جيرانها طيبون، وإنها تحب أختي بلقيس التي تتسلّى كثيراً معها في المدرسة. وقبل أن أواصل أسئلتي المعدّة منذ أسابيع أخرجتُ من حقيبة يدي العنقودين المختارين. لم تعد أسواق عدن تعرف العنب. أكلت ابتهال ثلاث حبات متلاحمة وجدتها شديدة الحلاوة. تطلّعتُ في أسنانها الجميلة، الشديدة البياض والتناسق، تقضم العنب، وتأملتُ كثيراً شفتيها، وعينيها. كان لعينيها بريق يقول إنها أحبّت العنب كثيراً. تقول أغنية عدنية ما معناه "يا بائعين العنب للغيد تهدونه". على أي حال، إن تناسق صورة فتاة جميلة تأكل العنب، وهو تناسق لا يكون نتاج صدفة، يكفي في نظر

الرديني العجوز الذي اكتفى بهذه الصورة ليبرهن على عدم عبثية الحياة، وعلى وجود الإله. كان هذا الرديني العجوز يمضي ساعتين كل مساء قبل أن ينام تحت سماء شارع النصر، يعرض ذكرياته (المبالغ فيها غالباً) وأفكاره (الغريبة عموماً) أمام جماعة من الشباب المهتمين دائماً.

كان لأختي الصغيرة ميادة من العمر ثلاث سنوات حين كانت عائلتي تلتهم هذا العنب الذي أهداه لنا عمي. لم تتذكر ميادة بعد ذلك بأربع سنوات ذلك العنب حين طرحت عليّ في يوم ما من سنة ١٩، في مدينتنا التي عصف بها قحطٌ هائل، هذا السؤال البسيط: ”ما هو عنقود العنب؟“ ولم أكن حينها، كما هو شأني دائماً، أحب التوضيح برسم المخططات، لأنّي لم أكن مختلفاً عن اليوم في قلة موهبتي في رسم المخططات. ولم يسعفني القاموس كثيراً. فقد عرّف عنقود العنب على نحو غريب وغير مكتمل قائلاً إنه ”تجمّع من حبات عنب متراصة محمولة على سويقة مدرّجة على محور مشترك...“. وبعد تفكير طويل قلت لميادة: ”سأشرح لك أولاً ما هي حبة العنب قبل أن أصف لك ما هو عنقود العنب. العنب فاكهة حلوة المذاق ذات لون أسود أو أخضر. ولكل حبة عنب شكل مدوّر.

وحجمها مثل حجم حبة 'الفترية[10]' تقريباً... وعنقود العنب مثل شجرة صغيرة (ليست أكبر من رأسك) كل ورقة فيه تمثّل حبة عنب"، هكذا أضفت وقد تعبت من محاولة صياغة تعاريف أمام ميادة المرهقة من التخيل. وحاولت التبسيط لأسهل على أختي الصغيرة فهم هذا التعريف العجيب فقلت: "عنقود العنب يشبه عنقوداً من البالونات المربوطة بعقدة". قاطعتني ميادة قائلة: "ما هو عنقود البالونات؟". صحيح أن البالونات لم تعد معروفة لجيل ميادة. تذكرت حينها بارتياح عدداً من المجلة المصرية للرسوم المتحركة للأطفال **سمير** حيث يوجد في الصفحة الأولى رسم لعنقود بالونات. كان عدداً بعنوان "سمير في عيد رمضان"، صدر قبل تنقيتنا أيديولوجياً من جميع الصحف غير الاشتراكية العلمية، وفقاً لمصطلحات تلك الفترة. أشرت لميادة (التي أصبحت فيما بعد متفوقة في الهندسة الإقليدية، ربما بفضل التمارين المفروضة في طفولتها للتفكير بالأشكال المجردة) إلى رسم عنقود البالونات متسائلاً حول دقة الفكرة التقريبية التي كونتها عن عنقود العنب.

10 الفترية: كرة زجاجية ملونة صغيرة.

سألتُ ابتهال وهي تلتهم العنب اللذيذ عند سيف الأعمى: كيف وجدت شواطئ عدن؟ قالت إنها جميلة رائعة وأنها أحبت التواهي كثيراً، وأنها التهمت في مكان بالقرب منه قطعة آيس كريم لذيذة قبل أن تترك محل بيع الآيس كريم دون أن تدفع. دعاها بائع الآيس كريم قائلاً:

– هكذا يا فتاة تؤممين الآيس كريم؟

– عفواً نسيت أن أدفع.

أجابت ابتهال التي كانت لا تزال تشعر بالعطش. دفعت قيمة الآيس كريم وطلبت كأساً كبيرة من الماء. أعطاها البائع الماء مع قطعتي ثلج كبيرتين. شربت ببلعات كبيرة قبل أن تسأل عن قيمة كأس الماء. أجاب البائع:

– الماء عندي مجاناً. إنه بمعنى ما "قسم الدعاية والتحريض".

ضحكت ابتهال وهي تحدثني بالقصة. ضحكت وشعشعت في الوقت نفسه. لمعت في عينيها بحيرتان من زمرّد تأمّلته بروحي كلها. كان كل ما لديّ من قوة إدراك مجنّد لكي التقط كل ملامح وجهها الضاحك بحرية، وكل ذرات هذه اللحظة التي سأستعيدها

فيما بعد مليارات المرات لكي أحفظها في التلافيف الحميمة لدماغي.

ذهبت في زياراتي اللاحقة إلى التواهي عند هذا البائع للآيس كريم وللكلمات والمرح؛ نفس المرح الذي أدخل السرور على ابتهال. يقع دكانه على بعد عشرات الأمتار من مقر اللجنة المركزية المشهور، أمام قسمها الخاص "بالدعاية والتحريض". أستمتع بالآيس كريم هناك في بطء، وخشوع، بكاسات الماء ذات قطع الثلج الكبيرة، وأبقى هناك وقتاً طويلاً أستعيد فيه الاستمتاع بحضور ابتهال في المكان، سعيداً بمشاركتها الهواء نفسه الذي استنشقته ذات يوم، والماء الذي شربت منه، والنور الذي غمرها. لا شيء في عدن يعادل لذة الاستمتاع بتدفق الماء البارد المثلج. ننتشي بالماء المثلج طوال النهار في عدن. يسكرنا الضحك أيضاً. ونحبّ الليل على نحو لا شفاء منه. ولو كان لكل مدينة ثالوثها المقدس لكان ثالوث عدن المقدس: الماء البارد، والضحك، والليل.

الفصل الثاني

أدركت ذات يوم أن تلك الابتسامة التي تنطلق من المنزل رقم ٣٠، من شارع النصر، تثبت أنها لي أنا. بعثها هذا الوجه الحالم الذي أتقن الله صنعه في إبداع، وجه يرسل لي هذه البسمة القاتلة. أهي ليلة قدر متمردة مغلوطة متأخرة بضعة شهور؟ لا أدري. لكنني عرفت أن شيئاً ما يأتي من ابتهال، من شفتيها، يطهّرني تماماً. اضطرب قلبي المسكين من الفرح فخفق بقوة.

ويجب أن أوضح أنه انطلاقاً من هذه البسمة بدأت حقيقة أحب شارع النصر والأرقام الأولية، وأصبحت شمس هذا الشارع الحارة عندي أمراً عادياً. يكفي أن أتأمل نافذة لأتزوّد بهواء نقي يحوّل حيّنا قطعةً من الجنة: إنها نافذة المنزل رقم ٣٧٣. لاحظوا أنه رقم متماثل في اتزان، جميل وأنيق، رقم فردي جداً، رقم أولي. أحببت بوله هذا الرقم الأولي، الرابع والسبعين، أو بالأحرى هذا الرقم الأولي الثالث والسبعين، وقد قررت، كما كانت أمي ستفعل بلا شك، أن خلع الرقم ٢ – هذا النفي المبتذل للرقم واحد، إبليس الأرقام الأولية – من ملكوت الأرقام الأوّلية.

بدت لي الشيخ عثمان واحة لجميع أشكال السعادة، مكاناً مقدّساً، مدينة ساحرة ذات إيقاع رومانسي. وحتى استطالتها القصوى أصبحت صنواً للطهارة والتسامي. ولم أتردد في تلك الفترة في أن أمحي من دليلي السياحي **الشيخ عثمان سنة ١٩٧٠** الفقرة التالية:

> من يعرف الشيخ عثمان يعرف تماماً أن الحزن يعيش فيها مسروراً بين أهله وذويه؛ في معقله المثالي؛ في مسقطه العمودي على كوكبنا، وسينتج من ذلك أنه إذا كان للحزن شكلٌ هندسي فسيكون مستطيلاً تماماً، وسيستنتج أيضاً (إذا كان لاستنتاجاته نزوع نحو الرومانسية) أن الحزن والشيخ عثمان يشكلان ثنائياً مثالياً مختوماً إلى الأبد بحبٍّ عميق مستطيل.

مزّقتُ بخاصة إجابة السؤال المتعلق بـ"الجلّي" الذي "يفصل" بين أحياء الشيخ عثمان، وهو ممر مستطيل لمياه المجاري يسمّى "جلّي" يفصل الردهات الخلفية للأحياء المتجاورة. فهل يفصل بينها حقاً؟ وكانت الإجابة التي وجدتها فجأةً كاريكاتورية على نحوٍ مبالغ، إن لم تخنّي الذاكرة، على النحو التالي:

> غرفة المطبخ في الشيخ عثمان غرفة كريهة، مظلمة، شديدة الرطوبة، مفصولة عن "الجلّي" بسورٍ هشّ. وكل مطبخ أكثر من كابوس. ولو لم يكن الأكل ضرورة لن يقترب أحد من هذا المتحف المرعب، ولن يعجب بهذا المتحف سوى مليار من الصراصير، ومثله من السحليات، ومثل ذلك من الفئران. كلها تعيش في "الجلّي"، تصل إليه بسرعة مخترقةً أنبوباً طوله مترٌ واحد، يربط المطبخ بـ"الجلّي". إنهم أمراء هذه الأنابيب،

والسادة غير المنازَعين على السائل الأسود اللزج المتجمّع من حولها. وتحت نظراتهم الراضية تعبر المياه القذرة تلك الأنابيب في الاتجاهين ممتزجةً بالخليط الوبيء الآتي من "الجلّي"، فتربط بانتظام بين المنازل، وتحفظ للشيخ عثمان اتّساق أسلوبها.

وسأمارس الرقابة للسبب ذاته ودون ذرّة تردّد على الفقرات التالية من الدليل:

يوجد في كل حمام في منازل الشيخ عثمان مكعّب مجوّف من الأسمنت سعته متر مكعب، يسمى "النقرة"، ملصَق بالجدار الذي يؤدي إلى "الجلّي". وداخل كل نقرة يوجد النصف الأسفل من تنكة، ذات قاعدة مستطيلة. وفي وسط السطح الأعلى لكل نقرة توجد ثغرة صغيرة – مستطيلة على نحو منطقي وعملي – مقابل التنكة. وطبعاً توجد في كل نقرة إمبراطورية من الصراصير والذباب، تعيش في هدوء. وليس بعيداً عن باب "الجلّي" – الذي نقاء استطالته يصدم العين – ثمة ثغرة كبيرة في الأرض، ذات قاعدة مستطيلة بدقة، تسمّى "كدافة"، معدّة لاستقبال القمامة. ويأتي كل صباح أناس سود البشرة يقال إنهم من أصل حبشي، هم عمال النظافة (كانوا قبل الثورة يُسمَّون "أخدام")، يعبرون أنهار القذارة في "الجلّي"، ليصلوا (عبر فتحة مستطيلة أسفل جدار الحمامات) إلى أنصاف التنكات الموضوعة في النُّقَر، لإفراغ المخلّفات منها، ثم يحاولون أن يزيلوا بمجارف ودلاء بعض أجزاء، من هنا أو هناك، من جبال القذارة في "الكدّافات".

أعلنتْ ابتسامة ابتهال في عيوني إعادة الاعتبار للغبار، وعبادة آلهة الغبار، وأعطتني القناعة بأن "إرم"، تلك الجنة الأرضية

القديمة، مدينة قديمة مطمورة تحت ”أكواد“ الشيخ عثمان. كنا على الأقل عاشقَين اثنين في عائلتي؛ أبي وأنا. وقد أصابتنا بشدة ”سهام الحب“ حسب العبارة القديمة. هو الذي ذاب في حب امرأة سماوية، هي الجوهر الإلهي، تلك التي شغفته فاتّقدت قصائده. أما حبي أنا فكان أرضياً ومع ذلك صعب المنال. فكيف أدنو منه؟ بأية خطوة ينبغي أن أبدأ طريق الألف ميل وميل التي تفصل شخصين من جنسين مختلفين؟ وبأي حساب مغامر يجب أن أشرع في العمل لأقترب من وجهها؟ أيمكن أن نفصل الحب هنا عن العذاب؟ أليسا وجهين للشعور نفسه كما تقول جميع أغانينا؟

لم يكن الحساب الذي قرّبني من ابتهال فعلاً من أفعال خيالي. لم أكن قط موهوباً بما يكفي لأعثر في هذه المتاهة المزروعة بالشوك على طريق الخروج ليوصلني إلى أن أقول لها كم أحبها وأعبدها. كان عند ابتهال من المواهب أكثر مما عندي. فقد أرسلت ذات يوم مارب، ابن أختها، لتطلب من صديقتها، أختي بلقيس، أن تتوسّط لديّ لأعيرها دفتري لمادة الجغرافيا للسنة الماضية. كان عمري يزيد بسنة عن عمر ابتهال، ولم يصدم هذا الطلب (النسوي) أي إنسان، أو على الأقل هذا ما اعتقدته. فقد احترم، في حدود معرفتي،

على قنواتنا للاتصال الواقعة على الأرجح في الأرض الخلاء على التماس بين ما هو مسموح وما هو ممنوع، أقرب إلى محيط الممنوع. أوشكت أن أرتكب خطأ لا يغتفر بإعطاء الدفتر لمارب في الحال. ولحسن الحظ طلبت منه قبل ذلك أن يعود في اليوم التالي، بحجة أنني احتاج إلى وقت أستعيد فيه الدفتر من زميلٍ آخر أعرته له. لحسن الحظ لم أستعجل هذه المرة.

اشتريت ذلك المساء أجمل دفتر في المدينة، وأجمل قلم، وأجمل أقلام رصاص ملونة، وقضيت الليل كله أنسخ ببطء شديد دفتر الجغرافيا الخاص بي، وأعيد رسم كل شيء، في صورة نظيفة. بدا كل شيء جميلاً ومنظماً على نحوٍ استثنائي. كانت أول مرة أواظب فيها بتفانٍ على رسم الخرائط. كان قلبي يخفق عند رسم البلدان التي عاشت فيها ابتهال. ولوّنتُها وحدها باللون الأحمر. راودتني رغبة بأن أكتب تصريحَ حبٍّ في الساعة الرابعة صباحاً، ليس بعيداً عن أبي الذي كان في الوقت نفسه يؤدي صلوات التسابيح الطويلة، ويتهجّد في تلك الساعات من الليل، في الممر المحاذي لغرفتي، في هدوء الليل وسكينته العميقة. كان أبي في غيهب الليل الجميل المزيّن بالنجوم يهمس في صلواته كما يفعل كل ليلة، في حبٍّ،

ووله، وانسجام. استمعت إلى السور تُتلى بعذوبة، وإلى حلاوة صوته الصادق النقي. انهمكت في كتابة رسالتي، وواصلت الاستماع، بانتباهٍ شديد، إلى الموجات المتطفلة الصادرة عمّن أحببت دائماً الاستماع إليه يرتّل آيات القرآن، يقرأ أو ينشد أو يذوب، حتى ولو سادت بيننا لغة التجاهل وعدم الفهم، حتى ولو وجدنا أنفسنا على طرفي نقيض من ملكة مقطوعة إلى نصفين. ثم طردته بسرعة من ذهني لأركّز على هذه الرسالة التي ستنعش بهوائها جميع الزوايا المتعفنة في رأسي.

اهتزّ ضوء قنديل غرفتي من الحبور في تلك الليلة، وفي السقف بدا لي الدهان الزيتي المصفرّ على الألواح الخشبية مضيئاً على نحو بهيج، متواطئاً وسعيداً ومسترخياً. وبدا لي دهان غرفتي الأبيض، في تلك الليلة، أنيقاً وصافياً. وفي تلك الليلة بدت النوافذ الثلاث المفتوحة دائماً فائقة الأناقة، وكان زجاجها مزيناً أكثر من أي وقت مضى، في رصانة وذكاء. وفي مقابل نوافذي، كانت المدينة تنام عارية. وكانت الشيخ عثمان ثملة من النوم والراحة، تداعبها نسمات الليل العليلة الباردة، فتشبه فتاة جميلة كسولة متعطّشة للرقة والحب.

رنا إلى مسمعي في غرفتي صوت خفيض، شديد العذوبة، صادر من أعماق نفس مضطرمة بالحب. استمعت إلى ذلك الصوت ينشد للحلاج لحناً يفيض بالعاطفة:

لبيك، لبيك، يا سرّي ونجوائي

لبيك، لبيك يا قصدي ومعنائي

يا عين عين وجودي يا مدى هممي
يا منطقي وعباراتي وإيمائي

يا كلّ كلّي، ويا سمعي ويا بصري

يا جملتي وتباعيضي وأجزائي

تصورتُ، في انفعالي الشديد، ابتهال تجلس هناك على البلاط الأسود المزيّن ببقع بيضاء في شكل غيمات، مستندة إلى جدار غرفتي، مبللة في ضوئها الأبيض، أمامي، في تلك الساعة المتأخرة من الليل، بالقرب من دفتر الجغرافيا الذي أعدتُ كتابته كاملاً. تصورتُ نفسي قريباً من عينيها اللتين أطيل النظر إليهما، ومن فمها أقبّله دون توقف، ومن أنفاسها التي أستنشقها بعمق. لم تكن بي

رغبة تلك الليلة لا في تأمل النجوم ولا في ارتيادها. وتراجعت حتى كوكبة الأسئلة التي عادةً ما تسكنني وأنا أتصفّح السماء في الليل: من أين جاء الكون؟ من خلقه؟ من خلق خالقه؟ هل هناك عدد لا نهائي من النجوم أم أن عددها محدود؟ ما هو الشكل الهندسي لهذا الكون؟ دائري؟ أم مستطيل؟ أم غير منتظم؟ أللكون غلاف خارجي؟ ماذا وراء هذا الغلاف؟ الجنة والنار وعرش الله؟ الفراغ؟ العدم؟ ما هو العدم؟... أسئلة أخرى عادية استولت عليّ في تلك الليلة: أينبغي حقاً أن أكتب رسالتي؟ أية فضيحة ستثير؟ ماذا ستقول ابتهال؟ أستجدني مغرماً أم وقحاً؟ مجنوناً أم غبياً؟...

"مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة"، هكذا يقول مثل سائر شجاع أحبه كثيراً، رددته دون انقطاع في تلك الليلة. كانت خطوتي الأولى تحديداً هذه الرسالة التي ينبغي أن أكتبها هذه الليلة. قلت لنفسي: "بدونها ستقبر مغامرتي قبل أن تولد". ثم في أثناء النقاش الصاخب مع نفسي اضطربت يدي على ورقة، وتلعثم قلمي، ونظرت عيناي المذعورتان نحو باب الغرفة كما لو كانت الإنسانية كلها ستفاجئني متلبّساً بالجرم المشهود. (أعظم لحظة في الحياة، وبما لا يقاس، هي تلك اللحظة التي تفتك حبّاً بقلبٍ يضطرب). حشرت رسالتي بين

غلاف دفتري والغلاف الخارجي الجميل الذي أضفته، وفي اليوم التالي أعطيت الدفتر لمارب عند خروجه من المدرسة. ودار برأسي سؤال وحيد: أستكتشف هذه الرسالة المحشورة بين غلافَي الدفتر؟

ولاحقاً أعدت قراءة مسوّدة الرسالة فوجدتها هذراً، نصفها معقّد والنصف الآخر عبارات رنّانة طنانة. وأحياناً تنقل مباشرةً من أبيات الشعر الذي ينشده أبي (على أي حال، لم أدرك أبداً الفرق بين الشعر الصوفي وشعر الغزل. ألم "يؤمِّم" الشعر الصوفي شعر الغزل، كما فعل ابن الفارض في القرن الثالث عشر الميلادي؟ شعرت بالخجل لاستعارة جملتين أو ثلاث من "مرشد المراسلات الغرامية" القديم الذي يعود تاريخه إلى مرحلة انحطاط الأدب العربي، وكانت وظيفته إسعاف أشباه الأميين في تلك الحقبة. كنت قليل الرضى عن نفسي. انتظرت بقلق عودة الدفتر لأعرف ما إن كانت ابتهال قد اكتشفت رسالتي وما إن كانت قد أجابتني بشكل إيجابي أم أنها وضعتني إلى الأبد في متحف كبار الأغبياء.

كان من الصعب عليّ دائماً فهم لماذا لم أذهب إلى عدنان لأعرض عليه قلقي، واضطراب نفسي التي غيّرتها ابتهال وحوّلتها

إلى شعلة ملتهبة. ولماذا ترددتُ ثم تخلّيتُ عن أن أخبره بقصة الابتسامة، وقصة العنب، وقصة الرسالة، مع أنني كنت دائماً معجباً بعدنان وبذكائه الذي لا مثيل له، وغير الطبيعي. فقد كنا أنا وعدنان نحدّث بعضنا بعضاً بكل شيء.

بدأ عدنان يُستثار في هذه الفترة من الحياة في عدن، واختلف مع الكثير من الناس، وأصبح ينام قليلاً في الليل، ودخل في نزاع مع والديه بحيث لم تعد توجد أية وسيلة للتفاهم بينه وبينهما، وبدا لي أن اندماجه بحياتنا قد أصبح منذئذٍ غير قابل للحل نهائياً. كان يقرأ (كما سبق أن قلت) عشرة أضعاف ما نقرأ، ويفهم بسرعة تزيد عشرة أضعاف عن سرعة فهمنا، ويعيش في عالم غير الذي نعيش فيه، ويتكلم لغة غير التي نتحدث بها. يتساءل دون انقطاع. كان في هذه النقطة نقيض أبي، ومع ذلك كان الوحيد من بين زملائي من أثار اهتمام أبي. كانا يتبادلان التقدير مع أن عدنان لم يضع قدماً في مسجد. فكيف يمكن تفسير هذا؟ وأخيراً كان عدنان يعرف قول "لا" كبيرة دون اعتدال. بإيجاز، كان من طينة قُدِّر لها التأثير في حياة الآخرين. ولكي ينسى أحياناً مأساته التي تلازمه، أطلق لنفسه العنان في لعب الشطرنج، فأصبح في تلك الفترة، ونحن ندخل السنة

السادسة عشرة من عمرنا، بطل الشطرنج في اليمن الجنوبي. وكنت شديد الفخر بأن أكون أقدم وأكبر زميل لهذا البطل، الذي أصبح دخوله إلى مقهى الشهداء قبيل الظهر من كل يوم في تلك الفترة لحظة مهمة من لحظات اليوم. ينتظره المعجبون بقلق. فقد كان يهزم الجميع بسهولة. وكان ينظّم مباريات عديدة متزامنة يلعب فيها منفرداً ويفوز بها دون صعوبات. وكان يلعب أحياناً باللمس دون مشاهدة في حين كان لمنافسيه في اللعب حق مشاهدة رقعة الشطرنج. وحتى لو لعب مديراً ظهره لرقعة الشطرنج يفوز بالمباراة. وقرّر صاحب مقهى الشهداء أن يكون عدنان ضيفه الدائم، ولم يسمح له بدفع ثمن فناجين الشاي التي يتناولها. وكان ينبغي الوصول مبكراً للحصول على مكان في المقهى المكتظ بالزبائن آنذاك. لم يكن قبل ذلك "الكتلي"[11] الأزرق المائل إلى السواد يغلي هذا القدر من الشاي الذي يجتذب الزبائن. ولم يجرِ الإلحاح من قبل على موقده التنكي الكبير ذي القاعدة المستطيلة والممتلئ بالجمر.

11 الكتلي: الإبريق (باللهجة المحلية).

تنزل فناجين الشاي على نحوٍ متواصل، وتسقط البيادق على رقعة الشطرنج، ويتم استعراض مسائل شطرنج أمام رواد المقهى الدائمين؛ بعضها تقليدية وبعضها الآخر ابتكره عدنان. تفوز في بعضها الأحجار السود بنقلاتٍ ثلاث، في حين تفوز الأحجار البيض بأربع. ويستمتع الجميع، وتسخن الأدمغة جميعها باستثناء أحدها كان شبه مشغول. وهذا ما زاد تأثري. كان عليه أن يشغل الجزء الآخر من دماغه بتصفّح مجموعة شعرية بأناة في حين كنا منشغلين بالتفكير في حلّ مسائل الشطرنج والعيون مركّزة على حلبات القتال ذات الأربعة وستين مربعاً. وكنت قد انقطعت عن لعب الشطرنج منذ حوالي سنة ونصف، وبالتحديد منذ كارثة المباراة مع شكيب في المقهى نفسه، على هذا الكرسي الأول من الجانب الأيسر للباب الرئيسي. وفي كل الأحوال كان باستطاعة عدنان التغلّب عليّ في كل مباراة بسرعة دون أن ينظر إلى رقعة الشطرنج في كل نقلة. ولم أفعل سوى استراق النظر إليه وهو يقرأ القصائد دون أن أعرف ما إذا كان يحتاج إلى قراءة أبيات الشعر ليزيد التركيز على لعب الشطرنج أم أنه يفعل ذلك ليعرّي عجزنا وعدم قدرتنا على تعبئة جميع طاقات دماغه، وعن أن نوظّف

عصارة ذكائه (أعجبت بهذا التوازن الشعري الرياضي في دماغه. ولم أعجب قط بشيء قدر إعجابي بذلك). لم أعرف ما إذا كان الشعر يحمل دماغه إلى ذروة إبداعه لتطلق كل خلية عصبية فيه طاقتها القصوى، مداعباً كل خلية ملتهبة من خلايا دماغه المتشظّي بتيار أحلام وظلال وعنبر ومسطكي، أم أن الشطرنج قد جعل ملكته الشعرية في حالة من الحساسية المشتعلة المبتكرة، مانحةً إياه نظراتٍ رائية، ولغةً حية متحركة، وانعتاقَ تناسقٍ سماوي. لكنني كنت أعرف أن الانسجام المنطقي الفنِّي لدى عدنان قد سحرني أكثر من أي شيء آخر.

ولكي يهرب من مأساته الأصلية، كان يكتب كثيراً. وكان أكبر أحلامه أن يكتب رواية يتبعها بروايات أخرى، وكان قادراً على ذلك تماماً. كانت الكلمات تنساب بكثافة من فمه كما ينساب النهر. تخرج عمودية من نفسه، طازجة وحقّة، خيالية، وفصيحة. دون ألم ولا اشمئزاز. دون جهد ولا تفكير. طبيعية جداً. إنها خلايا قلبه وقد تحولت كلمات. وغالباً ما كنّا نقول: "سنستمع إليه حتى نهاية الليل". بدا لنا أن كلَّ قصة قصيرة جديدة يكتبها وهو لا يزال شاباً حدثاً، ويصوغها بأسلوب لطيف على نحو مفرط، ومبالغ على نحو

لطيف في الوقت نفسه، ذات رائحة غريبة، رائحة أفكاره المبدعة بلا انقطاع. فتغرينا وتأخذنا بعيداً عن غبار يتساقط كالمطر على حياتنا، ليغطّي الشوارع والعيون والأسنان والكلمات وابتسامات الأطفال. كنا نرى في كتاباته ضحكة الكلمات ونحيبها. وكنا نرى الكلمات تستمتع وتبكي. وسواء أكانت محجوبة أم شفافة فقد كانت جميعها راضية بأن تكون هناك في مكانها، سعيدة بأن تكون لها سماتها الأبرز، وألوانها الفريدة، وأهميتها القصوى. كما لو كانت قيم المتغيرات الرمزية التي تجعل الوظيفة الأدبية البارزة تبلغ ذروتها، وترسم نيتها الشاملة و"جمالها الأثيري" رسوماً بيانية حية، مدهشة، آسرة، تربط النقاط الرئيسية في كتاباته، مثل متولدات رياضية جميلة وبارعة. كانت تذوب جميعها، سواء أكانت رسوماً بيانية أم لولبية، متعددة الحدود الجبرية أم ذات شكل بيضوي، لتكوّن لوحة جدارية رائعة تغسل قلوبنا بكلماتها وصورها وخيالها ببساطة وسعادة.

كان يحلم بكتابة رواية تثير العواطف، وتزعج، وتفرح، وتُحزن. يقرأنها معاً فتيات يستمتعن بقضاء وقت فراغهن على الشواطئ وعليهن القليل من الثياب، وأناس مسنّون مطمورون وسط أرائكهم،

بعواطف قوية توحّدهم. إحدى هذه الروايات التي تؤدي إلى نسيان الأمواج، والنوم، والبرد، والطقس الجميل والطقس الرديء، تؤدي أيضاً إلى تثليج الكثير من فناجين الشاي، وإحراق الكثير من الأطباق المطبوخة.

كان عدنان يحدّثني عن خلافاته مع أسرته ويحكي لي قصصه الأكثر حميمية. كان في تلك الأيام يأتي من آن لآخر بفتيات – "شبه بائعات هوى" كما يقول البعض – إلى سطح منزل أحد أقاربه في التواهي، في وقت لا يكون هناك أحد. من المؤكد أنه كان متقدماً علينا في كل المجالات. وشرح لي أيضاً كيف يحصل من صيدلي بطريقة غير شرعية على أقراص منومة، "فاليوم" بخاصة. وكان لديّ اعتقاد بأن عدنان حين يستلقي على سريره يدور ويدور بلا انقطاع. يتحاور مع نفسه في حالة إبداع وهو نائم، أو يكون مستغرقاً في حالة موت بطيء: ظننت أنه حين يستلقي على جانبه الأيمن يخترع معادلات ومسائل شطرنج، ويستبدل متغيرات بغيرها، ويحلّ المعادلات. أما حين يستلقي على جانبه الأيسر فإنه يستسلم لحوريات الشعر، يداعب الشفاه، ويبتكر الصور، ويمزج الكلمات والرغبات والأحلام. وحين يستلقي على ظهره يتكلم اللغات

المتعددة لما فوق البشر. تلك الأكثر إفصاحاً وبعداً. لغة الشعر الجبرية. لغة البراهين الشعرية. أما حين يكون مستلقياً على بطنه فإنه يغوص في إحباطاته المأساوية، في جحيم العزلة. وإن لم يحدثني عن مشاكله العائلية أو عن بداية دماره الذاتي جسدياً، فذلك لأنه مستغرق في الحديث عن شقائنا الجماعي؛ شقاء مجتمع منقسم، فقير، منغلق في الشمال بإصرار عجيب، مستغرق في نومٍ عميق، ومستيقظ بعنف مفرط في سخونته في الجنوب، على طريق غريب الأطوار. كان عدنان يحسّ في تلك الفترة أكثر من غيره بالمعادلة التي ستسود على هذا الطريق العجيب في السنوات اللاحقة. بدأت تلك المعادلة التي لم تشغله إلا منذ سنتين بالتعرّي أمامه. وهكذا لم تعد تثير اهتمامه ملهاتنا الجديدة، كما كان يسمّيها منذ وقتٍ قريب، وديكورنا الجديد، وأولئك المشاهدون المتمردون الذين أصبحوا ممثلين.

سرّ هذه الملهاة أنْ ليس لها سر. وكان يقول إن مؤلفيها وممثليها أميّون، وإننا مشاهدون لمسرحية يرتدي كل ممثل فيها سلسلة من الأقنعة، ويمثّل على نحوٍ يدعو للإعجاب الدور المخصّص للقناع الخارجي. وما هو رائع وغير متوقع، كما يقول، أن الممثلين

يستطيعون نزع كل قناع في الحال وارتداء القناع التالي ببراعة. ووراء هذه الأقنعة عيون المناطقية والقبلية، وأدمغة صغيرة عشائرية تغذّت بالجهل والأمية. فقناع اليوم "الاشتراكية العلمية"، كما قال عدنان. ماذا سيفعل هؤلاء الممثلون بلا أوجه، حين تسقط الأقنعة (لأنها ستسقط بلا شك، كما كان يؤكد)؟ شعراء الليبرالية المنطلقة من عقالها؟ ملوك الديمقراطية؟ أخلص صحابة "الرجعية الإقطاعية" الحاكمة في الشمال؟ (وهل سيصبح حكام الشمال يوماً ما "ثوريين" حقيقيين فيصفون هؤلاء الممثلين بأنهم "رجعيون منحرفون إمبرياليون" و"عملاء العدو التاريخي"؟) أصوليون دينيون؟ أو كل ذلك في الوقت نفسه؟ أجاب عدنان عن هذه الأسئلة قائلاً: سيمثّل ممثلونا الموهوبون جميع الأدوار. من يدري؟ وربما لمرات عديدة. ومع ذلك يكفي أن نتجنّب النسيان. يكفي مع ذلك أن لا ننسى.

لم أعرف حينها ما إذا كان عدنان قد بدأ يهذي أم أن تقدّمه عني قد زاد حتى لم أعد أفهم ما يقول. لكنني رجّحت أنه يهذي. لأن أحداً غيره لم يستطع تخمين أي شيء غير صادق في البركان الأيديولوجي اليمني الذي سمّاه عدنان "حفلة تنكّر مشؤومة". وفي

كل الأحوال، لم تقلقني قط افتراضاته المستقبلية وإن بدت لي عابثة بعض الشيء، بل ومسلية. لكنه أرعبني بحق أو أشعرني بالجوع (لأن هذين الإحساسين متساويان) حين عرض عليّ استنتاجاته المنطقية، وحين أطلعني على مخاوفه. فقد قال:

– في هذا البلد الذي لا يعاني من مرض فرط التذكّر، هذا البلد الفقير الذي تنخر فيه الأمية، وحيث تعمل القبلية لتشويه النفوس، وحيث الثأر سائد، والموت أمر عادي، أخشى أن يقتتل الناس فيما بينهم على نحو متواصل. وعندها كم ستكون جبال الجماجم التي سنراكمها؟ وكم ستكون الحروب التي سيخوضونها باسم القضايا الكبيرة؟

أجبته قائلاً:

– أنت متشائم.

فأجابني قائلاً:

– إننا في بلد يتقدم بإصرار وثبات نحو الخراب.

كان هنا يستند إلى التاريخ ليبيّن لي أننا أمام تكرار عادي لدورة الشؤم التي تتواصل في هذا البلد منذ أن لوّثت الفئران السدود القديمة، والتهمت أعمدتها، وفتّتت جدرانها، كما قال، مع فارق أن

البدو الحديثين يغزون المدن في سيارات الحزب وليس على ظهور جمال الشيخ، وأنهم أحلّوا الشعارات الأيديولوجية قليلة الإتقان محلّ الشعر الحربي، وإلاّ فما هو الفرق الأساسي بين اليوم وكل القرون السالفة التي تلت الحضارات القديمة، وهي قرون لم تنتج سوى الحروب المتواصلة، والسلطات الجاهلة والاستبدادية، والظلام، والعنف، والنزاعات؟ يعود عدنان دائماً إلى التاريخ، في حين كان التاريخ بالنسبة لنا، بفضل "ثقافتنا الجديدة"، "فكرة رجعية". سألته:

– ألا تؤمن بالتقدم، وبالعدالة التي ستسود في النهاية، وبالانتصار النهائي للحكمة؟

فغاص هنا أكثر من ذي قبل في التاريخ الميثولوجي وأمثلته البدائية، مدّعياً أن جوهر الإنسان مكثّف في أيامه الأولى، في فضول آدم ورغبته في معرفة المجهول، وفي غرور إبليس، وفي ظلم قابيل، وسماحة هابيل وصدقه. الإنسان هو هذا البحث المبدع المتواصل عن الجمال الأبدي، وهذه الرغبة النبيلة في الحصول على التفاحة المحرّمة، وهذه الغيرة المالكة، وهذا التنافس المريض. إنه يحترق بالطموح والرغبة في المعرفة. إنه جمجمة هابيل

المتفجّرة، ومَلَكة التعلّم هذه عند قابيل وهو يغطّي جثة أخيه مثل غرابٍ ينقر الأرض. وأضاف عدنان أن البقية، أي كل ما عدا ذلك، ليس إلا قائمة مركّبات من الإكسير نفسه، وليس إلا روايات كثيرة شديدة الغنى، مستمدة من الخلاصة نفسها، وليست إلا "تحولات ثابتة" للوظائف البدائية. وأضاف: إننا نقلّل من الإحاطة بقدرة الإنسان حين نعتقد أنه آلة في خدمة التقدّم، وكائن يمكن توقّع ردود فعله، وإنسان آلي محكوم بالحتمية. وإننا نبالغ في تقدير قدرته أيضاً إذا افترضنا أنه سيلعب لعبة العدالة والمساواة، وإعطاء كلٍّ بحسب حاجته. فالإنسان صعب التهذيب على نحو غير عادي، ومسكون بالغيرة وحب الذات، قاسٍ ومتلهف للسلطة والسيطرة. لكنه أيضاً حذر، وعبقري، ومتسامٍ، وجليل. وغالباً ما يكون أكثر استنارةً من أن يعيش عيشةً حيوانية.

ألقى بي عدنان بعد ذلك، بأسلوبه، على أرضيته المفضلة، أي نظرياته عن الشك، وانعدام الحتمية، والعَرَضي، والمعقّد. وقد أشعرتني هذه الأرضية بالقشعريرة. ارتعشت، أنا الذي أمضيت حياتي أقيم أنبياء أجلّهم وشياطين أستعيذ منهم، تسكرني البساطة، واليقين؛ وأفكّر وفقاً لمصطلحات عدنان بأن معادلة الحياة (إن

كانت هناك معادلة) قابلة للحلّ من خلال صلاة ابتهال جميل وسري، مدعوكة مثل قنديل سحري، مع وصفة دعاء خاشع تنبجس كسيارة إسعاف أمام أحزان طفل النفس الأبدي (وسيجد الآخرون جذر هذه المعادلة في جرعة كبيرة من الإرادة والتصميم. وسيصرّون على ضرورة التزاوج بين الملَكات الشخصية والخيارات الوجودية، وسيتّبلون المجموع بحفنة من الحظ الحسن...). ثابر عدنان عن طريق آخر نظرياته عن الاحتمالات والشك على تحطيم أحلامي الجميلة، وقتل أوهامي الحلوة ظلماً. وجدتُ عدنان هذا قاتم الحزن، وحزيناً على نحوٍ لا يُصدَّق.

يبقى القول إنني لم أجرؤ على أن أحدث صديقي المضطرب بقصتي مع ابتهال. أزعجني كثيراً أن أعرض انفعالاتي وأفراحي أمام عذابات هذا الباحث عن المعادلات قليلة الفرح، المجبول على أن يكون لاجئاً في وطنه، وعلى الحزن الدائم بسبب جريمة وحيدة: هي قدرته الكبيرة على الرؤية الثاقبة، وموهبته الفائقة في مجتمع متخلّف. صعب عليّ على نحوٍ لا يُصدَّق أن أعترف لعدنان بأنني أحب ابتهال. أكنت أستطيع في الواقع أن أصف له صفاء بحيرتَيّ الزمرُّد اللتين تنامان في عينيها، حين حدّثتني في ظلّ دكان سيف

الأعمى بقصتها مع كأس الماء بقطعتي ثلج؟ كيف أشرح له إلى أي حدّ أُجلّ العنب منذ ذلك اليوم؟ كان من المستحيل عليّ تقريباً أن أكشف لعدنان رسالة الغرام التي كتبتها عند الفجر وردَّها غير المتوقع.

أعاد لي مارب دفتر الجغرافيا بعد ثلاثة أيام، وقد حلّت ورقة محلّ رسالتي، بين الغلافين. ورقة فارغة، دون أية كلمة. ومع ذلك فقد كان هذا الردّ أكثر ما قرأت إفصاحاً. فبالنظر إلى هذه الصفحة العذراء وجدتها مخطوطة بِلُماها العذب، يحمل شفاهاً غير مرئية، معطّرة برائحةٍ خفيفة. إنها رائحة حبوب الهيل الخفيفة.

الفصل الثالث

غذّت رسالة ابتهال في داخلي بطارية مستنفدة، وبعثت فيّ مشاعر حياة فرح في أكثر المدن حزناً. فإذا بي، أنا الكائن الخامل، المتجمّد، الذي يفتقد التألق (في الشيخ عثمان الجهنمية هذه، التي تغيّر رأسها أيضاً لتصبح مصدر حماستي الملتهبة)، أستحيل كائناً آخر، يضطرم بالنار والاشتعال في هذه المدينة نفسها، غير المكترثة، الجليدية وغير المتحركة. لأنني أحسست في الحال أن لا شيء على ما يرام حولي. فجأةً بدا كل شيء في حاجة إلى تغيير، وقبل كل شيء شارع النصر ذاته، أو شارع العجائز الثلاث ذوات النظارات. بإيجاز، شارع الحي الذي أسكن فيه. إلى أي حد بدا لي فجأةً على هذا النحو من القذارة! لم أطق منظر الأوراق ملقاة على أرضيته، والعلب الفارغة الصدئة المبعثرة في كل الزوايا. بدت لطخات قذى، وأحسست أن القوارير المكسورة المنتشرة على أرضيته أشواك تنغرز في قدمي. أما القمامة المتراكمة على طرفيه فقد أرعبتني بقوة. وحتى العجلات القديمة – الحاضرة بكثرة على نحوٍ غريب، تزيّن الشوارع والسقوف، وتحدّد الملاعب، وتفرض

نفسها وكأنها مقاعد إضافية في وسط حافلات نقل الركاب – حتى هذه العجلات التي وصفتها بأنها متميزة ومباركة، بفضل شكلها الهندسي الغريب في الشيخ عثمان، تحولت إلى مرحلة انتقال إلى كائنات ملعونة محتقرة.

أطلقت حينها مع بعض الأولاد الذين لهم سنّي نفسها ما أسميناه "مبادرات" الجمعة. ففي كل يوم جمعة أعلنّا مطاردة الوسخ وكل ما يُقذف من قمامة بين الصفين المتوازيين من منازل شارعنا الشجاع. أحببت هذه المبادرات بحماسة زائدة. ومن المؤكد أن ابتهال كانت في مركز دوافعي، وإليها أهديت هذا العمل الأسبوعي. أردت ببساطة أن أقدّم إلى نظراتها اليومية التي تلقيها على حينا القديم مساحةً نظيفة، أقلَّ مدعاةً للإحباط. آه، لو أستطيع أن أجعل هذا الحي أقل إثارةً للفزع في عينيها. كنا نبدأ، وقد تعرّى نصفنا الأعلى، بكنس الشارع كله، ونجمع كل ما يجعله قبيحاً، أي كل شيء. ولسوء الحظ، لم تكن ابتهال في كل مرة قريبة من نافذتها لتعجب بي، ولتعدَّ تنكاتنا المملوءة بالقمامة – كانت أكياس القمامة حينها غير معروفة – التي تتكدّس بسرعة تفوق منحنيات الغبار

الذي يغطّي أجسادنا، فإذا بنا باهتين وسعيدين، نتنفّس الغبار، ونبتلع الغبار، ونشبه الغبار.

وكانت بعض فتيات الحي يعطيننا الماء البارد ويُشجّعننا بلطف، ويسخرن – فيما بينهن – من جهلنا بأصول الكنس. ولسوء الحظ أن ابتهال لم تكن بينهن. وطبيعي أنها كانت كبيرة السن بما لا يسمح لها بالتحدث مع صبيان في وسط الشارع. ثم تجهزنا للقيام بعملٍ أصعب: تنظيف "الكدافة"، أو بتواضع تنظيف أطرافها وحدودها. لأن إزاحة جزء من جبال الفظائع المحيطة بالكدافة لم يكن أمراً سهلاً في كل الظروف.

كان من الصعب تخطّي هذه السدود المملوءة بالقذارة. لم يجرؤ أي شخص على تجاوزها للوصول إلى الثغرة المقدّسة في الوسط. فالناس يفرغون تنكات قماماتهم حواليها إن لم يفرغوها في وسط الشارع وليس في وسط الكدافة؛ ليس في هذه الحفرة ذات الرائحة العفنة التي لا تُطاق والتي، كما قال شكيب النزق، "تبعث فيك رغبة في أن تقذف كل ما في معدتك". صحيح أنه يلزم الكثير من الشجاعة للوصول إليها. ومن الصعب التضحية براحة الكسل في الشيخ عثمان. كما أن أحداً لا يستطيع عبور "ضواحي الكدافات"

المتمترسة بقوة وراء أكوام من المواد الأولية العفنة على نحوٍ فظيع حين يكون ذلك العبور، فوق ذلك، خطيراً. من يستطيع أن يغامر بإفراغ تنكة قمامته داخلها؟ لأننا كلما زاد اقترابنا من مركز مثل هذه القلعة زاد انبجاس القطط العنيفة. لأن هذا النوع من حرس الحدود المختفي هناك لا يحب الاقتراب من أراضيه المحررة، بعد أن لم تعد، للأسف، منطقة أمان أقصى للقطط منذ شنّت أداة لاهب لإطلاق الحجارة (المزرق) حرباً شعواء على جنس في طريقه إلى الانقراض. كانت تصرخ بالغضب منذ أن أرغمها لاهب على العيش متخفيةً في هذه الكدافات التي اعتبرتها مع ذلك بيوتها للراحة الأبدية، ونافورات توفّر لها الحرية في جميع الأوقات. كما أن بعض الناس فضّلوا على الكدافات المركزية، المحاطة بجماعات من قطط ذات حقدٍ شديد، كدافات أصغر وجدت بكثرة (هذه الأماكن التي تُجمع فيها القمامة غير المركزية مزدهرة دائماً، وتشهد تماماً على أن سياسة التسيير الذاتي في شارع النصر ليست كلها فضائل). وعلى الرغم من أنني، أنا أيضاً، أردت أن أقدّم لنظرات ابتهال حياً أقل هذياناً، فقد قررتُ منذ وقتٍ طويل ألاّ أخاطر بالاقتراب من الكدافة في شارعنا منذ اليوم الذي طار فيه قطٌّ

وحشي على نحوٍ مذهل، أمام نظارتي التي كانت في شهورها الأولى، فوق كدافة أردتُ بنيةٍ حسنة أن ألقي فيها علبة حليب فارغة. كان عليّ ذلك اليوم أن أتخفّى وسط وفد أبطال الجمعة لكي أقترب منها.

ومن جانب آخر، استنتجتُ، بعد قليل من هذا الحادث الذي أوشك على استئصال نظاراتي الطبية، أن هذه النظارات قد قوبلت، بالقرب من الكدافة أو بعيداً عنها، بعدم الرضى في حيّنا: فحيث لا يأتي نحسها من قفزة صاعقة لقطٍّ يدافع عن حائطه الوطني، يأتي من رأس سمكة ساقطة من السماء. فقد كان رأساً طازجاً مقطوعاً من سمكة تونة على الأرجح، من آخر جيل من التونة التي سادت في سوق السمك قبل أن يتحول إلى متجر عام ملك للدولة، فارغ من أي شيء باستثناء طوابير طويلة من الحالمين في انتظار دائم لسمكة مفترضة، أمام ذباب يحنّ إلى الماضي، وأدراج نادراً ما يلتفت إليها. أسرعتُ بتنظيف آثار التونة من على جبهتي ونظاراتي الملطّخة بالدم الأسود قبل أن أجري غاضباً نحو صوت صادر من منزل يقع في مكانٍ ما وسط حيّنا. بدا شبيهاً بصوت سيدة تعتذر

بأدب لأنها أخطأت رمي رأس السمكة في الهدف الذي ينبغي أن يكون الكدافة الصغيرة الأقرب إلى نظاراتي.

وفي ظرف أسابيع أربعة توقفت مبادراتنا يوم الجمعة المرهقة. كانت نتائجها العابرة غير ذات قيمة تقريباً. عندها استعاد حينا، الذي لم تعد مبادراتنا للنظافة تزعجه، وجهه الحقيقي، بما في ذلك يوم الجمعة. لم يكن ذلك مدعاةً للفخر. وفي حين قدّم الأبطال في الماضي عند أقدام أميراتهم أفيالاً متوَّجةً بالمجوهرات وقوافلَ محمّلةً بالديباج والعطورات، لم أستطع أنا حتى أن أجعل هذا الحي أقل إثارةً للتقزز. لاحظوا أنه إذا اختفت حقاً كدافاتنا، ألن نفقد متعة رواية قصة وجودها؟ ألن نعاني من هلع الإحساس بالاقتلاع؟ وفي كل الأحوال، لا يهم. كانت بطولتي متواضعة تماماً. لم تكن ابتهال قط في نافذتها لتتأملني صباح يوم الجمعة. ماذا كانت تفعل بالله عليكم؟ أكانت تقرأ؟ أكانت تتكلم؟ إلى من؟ لحسن الحظ أن كان لحماستي التي دشّنتها رسالتها في تلك الفترة محرابٌ أنبل من حالة النظافة في حيّي، وهو أمي.

ذات يوم من تلك الفترة المدهشة من استيقاظي العام – من حيث النظر، والعاطفة، والنشاط – ونحن في رحلة مدرسية، استيقظتُ

فجأةً في منتصف الليل حزيناً، تفيض عيناي بالدمع. كانت أمي في بؤرة أحزاني. أو بالأحرى، واقع أنها أمية. لم أفهم قط كيف تستطيع أن تبقى كذلك. ومع ذلك، كان الأمر عادياً، لأن كل امرأة يمنية في سنّها كانت كذلك تماماً. قضّ مضجعي بقية الليلة أنّ أمي أمية. بدا لي هذا أمراً لا يطاق. حررتني رسالة ابتهال، بلا ريب، من القمقم المغلق الذي قضيت فيه سنيناً في سباتٍ عميق.

وفي صباح اليوم التالي اصطنعت عذراً لمغادرة الرحلة المنظمة والعودة إلى البيت مسرعاً دون تأخير لأحرر أمي من أميتها، راجياً أن يصل هذا التمرد إلى أذنيّ ابتهال، وأن تجد فيه شيئاً أكثر قيمة من سطور رسالتي الركيكة. حلمت حتى في أن تعبّر لي عن إعجابها بشبه الابتسامات التي نتبادلها من وراء ظهر الحي قبيل الغروب، في حركة مختلسة، وبخاصة في جزئين أو ثلاثة من الثانية تشبع نهاري كله وتنعشه، وتخلصني من جميع أعباء اليوم. تتقاطع أنظارنا في هذه الأجزاء من الثانية، المختلسة بمعزل عن الأعين، وتتّحد في رقة قبل أن تنفصل وتتباعد في حياء. تشابكت أضغاث أحلامي دائماً ببعض الابتهالات لأجد نفسي صدفةً أمامها، بعيداً عن العالم، على الأقل لمرة واحدة، لأكلّمها بلغةٍ أخرى غير

لغة النظرات المرتعشة والابتسامات المرتجفة. ثم استمعت طموحاتي لصوت العقل، وغيّرت رأيها، وألجمت نفسها بنفسها، وتقدمت على إيقاع الحب في مدينتي، صلاةً بطيئة – هكذا الحب في أحيائنا –، ناراً هادئة لا تنطفئ، مسيرةً طويلة نحو أفقٍ يتعذر الإمساك به.

أدركت بسرعة أنه حتى لو كانت لدى أمي الرغبة في القراءة والكتابة، فإن مهمة تعليمها عسيرة على نحو لا مثيل له. كان يتوجّب، أولاً، العثور على ساعة مناسبة – ما بين استيقاظها قبيل أذان الفجر لتُعدَّ خبزها اللذيذ استعداداً لتحضير طعام الإفطار وبين خلودها إلى النوم قبل منتصف الليل بساعة واحدة، بعيد صلاة الوتر – تكون فيها مستعدة للتعلّم. فوقت راحتها متقطّع ما بين الساعة الواحدة والساعة الثالثة بعد الظهر، حين يكون أغلب أطفالها يرتاحون نائمين. تمضغ هي وأبي أوراق القات في غرفة أبي الباردة والمضمّخة برائحة البخور والعنبر. إنها اللحظة المفضّلة عند أبي للإنشاد والمواعظ الدينية (أو المحاضرات الأيديولوجية كما كان يسمّيها أخي محمود)، أمام العائلة الممثلة غالباً بأمي وحدها. وكان يجب بعد ذلك شراء نظارات لأمي، لأنني اكتشفت

بسرعة أنها ترى بصعوبة شكل الكلمات على الورق. لقد كانت تعاني من مشكلة النظر إلى الأشياء القريبة. كان يمكنني اكتشاف ذلك من قبل عشية الميلاد المتأخر لنظاراتي، في جلسة اكتشاف ضعف النظر الذي نظّمتُها في حينا. لكن مرض قصر النظر كان يتجاوز، للأسف، محيط اختصاصي في تلك اللحظة.

كنتُ أعلّم أمي كل يوم بين الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر، أمام أبي الذي يخوض في حوار مع نفسه. كل يوم باستثناء يومي الخميس والجمعة، بلا شك، حيث تكون أمي خلال هذين اليومين منشغلة تماماً. إذ يغشى بيتنا أقارب العائلة وأصدقاؤها في هذين اليومين. البعض يتغدّى معنا، والبعض يأتي في أوقات مضغ القات. وتتولى أمي توفير الحاجة من القهوة، والماء البارد، والمباخر لعشيرتين تتقاسمان البيت بالسوية. فمن ناحية مجموعة من الرجال في غرفة أبي، يستمعون إلى ”محاضراته الأيديولوجية“، محلّقين نحو كواكبه السماوية، ومن الجانب الآخر مجموعة نساء لسن أقل اندفاعاً، يتحدثن جميعهن في الوقت نفسه في غرفة أمي.

ماذا عن يوم الأربعاء؟ أيمكن الركون إلى درس يوم الأربعاء لمحو أمية أمي؟ أيجب أن أصف درس يوم الأربعاء بأنه عادي، أم

بأنه مولود ميت؟ لأن يوم الأربعاء يوم مشهود للغسيل الكبير. وهاكم بلا إبطاء بضعة سطور تخصّ هذا اليوم مستخلَصة ممّا كتبتُه في "مذكّرات أمي". في الصباح الباكر تبدأ أمي بإحضار ثيابنا المتّسخة بالقرب من غسالتها الصينية: الغسالة الوحيدة الممكن شراؤها بعد تسجيل على قائمة رسمية وبعد انتظار سنوات. وفي بلد يتصبّب فيها المرء بالعرق حتى وهو ثابت في مكانه بلا حراك، تشكّل ثياب تسعة أنفس (سبعة أطفال – تماماً مثل عدد الأشرطة اللاصقة حول ملكتي – وأبوان) كومةً لا بأس بها في الانتظار حول هذه الغسالة المرفقة بالصحفة التي لا بديل عنها وكأنها ظل الغسالة. وتمرّ جميع الثياب تقريباً في جوف الصحفة لتفركها يدا أمي لأن غسالتها لم تكن من المنتجات الجليلة للحداثة.

ولا يستطيع من يرى هذه الغسالة تعمل أن ينسى دقائقها الخمس عند التنشيف، وكأنها سلسلة رعود تتفجّر في الآذان، تهزّ الحي كأنها حرب أهلية مدتها خمس دقائق. تتركّز نظرات العائلة على هذا المكعّب الحديدي المضطرب كالدوامة بسرعةٍ قصوى. الجميع يخشى في صمت حدوث نوع من الانفجار. ثم يخفي الجميع ارتياحه حين تهدأ هذه الآلة الهادرة، وتستعيد شيئاً فشيئاً وضعها

الثابت. ثم تتولّى أمي بعد كل نوبة غسيل تفريغ الماء يدوياً. تنزع دلواً بعد دلو من ماء أسود مخلوط بمسحوق غسيل صيني يقاوم الذوبان (الماركة الوحيدة التي كانت متوفرة) يرفض غالباً أن ينحلّ بسهولة لكنه من الفاعلية بحيث يجعل جميع الثياب بمرور الأيام ذات لونٍ واحد دون تمييز، وتتحول الألوان في النهاية إلى اللون الكاكي شديد الشحوب.

وبالإضافة إلى هذه الصباحية المرهقة المخصّصة للغسيل توجد مهمات صعبة أخرى متزايدة تنتظر أمي يوم الأربعاء أثناء الكنس. وها هي بعض المقتطفات بهذا الخصوص من "مذكّرات أمي":

كل يوم حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر – بعد انتهاء الاستراحة الممتعة لتناول الشاي التي تبدأ الساعة الثالثة بعد الظهر – تخوض أمي وأخواتي معركة تفرض نفسها في مركز غبارٍ طاغٍ ساعة الكنس التي لا يمكن تجنّبها. كانت دائماً إحدى اللحظات الشاقة في نهارات الشيخ عثمان. يتم فيها مواجهة طبقة كثيفة من الرمل تغطّي أرضية الغرف وبخاصة أرضية الدارة.

تحاول أمي وأخواتي في انحنائهن، وقد اكتسبن قناعاً من غبارٍ مذرورٍ باتّساق على الحواجب المائلة إلى اللون الأشقر، وبأيديهن

مكانس طويلة من "العزف"، أن يستعدن بلاطاً مطموراً. ومن المؤكد أنها للحظة سعيدة عندما تنتهي ساعة الكنس حين يشيع فرحٌ كثيف في البيت للتحرّر من هذا العمل المرهق المشؤوم. ويتوافق هذا مع إطلال الساعة الخامسة بعد الظهر حين تضرب مطرقة الشمس بقوة أخف.

تستسلم أمي وأخواتي طويلاً لرشاش الماء المنعش. آه، كم كان ممتعاً استحمام الساعة الخامسة بعد الظهر، حين تكون حرارة الماء نموذجية، ويكون الماء لا حاراً ولا بارداً، لا يغلي كماء أغلب ساعات النهار، ولا بارداً مثل ساعات الصبح الأولى من شهري ديسمبر ويناير. يجرف استحمام الساعة الخامسة بعد الظهر من كل يوم شيئاً من الغبار والدسم والإحباطات والتعب. ثم يأتي تناول فنجان آخر من الشاي باستمتاع ليعلن البداية الحقيقية للنهار. كانت معركة الكنس اليومية أكثر إرهاقاً يوم الأربعاء، يوم غسل الثياب. إلى أي حد تكون أمي وأخواتي مرهقات، مستسلمات يترنّحن في مستنقع ماء في المطبخ والحمامات، في عملٍ مضنٍ يعاركن ثقوب البلاط المكسّر التي يشتبك فيها بكثافة الماء المخلوط بالصابون وعاصفة الغبار، ليكوّن وحلاً لزجاً يصعب تصريفه.

بإيجاز، لم يكن ممكناً الاعتماد على دروس يوم الأربعاء لمحو أمية أمي. فقد كانت الثياب المغسولة ذلك اليوم، والمعلّقة على حوالي عشرة حبال متوازية تقطع الممرات الثلاثة في بيتنا، متقاربةً كأكتاف كباش معلّقة بالخطاطيف في سوق اللحم (حين كان يستحق اسمه)، تصبّ قطرات مائها على طبقة صحراوية متحولة إلى نوعٍ من الطين المبلول بالماء تستولي على اهتمامات أمي أكثر من كلماتي قليلة الجاذبية. كما أن كتابتها يوم الأربعاء لا ترسم كلمات. لقد كانت بالأحرى ظلاً مبحوحاً مطموساً ليدٍ تتعثر ضعيفةٍ على ورقةٍ مترنّحة. يد يوجّهها ذهنٌ شارد، متعطّش لواقعٍ أقل قسوةً من الحليب الوهمي الذي ادّعيت إرضاع أمي منه عبر أثداء كلماتي، كلمات جافة بلا طعم كل يوم أربعاء. كنت أتساءل غالباً في ذلك اليوم عمّا إذا كانت دروسي بلا جدوى مثل "مبادراتنا" كل يوم جمعة. إذ لم أكن أشاهد في وجه أمي بريق السعادة التي تتراقص سراً خلال الأيام الأخرى فيه بهدوء. وإن لم يكن، بالنتيجة، من المستحيل أن أنتزع منها يوم الأربعاء أي تركيز، أياً كان، لم استطع أن أنتزع منها إلا القليل أيضاً في الأيام الأخرى. لأن رأسها – سواء أكان اليوم أربعاء أم غير ذلك – كان في الغالب

في المطبخ، قريباً من أواني الطبخ المتراكمة التي تنتظرها هناك. وسواء أكان اليوم أربعاء أم غيره، كانت عيناها، هما أيضاً، مشدودتين إلى مكانٍ آخر، مثبتتين، ونحن في غبّ الدرس، على النافذة التي تجلس بجانبها، على يمينها، تخشى دائماً مرور طفل دون انتباه حين تسمع صوت مرور سيارة يدوي. وسواء أكان اليوم أربعاء أم غير ذلك، كانت أذناها مشتتتين، أو على الأقل إحداهما منتبهة لحركات أطفالها في بقية المنزل. وكان يحدث أن تسأل في وسط قراءة جملة: ”ممكن تطفي الطباخة يا بلقيس؟“ وسبابتها تواصل التقدم آلياً على الجملة التالية. فهمت حينها أن أنف أمي يطير في المطبخ حيث استكمل إناء الشاي الكبير بالحليب فورانه، ولم تكن أذناها حينئذٍ بعيدتين عن أنفها. لأنها أحست بأختي بلقيس التي خرجت باكراً من قيلولة بعد الظهيرة تترنّح بالقرب من المطبخ. أوقفت حينها ركض سبابتها وأعادتها إلى الخلف برفق. نجحتُ إلى حدٍّ ما في ضبط حركة سبّابتها بين سطور القرآن، وأن أفكَّ لها طلاسم هذه السطور بكثيرٍ من العناء.

وعلى الرغم من قلة انتباهها أحبّتْ دروسي. ولعلها شعرت أنها أصبحت أخيراً موضع اهتمام. وكانت رائحة البخور والعطر

الصادرة عنها، والتي تكثر أثناء دروسي، تخفي انشراحها بصعوبة. لأنها تستعدّ لدروسها بالاغتسال كما تستعدّ لصلواتها الخمس. أحببت كثيراً حضورها بيني وبين النافذة، مسترخية الأعصاب أحياناً، تحاول أن تتعلم القراءة. رغبت أكثر من مرة في أن أقبّل خديها بشغف (كنت أحب كثيراً تقبيل خديها. ولا أعرف من منا كان الأسعد بهذا).

كان من الصعب محو أمية سيدة تجاوز عمرها الخمسين سنة. توجّب أن أكرّر وأكرّر دون توقف. لزم قراءة آيات من رسالة سماوية تعصف بالإنسان وتعطيه رغبة التحليق، والابتعاد عن حدود ما يتعذّر بلوغه. آه، لو تعرف ابتهال أنها كانت شرارة بطولتي، وإلهة انبعاثي. توجب أيضاً أن تكون لي أمٌّ متحمّسة. كانت ترغب رغبةً جامحة في أن تقرأ بنفسها، وأن تحفظ عن ظهر قلب بعض سور القرآن. وأحبّت كثيراً بعض قصائد أبي التي تمنّت قراءتها بنفسها. رددتْ وكررتْ. آه، لو تعرف ابتهال كم كنت صبوراً ومثابراً! لو تعرف عن معاركي الصغيرة! لو أستطيع رؤيتها لأقول لها إنني أتقرّى رسالتها ليلاً ونهاراً، وأنني أتنفس رائحة بشرتها الوردية. إن كل شيء يغنّي في داخلي منذ تلك

الشهور الطويلة التي رضعت من كلماتها ذات رائحة الهيل. يا إلهي، لو أستطيع أن أراها ثانيةً، وأقترب منها مرةً أخرى. لو أستطيع الوصول إليها قبل أن أموت من الرغبة! لو أن الأرض تدور بسرعة أكثر. رددت وكررت. لكن أمي لم ترسم أبداً دائرةً أو خطّاً خلال خمسين سنة. لم تلمس قطّ قلماً، ولم تعرف قطّ كيف تمسك به. لا شيء يعكس صورة الإنسان مثل كتابته (على الأقل هذه هي حالة أمي). كانت تكتب ببطء كما لو أن ثقل نصف قرن قد وُضع فوق يدها، وكبح حركتها. كانت كتابتها خطوطاً شديدة التعب، مطموسة، ناعمة، صامتة، مشبوبة العاطفة. ولها سيماء نفسها. كتابة طفل رضيع. يعبّر خطها عن شيءٍ من الفرح بالحياة. كم كان خط أمي بلا "مكياج" وبدائياً. كان تفاوتُ شدّته يعكس دون قناع حضورها الذهني أو تشتّت ذهنها، معاناتها أو سرورها.

بدأت بتعليمها قراءة الآيات المفضّلة عندها من القرآن. كانت هذه طريقة حسنة لانتزاع أقصى انتباهها. ولأن القيمة التربوية لمحو الأمية بهذه الطريقة محدودة، كنتُ ألجأ من حينٍ لآخر إلى كتابٍ آخر موضَّحٍ بالرسوم، أصدرته الحملة الرسمية لمحو الأمية. وكان تأثير هذه الطريقة الدنيوية عكسياً في الغالب. كان تركيز أمي

يضعف، وبخاصة حين تقرأ عبارات مثل ''العامل يدافع عن الثورة'' أو ''يا عمال العالم اتحدوا''. تهبط أمي نحو الأرض عندئذ. من الواضح أن الآيات القرآنية وحدها أعطتها الشجاعة للتجديف بين السطور. لم يطلق حماستها الرسم الأولي للعامل وهو يدافع عن الثورة واقفاً وبيده ''بانة''، وتشرق على شفتيه ابتسامة.

وكان أبي في الجهة المقابلة لنا يترنّم بنشيد لابن الفارض، مزاوجاً بين الإيقاع الصوفي وألفاظ الحب:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً

سكرنا بها من قبل أن يُخلَق الكرمُ

لها البدر كأسٌ وهي شمسٌ يديرها

هلالٌ وكم يبدو إذا مزجت نجمُ

ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانها

ولولا سناها ما تصوّرها الوهمُ

– حاولي يا أمي الآن قراءة بضع صفحات من هذا الكتاب المخصّص لمحو الأمية. سترين أنه أسهل للتعلّم، برسومه

التوضيحية. سنعود للقرآن بعد قليل.

قاطعتني قائلة:

– وصلت بطاريات كهربائية إلى دكان سيف الأعمى! اذهب بسرعة لتشتري لنا عدداً منها.

آه، أذناها تُبحران مرةً أخرى. كانتا أقرب إلى الهمسات في مركز شارع النصر منهما إلى مثابرة صوتي الجهور. لا شك أنها سمعت عم مسعود العجوز يصرخ وسط شارع النصر:

– تقدموا. إلى الأمام يا أطفال شارع النصر. أتتذكّرون البطاريات؟ لقد وصلت عندنا. أسرعوا. أسرعوا جميعكم إلى دكان سيف الأعمى.

لم أجد وقتاً لأكمل الجملة التي كنت أنطقها بصوتٍ عال. كان عليّ، أنا تاجر الحروف، أن أتحول في الحال إلى مغتصب بطاريات. هاج الأطفال في الشارع تحت مرأى العم مسعود، وانطلقوا كالسهام نحو دكان سيف الأعمى. فالسابقون وحدهم يستطيعون الحصول على عدد قليل من البطاريات التي نجح سيف في الحصول عليها. أسرعت بعبور الباب، وجريت بأقصى سرعة نحو الدكان. كانت ابتهال في نافذتها! كنت من ذلك واثقاً. كانت

تحب سخرية عم مسعود الذي نجح في أن يحوّل شقاءنا سعادة. ضحكت أنا أيضاً. لم نكن نفتقد إلى ندرة الضحك من الشقاء. ولذلك ألن نأسف على هذه الندرة لو اختفى الشقاء نهائياً من الأرض؟

ينبغي عليّ إذا سمحتم لي أن "اعترف بالجميل" هنا للعم مسعود (ملاك البضائع، كما كان يسمى) بهذه الكلمات القليلة المقتبسة من "مذكرات أمي":

> غالباً ما يحظى حيّنا بفضل العم مسعود بالحصول على معلومات عن عودة سلعة استهلاكية. فمنذ الصباح يتفحّص، هذا المسكون بسبق الحصول على المعلومات، دكاكين الشيخ عثمان – شبه الفارغة – ليحيط بمحتوياتها، مستفسراً من المطّلعين عن ظهور حفنة من أكياس البصل، أو عن أنباء قدوم وفد من أكياس الطماطم.
>
> لا شيء يثير انتباهه مثل التعرف قبل أيٍّ كان على الدكان الذي قد تتوفّر فيه سلعة اختفت. ولا شيء يستدعي مرحه مثل لحظة يقف فيها في قلب شارع النصر، معبّراً عن تطلّعات العابرين فيه. تسلّط عليه النوافذ نظرات متسائلة ومركّزة، تحاول أن تكتشف في وجه العم الساخر أبداً حلولاً للمشاكل التي تؤرّقهم: أتوجد اليوم فاكهة في السوق؟ أهناك لحم أو سمك؟...

ثم يتوقف التشويق. ينتهي صمت العم مسعود ويبدأ انشراحه الذكي. يصرخ:

– أوه! يا أطفال! أي سرور اليوم! سأعلن لكم خبراً عظيماً هذه المرة، خبراً حقيقياً مهماً. ينبغي أن أقول إنه عظيم لدرجة أنكم لن

تستطيعوا تصديقه. على أي حال، لن تستطيعوا شكر السياسة الاقتصادية للحكومة بالقدر الذي تستحقه.

ثم يصمت لحظة طويلة ويتنفس بعمق ويتنحنح ثلاث مرات ويشاهد الحشد طويلاً ويتنفس ثانيةً قبل أن يضيف بصوتٍ قوي يتسارع فجأةً:

– اجروا بسرعة. استعجلوا. هناك ثلاثة أكياس من الموز في الشيخ عثمان، منذ حوالي خمس عشرة دقيقة. إنها لكم وليس لأحدٍ آخر. إنها لفرحكم وسعادتكم، تباع منذ عشر دقائق. أسرعوا جميعا. إلى المجمّع الاستهلاكي المركزي.

ثم يضيف بسرور في سخرية وهو يشاهدنا وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

– أسرعوا مثل مركبات ضوئية نحو أكياس الموز الثلاثة.

رحمك الله! أحييك عم مسعود، شهيداً بين الشهداء.

عدت إلى البيت ألوِّح ببضع بطاريات نجحت في شرائها من عند سيف الأعمى. ومن الواضح أنني حققت بعض النجاح في تلك الفترة المنتصرة التي تلت رسالة ابتهال كما لو أحدثت البطاريات قفزةً في دماغي.

الجزء الخامس

في ليل رياح خفيفة

[إلى عليٍّ الأعجم وقد أصبح عليّاً الثرثار]

الفصل الأول

بدأت في هذه الفترة المباركة – التي لم تتوقف خلالها البطاريات عن تزويدي بالطاقة وبقدرة كبيرة على الفعل – أحياناً أرسم خططاً. وجدت في سن السادسة عشرة النافذة التي ستسمح لي بالاقتراب من ابتهال، وأن أكون قريباً من مساراتها، في ظل نظراتها، وفي روائحها. اقترحت على أزال أن أعطيه دروساً في الهندسة، في منزله! كان يعاني من صعوبات في الرياضيات ناتجة عن التغيير المتعدد للمناهج الدراسية التي عرفها خلال الهجرة الدائمة لأسرته. كان "مطحّس" بخاصة في الهندسة، كما كان يقول. قلت لنفسي: "إعطاء دروس في الهندسة لزميل! أية قضية نبيلة تبرّر دخولي عند عائلة دون علاقة قرابة بينها وبين عائلتي؛ عائلة بالإضافة إلى ذلك تضم بين أعضائها امرأة بهذه الحيوية: فتاة في عمري". ذهبت إلى بيت ابتهال مرتين في الأسبوع لإعطاء دروسي. أتذكر كما لو كان اليوم كيف ارتعشت خطواتي التي قادتني إلى باب بيتها من الخجل والخشية والافتتان. وأكثر ما ارتعشت في لحظة مشحونة بالانفعالات حين وجدت نفسي أمام

باب بيتها. ترددت في طرق الباب، وأخذت نفساً عميقاً قبل أن أطرق بلمسة خفيفة، ثم أقلّ خفة، منتظراً أن يفتح أزال بابتسامته الجميلة. ودون أن أشعر توجهت نظراتي الأولى بصورة مائلة نحو أسفل الثلاجة، بين الأرضية والكرتون الفاصل حيث نضع رسائلنا على نحو لا يُرى منها إلا طرف بسيط. كانت لحظة مقدسة عندما واجهتُ الجدران بدهانها الأزرق السماوي وذات اللمعان الداخلي نفسه، والمروحة القوية نفسها، وجميع الأشياء والأثاث. كان لكل شيء في نظري مفاتن أثيرية، وبريق غريب، وحظ غير عادي. حسدتُ هذه الجدران التي تستطيع الاستمتاع متى شاءت بمرأى ابتهال، وحسدت الملاءات التي من حظها ملامستها واحتواؤها.

أعدّ لي أزال أول فنجان شاي قبل بداية الدرس. لا فائدة في أن أقول إنني تذوقته بمتعة لا مثيل لها. شربت من خلاله شيئاً من ابتهال، واستنشقتها وأنا ألحظها أحياناً تعبر الممر، أو تدخل المطبخ وتخرج. تكدّست في رأسي صورها المسروقة وهي تطير عن قرب أو تتحرك، أو تستلقي على سرير، أو تجلس على كرسي، فتبعث فيَّ سروراً لا يُحدّ. كانت أبسط حركة من أصابعها أو من كتفيها، وأبسط ابتسامة على محيّاها... حدثاً له مكان مميز في دماغي؛

نسمةً تشرح صدري. ثم خلال الدروس لم أكن أفكّر إلا في الالتقاء بها بانتظام، وتبادل بعض الابتسامات الخفية معها سراً، وبعض الكلمات الخجلى نهمس بها في غرام، وكثيراً من الرسائل المشبوبة بالعاطفة. كانت الورقة السرية المكان الوحيد للتعبير الحر في مدينتنا. مملكة القلم. استبسلتُ لكي يدرس أزال الكثير من الهندسة، مسروراً لرؤيته مستغرقاً في حلّ الكثير من التمارين. مرّنتُهُ على قراءة إثباتات النظريات وعلى إعادة إثباتها بنفسه. وكلما غاص في أعماق الدوائر الهندسية، منزوياً في زوايا محيطها، أحاطت نظراتي بالباب لتتفحّص محيطه وتتلوّى قرب المطبخ. كنتُ أنتهز الفرصة أحياناً لأذهب لإحضار كأسٍ من الماء من الثلاجة في لحظة محددة لا تكون خلالها ابتهال بعيدة. جذبتني حتماً طريقتها في الحركة الحرة الراقصة. كان قلبي يتلعثم كل مرة تمرّ فيها. زاد جنوني أكثر فأكثر لمرأى عينيها وبشرتها. استمتعت في الغرفة المجاورة بكل ما ينتمي إلى هذا الكائن الذي يكمّل عندي ما ينقص مدينتي، أي: كل شيء. هذا الكائن الذي حوّلني بسرعة من مراهق منفعل دمّرته ثورة الشارع الثقافية وثورة أبيه في البيت إلى حكيم يتعامل مع الحياة في تسامٍ. كنتُ أراقب ثورة الشارع الثقافية أحياناً

متسلّياً في داخلي. كنتُ أردِّد بشيءٍ من المبالغة ''إنها لأمرٌ طريف... على الأقل لأنها تقلّل من الرتابة'' (مع أن لا شيء أقل رتابةً في الحقيقة وأكثر شططاً من العبث). أما عن ثورة أبي الثقافية فقلت عنها إنها مساهمة ممتازة في الصراع الكوني بين الأجيال (لا شيء يستطيع مثلها أن يؤدّي، على نحوٍ يستحق الإعجاب، إلى نسيان عبث ثورة الشارع).

أصبحت الدوائر وأقطارها ونقاط التماس، وغيرها من التجريدات الهندسية، بالنسبة لي، أموراً عاطفية، بالأحرى مقدّسة. أدين لها بكل شيء. لقد كان مذهلاً أن يستطيع الحب والحلم من جهة، والرياضيات من جهةٍ أخرى، أن تتواطأ وتتكامل. وفي كل الأحوال، كان لهذه ''النظرية'' في حياتي أكثر من ''إثبات'': ألم ألمح يوماً، وأنا أبرهن لأزال على أن الزاوية المحيطية تساوي نصف الزاوية المركزية، ابتسامةً جميلة على شفتي ابتهال؟ ألن ينهار كل شيء في حياتي في اليوم الذي سيمنعني فيه ''راعٍ قديم له عينا ثعبان'' من كتابة مقال بعنوان ''أحبك حتى ظلّ بي على ٢''؟ وفيثاغورس! يخنق قلبي دائماً. أو بالأحرى نظريته التي استخدمها البابليون على نحو عملي – وهم الذين أحبهم حباً حاراً – قبل

فيثاغورس بألف سنة، وأثبتها لأول مرة في مخطوطة مشهورة بعد ذلك بثلاثة قرون إقليدس الذي يثير اسمه في نفسي عواطف رقيقة. أليس بترك أزال يثبت أن مربع وتر المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين استطعتُ الذهاب يوماً ما، بعد بضعة شهور من بداية الدروس، إلى المطبخ حيث كانت ابتهال بمفردها؟

أسرعت في الحال مضطرباً أقبّل ابتهال. عذّبتني عشرون شهراً من العطش الشديد إليها. كنت أكثر ذهولاً ورعونةً من أيِّ وقتٍ مضى: وبدلاً من تقبيل شفتيها لمست بعنف عينيها بأصابعي! أخطأتُ الهدف الذي شغلني منذ شهور طويلة. تأسّفت على هذا الفعل العصبي المتعجل (الذي يليق بشريط سينمائي هزلي من أفلام عادل إمام، إذا جاز لي هذا التشبيه). مفاجأة سببت لابتهال شيئاً من الألم، وأحستْ بالرغبة في الضحك. على كل حال، لقد كانت لديها دائماً رغبة في الضحك. وأردت لذلك مداعبة عينيها لطلب الصفح. لكن كل شيء يجري في حياتي على نحو معاكس (وحتى حين أكتب أي شيء أكون مدفوعاً برغبة جامحة في الكشف عن النهاية، وتكون النسخة الأولى دائماً غريبة، لا تُقرأ، وفاشلة. ثم ألاحظ أن

كل شيء يصبح أكثر قابليةً للفهم حين أقرأ ”الصورة المعكوسة“ لمخطوطتي. ولذلك أكتب نسختي الثانية من الأسفل إلى الأعلى، عاكساً اتجاه جمل كل فقرة). وبدلاً من أن أقرّب أصابعي بلطف من عينيها المصدومتين وجدتُ نفسي أطبع قبلةً على شفتيها. قبلة مضطربة، بدائية، متوحشة، عميقة وحقيقية. وخلال بضع دقائق تبادلنا قبلاتنا الأولى (على الأقل بالنسبة لي)، وقد أصبحت رقيقة وبركانية، بالقرب من أزال الذي كان يجهد نفسه في رسم ”المستويات“ الهندسية وإضافتها ليثبت المعادلة ”س تربيع + ص تربيع = ع تربيع“، معيداً بذلك إثبات نظرية فيثاغورس الشهيرة. يا إلهي! كم كانت نظرية فيثاغورس ممتعة ذاك اليوم!

لو كنت ذلك اليوم أقل جهلاً وأكثر حذقاً، لو كنتُ أكثر معرفةً بالمسائل المهمة التي يمكن طرحها على صديق، لاستطعت (قبل أن أترك أزال وحيداً مع التمارين) أن أطلب منه ”بلطف“، بعيد ذلك حلّ هذا ”التمرين“ المماثل على نحوٍ خادع للتمرين الأول، وهو المعادلة المكعبة: ”س مكعب + ص مكعب = ع مكعب“، أن يجد حلاً لهذا التمرين، حلاً وحيداً بأرقام تامة. كنت بذلك سأوصله مباشرةً إلى حدود آخر نظرية ”فرمات“ Fermat وأربكه في

البحث عن ”حلّها الضائع“ الذي لم يتوقف حشدٌ من الباحثين (كتيبة من المجانين كما يقول البعض) عن البحث عن حلٍّ لها منذ ٣٥٠ سنة وحتى كتابة هذه الأسطر. لو فعلت ذلك لكان أتيح لي وقتٌ كافٍ كي أطبع على شفتَي ابتهال أطول قبلة في العالم. ستكون تلك النظرية فعلاً قد أثبتت فائدتها.

وبمرور الزمن تحسّن مستوى أزال في الهندسة للأسف. وهكذا بكل أسى لم يعد بإمكاني إعطاؤه سوى درسين في الأسبوع. وأصبح انتظار درس الأربعاء بعد درس الجمعة أمراً لا يطاق، حتى لا أقول طغياناً. ومع ذلك كنت مستعداً لترتيل الدروس كل يوم، ولأعاودها كل ساعة مجاناً (دون أن تكون مجانية في الحقيقة لأن رؤية ابتهال كانت الثمن أو بالأحرى لا تقدَّر بثمن).

وذات يوم جمعة صباحاً، وصلتُ لإعطاء درسي المعتاد. لم تكن العائلة قد تناولت طعام الإفطار، لأن أمل وابتهال تأخرتا في إعداد ”الشواف“، وهو نوع من الفطير المعروف في منطقة أبويهما في شمال اليمن. كان أزال قد تناول إفطاره بسرعة مع مارب الذي خرج بعيد ذلك ليغوص في الطابور الذي لا ينتهي أمام المجمع الاستهلاكي بحثاً عن طماطم أو جزر. تلقّى الأمر أن يشتري أية

فاكهة أو خضار يمكن أن تهبط من السماء. كان الأطفال في سن العاشرة، مثل مارب، يجرون في فخر واهتمام لأداء هذه المهمات الطويلة بثقة. رتّبت أمل صحون "الشواف" على مائدة منخفضة، حول صحن "فول" كبير مع مكعبات من اللحم المشوي على الطريقة الحبشية (قاورما). واستغلّت مروري بالقرب من الثلاجة لتدعوني للإفطار معها. كانت أمل الوحيدة من بين الأختين التي استطعت أخيراً أن أتحدّث إليها بشيء من الحرية، لأنها بالسنوات العشر التي تكبرني بها سناً من جيل آخر غير جيلي. ومع ذلك لم تكن قد بلغت بعد السابعة والعشرين من عمرها. أجبتها قائلاً:

– لست جائعاً، شكراً.

ومع ذلك لم أكن أرغب في شيء مثل الجلوس معهما للأكل أو لأي شيء.

أجابت:

– تعال، إذاً، لتذوق الأكل.

قبلت دعوتها بشيء من الخجل – المبالغ فيه بعض الشيء – مخفياً سروري، قائلاً لنفسي: "أي انتصار! هذا يوم تاريخي. مكسب كبير. وجبة تساوي مليون درس هندسة!". قرفصت على

أحد المقاعد المنخفضة التي تحيط بالمائدة. وكنت مقابلاً لأمل. اشتركت في صحن "الشواف" نفسه مع ابتهال التي جلست إلى يميني. غمسنا نحن الثلاثة لقم "الشواف" في صحن الفول الكبير نفسه، وقد وضعت عليه بعناية مكعبات صغيرة من اللحم المشوي، المفصولة عن الفول الأحمر بطبقة خفيفة من السمن المبهّر. تعمل المروحة لتجديد الهواء فوق رؤوسنا على نحوٍ منعش، وتعطيه رائحة رقيقة من الياسمين العربي الذي تتنفسه الأختان، وقبضة من الزباد الذي يفوح من شعرهما. كانت أمل وابتهال ترتديان "درعين" عدنيين. أضاءت بشرتاهما بلونهما الياسميني عينَيّ. إنها أول مرة أجد نفسي فيها وحيداً مع نساء من عائلة أخرى غير عائلتي، بثياب يرتدينها داخل البيت كما لو لم أكن غريباً عنهن، كما لو كنت جزء من عائلتهن. استحق هذا في البداية أن تغمرني مشاعر الارتياح. ثم استحق بخاصة أن أصبح في الواقع في حالة حرج. وكنت كذلك على نحو ظاهر. لقد غمرني الإحراج تماماً. ومع ذلك استفدت من ذلك لأشاهد من آونة لأخرى أمل جالسةً أمامي، وهي تشكو من اختفاء الفواكه والخضار واللحم والسمك... قالت إن مارب خرج لشراء حاجات البيت قبل ساعة، وإنه لا يعود

إلا وقت الظهيرة خالي الوفاض تقريباً. وفي حين تتساءل عن فائدة أن يذهب ابنها للمزاحمة في طوابير المجمع الاستهلاكي، بدا لي أنني لاحظت عبر "درعها" الوردي حبة "خال" على كتفها الأبيض. أربكتني أمل. كانت امرأة جميلة تعجّ بالحيوية، وجذابة. أستطيع معها أن أثرثر دون خوف. أصبح هذا المكسب عندي متعة وفرصة وضرورة. كنت ألعب في الغالب بالقرب منها مع ابنها الذي سيظل عندي دائماً المراسل الذي حمل دفتر الجغرافيا بيني وبين ابتهال. وهذا ما زاد تجذّري في عائلتها، ووفّر فرصاً جديدة للحديث مع أمل. أحببت كثيراً ابنها، وكان لديّ انطباع بأنه يمهّد طريقي ويبارك خطواتي. وكانت له ملامح مشتركة مع أمه ومع ابتهال. كنت على نحوٍ ما مسحوراً بهذه العائلة في مجموعها. كان علي أن أحبّها كلها في تمامها.

حوّلتُ نظري عن منحنيات أمل الرشيقة، وعن ذراعها الرائع الرقيق والمغري. كنت أستعدّ للردّ عليها مؤكداً أن هذا الوضع الذي تفتقد فيه المواد الغذائية ليس مجحفاً تماماً! لأن أحداً لن يحتاج إلى جمع قشر البطيخ الملقاة فوق رمل شارعنا، أو العظام عند التنظيف. ستصبح كل "مبادرة يوم الجمعة" بلا معنى. نستطيع

حتى أن نمشي رافعي الرؤوس دون خوف من أن يسقط على وجوهنا رأس سمكة، كما كان يحدث سابقاً. لكنني لم أعرف كيف أصوغ كلماتي أو كيف ستحسّ بها محدّثتي. تساءلت بيني وبين نفسي: ”أستخرج كلماتي كلها في الوقت نفسه؟ أنطقت نطقاً صحيحاً؟“ ثم تساءلت عمّا إذا كان في ما سأقول شيئاً من المرح الممتع أو من الهزل ببساطة أم أنه سيكون مفرطاً في الغباء!

وأخيراً، فضّلتُ أن أصمت. على أي حال، كنت معطّل الحواس. وفجأةً أطلّت جملة برأسها في وسط الكلمات المشوهة، وتشكّلت على لساني تستعد للانطلاق: ”على الأقل لا وجود لندرة الجمال تحت المروحة“. جملة مقموعة ومحرّمة كما ينبغي. قالت ابتهال:

– يبدو أن البصل يصل بانتظام منذ بضعة أيام لكنه ينفد بسرعة. لا يستطيع إلا أوائل المرابطين منذ ما قبل الفجر أن يأملوا في العودة بالقليل من البصل.

وفي هذه اللحظة تملّكتني الرغبة في أن أحكي لابتهال أنه حدث لي أربع مرات أن كنت أحد هؤلاء الرواد الذين يقضون آخر ليلهم نائمين في العراء، بالقرب من باب المجمع الاستهلاكي، في مركز الشيخ عثمان. وكان قمر الساعة الرابعة صباحاً رحيماً. وكذلك

هواء هذه الساعة. وهذا وحده يستحق أن ننام ونحن نرقب هذا الكوكب الجميل ولو من أجل نسمة المساء العليلة. راودتني رغبة إثبات أن عدن مدينة ينبغي أن تنام نهاراً وتستيقظ ليلاً. أردت أيضاً أن أقول إن النظرات الحاسدة في عيون المتأخرين عن الوصول، أولئك الذين لم يصلوا إلا قبل ساعتين أو ثلاث من فتح الدكان، تبعث الارتياح في نفوس كتيبة محاربي الليل الذين كنت أحدهم. كان لديّ الوقت خلال الساعات المتبقية قبل فتح الدكان لأعجب بالفراغ الكبير الذي استولى على الأدراج الكبيرة، وبالندرة الهائلة التي تجعلها صفحات بيضاء لم يُخَط عليها أي حرف. نستطيع أن نظن سوء الظنون بهذه الندرة، لكن ينبغي الاعتراف بأنه كان لها فضل عدم احترام الإحساس بعدم التكامل. فلم يكن هناك في الوقت نفسه لا سكر ولا شاي، لا لحم ولا خضار. وبفضلها حدثت اكتشافات علمية مهمة، مثل اليوم الذي أكّد فيه المقدِّم اللطيف للبرنامج الإذاعي "العلم والإنسان" أن البيضة تحتوي على مادة غذائية تساوي ما في كيلوجرام من اللحم، محوِّلاً بعصا سحرية اختفاء اللحم إلى مكسب ثوري.

أردت أيضاً أن أقول لابتهال إن أدراجاً ممتلئةً فيما مضى – قبل وصول عائلتها إلى مدينتنا – كانت موجودة في مكان هذه الأدراج الكبيرة الموضوع عليها حفنة من جزر مزعوم ممدّد بهدوء لا يكاد يُرى. لقد فضّل تجار الماضي مغادرة بساطتهم، في بلد لم يبقَ فيها عملياً مزارعون، بعد أن وجد المزارعون أن من الأربح لهم تغيير مهنتهم، هم أيضاً، منذ أن فُرضت عليهم سياسة زراعية وخطط زراعية. بدا لهم أن من المهم أن يفعلوا شيئاً ما أحدثَ من ذلك. متفرّغ في مقر الحزب، مثلاً. فليس لهذا علاقة بمهنة المزارع القديمة. بدا العمل "سكرتيراً" عاماً لوحدة، أو مديرية، أو محافظة في الحزب مهنة تتناغم مع سمة العصر أكثر من العمل في مهنة "معذَّبي الأرض". وسيكون العمل دبلوماسياً في سفارة في الخارج أكثر جاذبيةً من زراعة البطيخ، دون أن ننسى بعض الوظائف الرائجة، مثل "النواب السياسيين" في المدارس (رياض الأطفال وغيرها)، أو تلك المزدهرة مثل "مدراء لجان الدفاع الشعبي" في الأحياء.

لم أقل شيئاً عن كل ذلك وأنا أرتعش أمام ابتهال وأمل، وهما تشعّان بالألق والصفاء أكثر من أي وقتٍ مضى. وكانت ثاني

خطواتي على طريق الألف ميل خجلى: فلم تصدر عني أية ملاحظة بسهولة. تدافعت الكلمات عند خروجها، ثم اختبأت برخاوة، وحطّم بعضها بعضاً تحطيما تاماً بمجرد استعداد لساني لنطقها. اكتفيت عندها بهزة آلية من رأسي الذي كان يرتفع وينخفض دون توقف، وزادت حركات الموافقة على كل ما يقلنه. كنتُ أتصفّح – وحدي بين آونة وأخرى وبسرعة لأحافظ على متابعة الحديث – صور شيخ عثمان أخرى، أكثر غنجاً وغنى، لازمتني دائماً ولم أقل عنها شيئاً أمام المرأتين اللتين تشاركانني فطيرة "الشواف" نفسها.

آه، لو أستطيع إطلاق بضع كلمات لأعدّد زوايا الشارع التي تخيّلت فيها بائعي آيس كريم، وعصائر لا مثيل لها (عصير الليم الأخضر، والعنب، والمنجة، والزنجبيل، والعنبا الفلفل (الباباي)، والباجية، والصمبرة...) ومقليات كثيرة في الزيت! لو أستطيع استعارة بعض الكلمات لأحدد الأماكن التي حلمت دائماً أن توجد فيها أشجار مورقة، وأزهار كثيرة... ومكان حمام السباحة الذي لم يوجد قط في الشيخ عثمان إلا في أحلام نومي. وسواء شئنا أم أبينا، كان البؤس والندرة هما الموضوعان اللذان تزيد غزارتهما بكثير

على ما عداهما. بإيجاز، لم يكن نقص المواد ما أخرسني بلا شك، بل لأن لساني المسكين كان محاصراً بانسدادٍ عنيد.

حدث لي أن انتقدتُ نفسي، بين حركتين عموديتين من رأسي الذي يشبه رأس إنسانٍ آلي، لنقص الشجاعة، أو لتبرير نفسي لأنني أواجه وضعاً غير مألوف في الأساس. فهي أول مرة أجد نفسي فيها على المائدة مع فتاتين غريبتين عني، جميلتين وفاتنتين. ذكّرتُ نفسي بذلك في حماسة نقدي الذاتي. وحدث لي أيضاً أن لعنتُ المروحة التي تُثملني بعطر جسديهما، وتملأ رئتَي بالهواء البارد، وتمنعني من المساهمة في النقاش، ولو ببلاهة من خلال الكلمة – المفتاح، التي تتردّد في كل مكان في عدن: "اوه، إيش من حرّ اليوم. اليوم زرّه!".

كنت أتأمل ابتهال من آونة لأخرى. حين تبتعد نظرات أمل عن رأسي تبدو ابتهال في ثوبها الشفاف نحيلةً بعض الشيء (بمقياس تلك الفترة)، رشيقةً بالنسبة لمقياس اليوم. كنت أذوب أمام جمالها الرصين المتلألئ. خرجت أمل نحو المطبخ لتعدّ أربع كؤوس من شراب "الفيتمو" المثلج. قلت لابتهال أمام جسد أختها الأهيف الممشوق، وهي تغادر الغرفة، إنني أرسلت قبل شهرين إلى مجلة

الحكمة الشهرية قصيدة، وإنني أنتظر صدور العدد القادم الذي سيظهر بعد أسبوع (انتظرت في الواقع يملأني الأمل ويغشاني الصبر) لأرى ما إن كانت قصيدتي ستُنشر. وما إن نطقت بهذا التعليق حتى وجدته غبياً بشكل مذهل، وثقيلاً، وفظاً، وغير مناسب، مع أنني أعددت له منذ أسابيع عديدة، ولا علاقة له بموضوع الحديث! هزّت ابتهال رأسها وأبدت عدم اهتمام بما قلت. ومع ذلك لو كانت تعرف كم انتظرت نشر هذه القصيدة! تمنيتُ لو عرفت ذلك!

دخلت أمل المطبخ وكنا أخيراً لوحدنا.

– أمل متفهمة لعلاقتنا.

هكذا أعلنت ابتهال: ”على كل حال لن يأتي بسرعة كأس الفيتمو الذي ذهبت لإحضاره“.

لم أفهم تماماً ما قالت. ”لا يُفهم إلا ما يكون واضحاً“ هكذا تقول بنات الشيخ عثمان أمام بطء فهم الرجال. أضافت بأسلوب تعليمي يميز بنات حيّنا:

– لدينا على الأقل خمس دقائق للحديث بمفردنا.

كنت مسروراً بعمق بهذا الضوء الأخضر الآتي من أمل نفسها، وهي الأكبر في العائلة. ولارتياحي لم أعد أخشى اليوم الذي تتّهمني فيه بالخيانة، وبأنني رجل نهّاب تسلل إلى عائلتها ليسرق بجبن أثمن جوهرة: ابتهال. انهمكنا بسرعة في تناول موضوع آخر رسائلنا التي نضعها سراً أسفل الثلاجة، وكيف نلتقي بعيداً عن أعين الآخرين لوحدنا.

قالت لي ابتهال إن بالإمكان تحقيق هذا الحلم. شرحت لي بسرعة الخطة. ستغيب أمل عن البيت مرة في الشهر تقريباً، لأن لديها عشيق أصغر من زوجها العجوز (المهاجر في السعودية) الذي تزوجته عن غير رضى منها وهي لا تزال صغيرة، يوماً ما في شمال اليمن. "كان عمرها خمس عشرة سنة ونصف، مثل سنّي". هكذا قالت ابتهال. في الليلة التي تغادر فيها أمل للالتحاق بعشيقها ستكون ابتهال بمفردها في البيت، لأن أمل ستترك في ذلك المساء ابنها مارب ينام عند أولاد عمه، ولكي تتحرر من أزال سترتّب له لقاءً مشابهاً في كريتر، مع صديقته، أخت شابة لصديقة أمل.

أحسست بالسعادة كعصفور غادر القفص. انتهى التقدم اللوغارتيمي لمنحنى لقاءاتنا. سيدور هذا المنحنى نحو الأعلى

ويصعد كدالّة أُسّيّة! مئات نظريات فيثاغورس براقة!

اقترحت على ابتهال، وقد بدا لي أنه حان الوقت لتصحيح برهان أزال لا أدري لأية نظرية، ألاّ نلتقي عندها هذا المساء. قلت لها إن مجيئي إلى بيتها هذا المساء قد يثير تعليقات من كل نوع، ومشاكل كبيرة. اقترحت قائلاً:

– أحب أن نلتقي بعيداً عن حشد العابرين... أفضّل أن نلتقي في مدينة الأحلام.

– مدينة الأحلام؟

– نعم. منطقة في "الأكواد" خارج الشيخ عثمان حيث نستطيع أن نلتقي وحيدين في هدوء، في ليل رائق تزيّنه النجوم. سأحدّد لك كيف نستطيع الوصول إلى هناك إن أردتِ، في رسالتي القادمة.

فكّرت ابتهال بعمق. بدا هذا حلماً. كان الأمر بسيطاً ومعقداً؛ متماسكاً وغامضاً؛ مشوشاً وواضحاً. بدا كل شيء محدداً ما عدا مواعيد تلك اللقاءات. سألت:

– كيف أستطيع معرفة مواعيد لقاءاتنا؟

أجابتني:

– اسمع يا ناجي. ما بدأ صحيحاً يستمر بلا صعوبات. ستعرف مثل هذا اليوم، لأنه سيبدأ بأسلوب محدد. بكلمة سرّ حلوة، إذا جاز لي القول. وهذه كلمة السر: ستبدأ بوصول مارب صباحاً إلى بيتكم يحمل لك "شواف" من أزال. تذكّر جيداً. ما يبدأ صحيحاً يستمر بلا صعوبات. أليس كذلك؟ نستطيع أن نكون بمفردنا في ليالي الأيام التي تبدأ بوصول "الشواف"، لأن أمل وأزال سيذهبان أيضاً في هذه الليالي إلى مواعيدهما.

وحين عدت إلى أزال حرصت على أن أقدّم له بنفسي كأس الفيتمو. نظرت إلى ورقته وقلت له حالاً إنه سيكون يوماً ما خبيراً بالهندسة لا يضاهيه أحد، وإنه على أي حال غير عادي، وإنه ألطف وأوسم وأذكى من كل صبيان حينا، ومن صبيان عدن، بل والكرة الأرضية. لعله وجدني غريباً بعض الشيء حتى لا أقول معتلَّ العقل تماماً حين أوشكت حينها أن أقبّله أو بالضبط أن أفرك عينيه.

الفصل الثاني

بعد أسبوع، في الصباح، كنت أكمن أمام أقرب كشك لبيع الكتب. كانت الشمس تغطي مدينتنا بجميع ما فيها من أشعة، وتشبعها بضوئها الصباحي الغزير. وكانت السماء زرقاء نقية، منقوشة هنا أو هناك بلطخات غاية في البياض. وصلت مجلة **الحكمة** وقت انفتاح الكشك. اشتريت نسخة في الحال ديناً على حساب أدفعه فيما بعد. قلبت بسرعة الصفحات المخصصة للشعر في مجلتنا العتيدة، وعلى صفحتين دون عنوان "شاعر شاب"، أو لا أدري أي تصغير مشابه يمكن أن يشير إلى عدم نضج تجربة الشاعر لتصل إلى مستوى قصائد الآخرين، لاحظت وجود قصيدة مهداة: "إلى أمي وهي تمحو أميّتَها".

كنت سعيداً بقراءتها وإعادة القراءة مرات عديدة، كما لو كنت أريد إقناع نفسي بأنها قد نُشرت فعلاً، باسمي، وأنها، دون أدنى شك، قصيدتي، على قدم المساواة مع "الكبار". كان فرحي مفرطاً. نادرة تلك اللحظات في حياتي التي أحسّ فيها بسعادة تجتاحني بهذه القوة. اشتريت في الحال عشر نسخ أخرى. ولأنني كنت سعيداً مثل

من حقّق نصف أحلام حياته، جريت نحو البيت بنسخي الإحدى عشرة. راقبت رؤوس المارة. كان لديّ انطباع بأن نصف المدينة قد قرأتني (لم تمر بعد حتى ساعة على خروج المجلة، وتسعون في المائة من المواطنين أميون). قرأت في نظرات المارة كل ما أرغب في قراءته.

يجب أن أعترف بأنني أحببت الشعر بشغف منذ بضع سنين. قرأت منه وقرأت دون توقف، ومارسته بحماسة. فأبي يتنفسه أمامي كل لحظة. وصديقي عدنان يملأ وجداني به باستمرار. وحتى لو لم يكتب هذا الشاعر المتفرّد منه شيئاً قط. وحتى لو أصبح صامتاً بمرور الوقت، ملفوفاً بنزاعاته العديدة. يتحدث علناً وبشكل متقطع بلغة الصنج والعجم وحدها، أي لغة العزلة. بدا لي دائماً أن لغته الداخلية، لغة خفقان القلب، لم تكن سوى الشعر. القانون الفريد الذي يحكم الميكانيكا الخاصة به.

تكثّف حبي للشعر منذ أشعّت ابتهال في حياتي. كانت لديّ رغبة عميقة في الكتابة، كما لو كنت أريد أن أثبت أنها على الأقل في مجال واحد تستطيع أن تكون فخورة بي. لسوء الحظ، فهمت فيما بعد أن اهتمامها بالشعر قليل. فهي لا تحمله في دمها (مثلها في ذلك

مثل سكان مدينتنا العاديين). كنت أرتاح كثيراً لقراءته وكتابته بجنون وبصورة مرضية، كما لو كان أبي قد نقل إلي عدوى فيروس حبه للشعر من قوافٍ، وصورٍ رفيعة، ومجازاتٍ مكثّفة. أصبحت بشكل أو بآخر من مريدي هذا المشغول بكيمياء الكلمات، أبي، و"متحدثاً رسمياً" باسم شاعري الأخرس، عدنان.

وبينما كنت أعرض النسخ الإحدى عشرة على من في البيت، فخوراً وفرحاً، سمعت أمي تقول لي إن مارب جاء قبيل عودتي إلى البيت يحمل لي "شواف" للإفطار، من أزال. وما لم تخمّنه أمي هو أن هذه المعلومات العادية في الظاهر كانت بالنسبة لي صاعقة! وحين استوعبتها تماماً – لم يكن ذلك في الحال – ذهلت من السرور، وغرقت في فرح وحيد كمن يعرف في اليوم الآخر بعد حسابٍ عسير لما قدّم من خير وشر أنّ مصيره الجانب الحسن من الأعراف.

أأعيش شلالاً من الأحلام منذ الساعة السابعة؟ أيصبح هذا اللقاء المنتظر منذ أمد حقيقة؟ أهي ليلة القدر قد عادت بأثرٍ رجعي؟ أأكون حقيقةً مع ابتهال، هذه الليلة، على "كود" في مدينة الأحلام؟ حاولت فهم تتابع مفاجآت هذا النهار. ما زال صدى جملة ابتهال يتردّد في

رأسي: ''اسمع يا ناجي! ما بدأ صحيحاً يستمر صحيحاً'' (صحيح أنه في بلد ينتهي فيه كل شيء نهاية سيئة لا يكون حسناً إلا ما بدأ بداية حسنة). لاحظت أنه حتى بداية البداية كانت سارّة: ''فالشواف'' الذي اقترحتْه ابتهال، مثل ''فاتحة'' لهذا النهار، كان له مدخل مُسكِر، بسملته الخاصة به، أي نشر قصيدتي.

فكّرتُ في باريس. فكّرتُ في مدينة الأحلام. فكّرتُ في ''الكود''؛ ذلك ''الكود'' الذي سأكون عليه وحيداً مع ابتهال هذه الليلة. الكود، الكود، الكود... هذه الكلمة تخضّ رأسي في وله، تملأني بالرغبة المتعاظمة، وبأحلام منطلقة من عقالها. كنت مقتنعاً بأنني ذاهب هذه الليلة إلى عالمٍ آخر؛ إلى المجهول، الحقيقي، السعيد، المتسامي. فكّرت في ابتهال؛ تلك التي سأستنشقها وأقبّلها مع نسيم المساء العليل، بالقدر الذي أرغب، دون رقيب، ولا بطاقة تقنين، في أكثر أماكن الكون هدوءاً، وأكثرها جمالاً، في باريس، مدينة الأحلام. كنت مقتنعاً قناعةً مطلقة بأن من المستحيل في جنات عدن الجميلة أن يكون المرء أكثر سروراً مما أنا عليه هذا اليوم، نحو الساعة الثامنة صباحاً.

كل الطرق لا تؤدّي إلى "الكود". لم يكن هناك سوى طريق واحد وحيد، بعد دورات طويلة. الوحيد الآمن من أية مخاطرة. انتظرت ابتهال عند نقطة خارج مدينة صغيرة في ضواحي الشيخ عثمان، هي المنصورة، في لحظة تستعد فيها آخر أضواء النهار لمغادرة السماء بشفقها الأرجواني. سلكنا طريقاً يتلوّى كبهلوان، وكأننا "أخ وأخته" قادمان من مدينةٍ أخرى. طريق ينتهي في مدينة أخرى صغيرة هي الدرين، وهي ضاحية أخرى من ضواحي الشيخ عثمان، بالقرب من جبال الملح. وفي منتصف طريق هذا العبور القلق الذي يثير الريبة انثنينا عن طريق الدرين، ودرنا حول بعض "الأكواد" على يميننا، واخترقنا مدينة الأحلام. وكما هو معتاد في المرة الأولى، ترقّبنا وصول علي الثرثار، أمير باريس الذي لن يتأخر ظهوره، على الطريق نفسه الذي يسلكه منذ سنين طويلة، بالرأس نفسه المشدود إلى الرمل، وقنديل صغير في اليد لا يعرف إلا الله والعم مسعود، ملاك البضائع الرخيصة، من أين يأتي له بالبطاريات. لكن حياته أيضاً، مثل اسمه "المركّب" – الذي تحوّل مؤخراً من علي الأعجم إلى علي الثرثار – اتّخذت معنىً عكسياً. "إذا كان هناك شخص واحد مقتنع بفوائد الثورة فهو علي

الثرثار" هكذا قال ناشرو الشائعات في الشيخ عثمان. لأن والد حبيبته في حضرموت، والذي رفض زواج علي من ابنته "لأنه من طبقة أدنى" وأقسم أن هذا الزواج لن يتم ما دام حياً، قد فارق الحياة، بعد أن "سُحب في الوحل" وأُزيل مع من سمّتهم الثورة "الإقطاعيين" أثناء "الانتفاضات الفلاحية" المشهورة التي نظّمها الحزب.

وسُجّل في كتاب وقائع مدينتنا دون أي تعليق ساخر أن زواج علي بمحبوبته التي قاومت أباها لتصل إلى معشوقها الأوحد، وتعرضت للإهانات والشتائم، كانت مناسبة لاحتفالات ولفرح استثنائي في الشيخ عثمان (والأخير، هكذا سأقول باستعجال مَرضي يستولي عليّ عادةً). يقال إنه لم يحدث قط قبل ذلك أن كانت سلّة هدايا الزفاف مرصّعة بهدايا كبيرة وثمينة ولا يُعرف مصدرها. ربما كان ذلك صحيحاً، وربما كان مبالغاً فيه. ما أستطيع أن أشهد عليه، في المقابل، هو أنه لم يحدث أن جلبت أية "مخدرة" هذا القدر من الفرح على وجوه ماضغي القات؛ وتنافست أصوات أغاني مكبّرات الصوت في "المخدرة" مع أصوات "هون" سيارات تهذي. ولم تكن "مخدرة" النساء أقل حماسةً

(حيث رقصن مغطرفات في حبور وتأثر وهياج من كل نوع). واحتفلت مجموعات ”عشاق منتصف الليل“ في الشيخ عثمان في انفعال وامتنان وفرح بزواج حارس باريس. وما أستطيع روايته أيضاً هو أن نهر المتعة، الذي يتحول عادةً إلى صحراء بعد الغروب، كان في ليلة العرس تلك في هيجان. وقد جرت فيه المباراة النهائية في دوري كرة القدم بين أقسام الشيخ عثمان الأربعة، تلك السنة، تحت أشعة القمر احتفالاً بالعرس. وكان القمر في ذروة اكتماله، يلقي على النهر أكثر أشعته رقةً، وأكثرها سخاء. وكانت هناك قناديل زيتية كبيرة أُحضرت من البيوت ومن سوق ”تأجير القناديل“. وتوجّب أن يجلس المرء القرفصاء في مكان ما على ”الكود“ حتى لا ينسى البهجة التي تزيّن النهر المضيء. ولم تكن حلقة رقصة ”الليوة“، التي بدأت عند منتصف الليل بعد انتهاء المباراة النهائية، مزدحمةً بهذا القدر عند الفجر. وشارك في رقصها حوالي عشرة من زملائي في المدرسة الثانوية على نحوٍ لا يكلّ، وأربعة على الأقل من زملاء الدراسة غابوا عن الوعي بعد جرعات مبالغ فيها من الكحول. ولم يكن علي الأعجم، الذي كان ينتظر صامتاً مثل رمل باريس منذ ربع قرن، في يومٍ من الأيام

منفعلاً ومرحاً بهذا القدر. ويقال إنه من اقترح تغيير اسمه "المركّب" إلى علي الثرثار. أما أولئك الذين فضّلوا دائماً تسميته "على أبو شنب" تمجيداً لشاربه الأسود النحيل، فقد كان ردّ فعلهم بالمثل أن سمّوه في الحال "علي أبو بلا شنب" على الرغم من المحافظة الصارمة على شاربه.

خطا حين لمحنا بضع خطوات أمامنا، ووجّه مصباحه اليدوي بقوة نحو زاوية نصبح فيها في مأمن من أية نظرة متطفلة، سمّيتها "مضيق ابتهال"، وسمّتها هي "مضيق رأس الرجاء الصالح"، ثم مضى في طريقه. وكان يرتدي قميصاً أسود وبنطلوناً رمادياً بلون شعره، وعيناه السوداوان مثبتتان على الرمل. فرّت بسمة طفل صغير من شفتيه. بذلك بارك انتماءنا إلى مدينة الأحلام ضامن الحب وحارس باريس. أخفانا هبوط الليل في هذا المكان في شكل موجات. أحببت فيه رؤية الغسق يتبدّد بهدوء في عيني ابتهال ويتّحد مرحاً في خضرتهما الكثيفة. هنا يبدأ السلام، في مضيق ابتهال، حيث لا نمشي في خط متعرج إلا ثلاث مرات، ندور حول بعض "الأكواد" المنخفضة، قبل أن نصل إلى "الكود" الكبير الذي حدّده لنا علي.

وما أن شعرت ابتهال بالاطمئنان حتى خلعت ''شيذرها'' وعطّفته وحوّلته إلى صرة صغيرة. أعجبني فيما بعد حفظه في يدي كأنه لمسة حانية من جسدها (كانت ''شياذر'' تلك الفترة من الحرير، خفيفة وسوداء ومتموجة وناعمة الملمس. يفوح من ''شيذر'' ابتهال خليط رائع من العطر والبخور). ثم أسلمت ساحرتي نفسها للرمل متّخذةً من الليل حجاباً مطلقاً. ثم تلألأت حياتنا الملونة بلون ''الشيذر'' سعيدةً معطّرةً نقيةً متألقة. أصبحت جميع الأحلام فجأةً حقيقة، هنا في مدينة الأحلام.

وكانت السماء المزينة بآلاف النجوم الرقيقة والمتواطئة، والمطرّزة بجزر صغيرة من الضوء الناعم، وبقمر رؤوف ومشجّع، شديدة القرب من رأسينا. أحببناها بجنون، أنا وابتهال. وأحببنا أيضاً هذا النسيم الليلي العليل، وهذا المحيط من الرمل الناعم الذي يقدّم لنا جسده المسترخي. وكان ردفه مكاناً للتحرر، ولأحلام بلا قيود. سمّته هذه الهاربة الأبدية المتعطشة لحياة مستقرة: العرش. وسمّيته أنا الذي لا أحلم بغير الترحال بعيداً عن الأقسام الأربعة لسجني المستطيل: الهودج. وكان في الوقت نفسه قصرنا الرائع المنبثق من فوق ''الكود'' – الجبل الذي يحتضننا من

أعلى، وهودجنا السائر في قافلة العطر والهيل التي تأخذنا نحو اللانهاية، حتى ظل بي على ٢، نحو هذه القمة – "سدرة المنتهى" كما سميناها أيضاً – ترفع دورياً كائنين متعانقين، في إسرائهما الليلي، في عروجهما نحو الأعلى.

توحّد كل شيء عضوياً على "الكود". الهواء والليل. ما هو متناهٍ في صغره وما هو متعاظم بلا نهاية. هذه المليارات من النجوم، ومن حبات الرمل. النور المعتم القادم من الشيخ عثمان على بعد بضعة كيلومترات عن هذا "الكود" يذكّرنا من وقت لآخر بحدود حلمنا، بمدينتنا القابعة على الجانب الآخر من الأعراف. مدينتنا التي تنتظرنا. آه لو أن هذا "الكود" خارج الزمن! لو نستطيع أن نتبادل عليه قبلةً لا نهائية أو ما كنا نسميه ق. م. أ – أو كلمة لا علاقة لها بالقاسم المشترك الأعظم بتعريفه الرياضي. كلمة في لغة حميمة شيدت على "الكود" – إلى ما لانهاية! لو نستطيع البقاء هنا ليلةً كاملة. على الأقل ليلة واحدة! بدا الليل من هذا "الكود" جميلاً على نحو لا يصدق. وبدا الرمل ندياً منعشاً، وسعيداً على نحو ظاهر، يتأمل الليل، ويتنفسه، ويقبّله، ويكبره، ويذوّبه. ومثل الرمل، تأملتُ ابتهال واستنشقتها، وقبّلتها، وأكبرتها، وذبت فيها. وثملاً

رأيت بريقَ عينيها الفضي. وتذوقت في ورع نور القمر يتّحد في رقة بشرةٍ مكشوفة، لجسدٍ نقي. تكلّمت ابتهال على جزيرتنا مستلقيةً، ضاحكةً بحرية، فانبجست تلك الجزيرة بالفرح والحيوية. وكانت عندي كل إشارة وكل حركة تصدر عن ابتهال زهرةً تنمو، وهديةً مقدسة. وكل خطوة من خطوات ابتهال نحو "الكود" قبلةً على شفاه الأمل، وهزيمةً للمحرّمات وللشقاء.

لو طلبتم أن أربط كلمة "كود" بكلمة أخرى كما في لعبة "الحافز – الاستجابة" لقلت إنها "هيل". من يعرف! على هذا "الكود" في الواقع استنشقت ابتهال بلا انقطاع. استنشقت بلا ارتواء وجهها الرائع المعطّر بمذاق الهيل ينبجس غزيراً وبلا انقطاع من شفتيها، ومن أنفاسها: فهي تمضغ بفترات زمنية متقاربة بضع حبات من الهيل في اليوم، فينتمي عطرها عضوياً إلى لُماها، وإلى وجهها، وإلى نظراتها، وإلى نهديها، ويعطيها شذىً يمتزج برحيق خلاياها، مثل العنبر في المسك، مولِّداً رائحةً ملائكية تتداخل بمرور الزمن مع جوهر معبودتي. إنها رائحة رسالتها الغامضة المعطّرة المدسوسة بين غلافَيّ دفتري الخاص بدرس الجغرافيا. ومثل الليل، كانت ابتهال جميلة، على نحو لا يصدق. ولم أكتشفها في الواقع

كاملةً إلا على "الكود". روت لي طفولتها، والمدن التي عرفتها، وأفريقيا، وعائلتها التي مخرت عباب البحر مرغمة، والتكيّف الضروري الذي فرضه كل لجوء. استوعبت سفر تكوينها بتفاصيله الدقيقة. تمنيتُ أن أكون يوماً مُسطِّرَ سيرتها. انطبخت "مذكرات ابتهال" بموضوعاتها وفصولها على نار هادئة في رأسي، واتّخذت أشكالاً محددة حفّزت قلمي بقوة. عصفت بها كشوكة تنغرز في لحمها ذكريات أخت ولدت بين أمل وأزال، ثم ماتت موتاً غريباً قبل خمس سنين.

تُحكى الآلام العميقة بأسلوب أكثر هدوءاً، وربما أقل قسوةً، خلال الليل، والنظر مثبّت إلى الرمل. أما ألمي فقد هرب، رافضاً التعرّي في تلك الليالي التي عرضت لي ابتهال خلالها آلامها. أعددتُ كلماتٍ واهنةً، مثقوبةً، مغتالةً، للهمس بجرح ملكتي مبقورة البطن. لا يزال موتها حاضراً على الرغم من محاولاتي محو كل ذكرى له. صغت أكثر من مرة الجملة الأولى من حكاية ملكتي مبقورة البطن. ولكن بمجرد استعدادي للحديث تتقوّس الكلمات كأنها مهددة بأربعين جلاداً ذوي عيونٍ حمر، هم الأربعون جلاداً أنفسهم، الذين انبجسوا بانتظام في تلك اللحظات؛ الأربعون جلاداً أنفسهم، الذين

أخرسوني حين أوشكتُ أن أكشف كل شيء أمام عدنان وشكيب، حول ''الكود'' الذي نفضّله في نهر المتعة، غداة المذبحة. وجدتني ابتهال أكثر من مرة أرتعش من البرد. نظراتي زائغة في العدم. لعلها أحست أنني أخفي سراً، لكنها ضاعت في منحنياتي وتعقيداتي (كنت أغار دائماً من روحها البريئة ونفسها الشفافة). وأظهرتْ أكثر من مرة انتباهاً، تستمع إليّ وتحملق فيَّ بعينين ضاحكتين – عينين تخترقان قلب الليل – لتساعدني كي أتمالك نفسي وأعبّر عن مكنوني. ولكن عبثاً. كان هناك برزخٌ يمنعني من أن ألفظ هذا الشيء الثقيل الملتصق ببطني؛ هذا الدُمّل شديد الألم الذي يحرق أحشائي. كان هناك حاجزٌ لا يمكن عبوره. أهو الجبن؟ أم العار؟ شيء من النقص العاطفي (لم يحب قط من لم يكشف أسراره الحميمة لحبيبته)؟ أم لأن ألمي العميق كان قد تشوش، واختنق، ودُفن؛ كما لو أن رأس الملكة لم يُقطع أمام عينَي، وكما لو أنني لم أرَ الملكة دون أشرطة لاصقة، وكما لو أن الملكة ولدت وعليها أشرطتها اللاصقة؟

سالت دمعتان غير مرئيتين، في مكانٍ ما داخلي. سجنتا جميع أحزان العالم. نشر الليل المتلألئ بالضوء نجومه أمام عينَيّ. كان

ليلاً سمعت خلاله تنهدات الكون. خضّ باريس ريحٌ خفيفة. احتضنت الريح رائحة عطرة. كائنان يغرقان في لجة الحب بلا انقطاع، تحت نظرات النجوم.

الجزء السادس

ظل بي على ٢

تتجلّى عظمة العبث في أنه معطّر بالملهاة،
مدمّى بالملهاة؛ يحملها كأنها تاج، كأنها جرح في الوجه.

[مقتبس من كتابات عدنان]

الفصل الأول

قلت لابتهال، التي أخبرتها بقصة مدينتنا، ملائكتها وشياطينها، شعرائها ونجاريها، مآسيها وقططها، وعزلة شجرتها: "كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان هناك ولد عمره اثنان وعشرون سنة اسمه حشوان!". هكذا كان عمره يزيد خمس سنوات عن متوسط عمر الصف حين هبط من بعيد، من مكان بعيد جداً، من قرية تقع في أقصى عمق ريف جبلي قاحل في اليمن.

كان حشوان خلال سني عمره الاثنتي عشرة الأولى راعياً يسرّح كباشه الوديعة قرب قريته، وفي أعلى الجبل الصخري. يقودها ويراقبها إلى جانب والده، ثم برفقة أمه – بعد أن أسلم أبوه الروح في كمين غادر نصبته قبيلة مجاورة. قاد حشوان قطيعه بمفرده خلال السنوات التي تلت موت أبيه. من عرفه حينها لم يشكّ لحظة في أنه سيفرض الخضوع على قطيعه. كان يملك القطيع الأكثر تنظيماً في العالم. قطيع يلتزم انضباطاً حديدياً؛ كتيبة من جنود – كباش تمضي بخطى عسكرية أبدية ذات إيقاع، كأنها تستقبل أبداً رئيس دولة. وكان رئيس الدولة في هذه الجبال الجائعة

راعياً حتى النخاع، راعياً في أعماق نفسه. يستحيل أن يوجد راعٍ يتجاوز حشوان.

ولم يستمدّ حشوان نظرته إلى الكون من الثقافة السائدة. لا يشارك في فكرة تقسيم العالم إلى ثنائية معتادة بين الملائكة والشياطين، المختارين والملعونين إلى الأبد. جنات عدن ونار جهنم. الخير والشر. الاشتراكية والإمبريالية... ولا أيضاً في ثنائية أقل اعتياداً في المتوسط، بين الصفر والواحد، والنهائي واللانهائي، والزوجي والفردي، القابل للقرار وما لا يقبل القرار. ولا يرى أي خط فاصل بين من يعرفون القراءة والكتابة ومن لا يعرفون، ومن يهينون الآخرين ومن لا يهينونهم، ومن يعرفون إثبات نظرية فيثاغورس ومن لا يعرفون... كان العالم في أعماق نفسه منقسماً بين طبقتين متمايزتين من المتطابقات الرياضية: الرعاة والكباش.

كانت تفصل حشوان عن فئة الكباش مسافة لا يمكن تجاوزها، تشبه المسافة التي تفصل النار عن الماء. كان كل شيء معدّاً لأن يكون حشوان النقيض التام للكبش: فقد كان طويلاً، نحيلاً (بارز العظم، كما يقول البعض)، ذا جسدٍ مختال، قوي البنية. تنتصب في مشيته قوة عنيدة وثقة تامة. تختلط في هندسة وجهه بعض قسمات

النسر والثعبان في انسجام. وكان وجهه جذاباً على العموم، يظهر عليه بصرامة بعض السحر. لا شيء في سحنته العامة يمتّ إلى الكبش بصلة. قد يمتّ بصلة إلى أي شيء عدا الكبش. شعيرات غير منتظمة تنبت مبعثرةً هنا وهناك على وجهه، بالقرب من عينيه البراقتين، وعلى أنفه الشاذ. كانت عيناه بالأحرى متباعدتين، تتحركان حركةً آلية ترقبان كل شيء: القطيع، والناس، والله، والكواكب. وكانت له نظرة سريعة، نفّاذة، وغريزية. نظرة ذئب. فيها غطرسة ظريفة بعض الشيء. وكانت ابتسامته جذابة، لطيفة بسيطة وعصية على التفسير. ويغطّي وجهه بشكل رهيب لون الدم الأحمر. وهكذا، كما ترون، كان لحشوان جوهر مفارق تماماً لجوهر الكباش.

أدهشته الشيخ عثمان منذ وصوله إليها بعد بضعة أيام من عرس علي الأعجم. وصعقه حب من أول نظرة للمدينة التي ولدت أنا فيها. كانت بالنسبة له تجسيداً هندسياً نموذجياً للقطيع. أذهلته بعمق رتابتها المستطيلة. وجد فيها سبب وجوده. ذكّرته بيوتها، المتماثلة المتماسكة في تزاحمها الثابت، كثيراً بقطيعه الذي وهب له عقدين من سني حياته! قطيعه العزيز الذي حماه ببطولة. ومع ذلك، كان

ينقص الشيخ عثمان بشدة في نظر حشوان جبل كبير في وسط أرضها الرملية. قمة جبل إيفرست هائلة تخترق السماء، في رأسها تمثال عملاق، تمثال راعٍ أبدي يراقب المدينة ليلاً ونهاراً، ويراقب العالم كله. تمثال بلون الصرصار.

أزعجت حشوان كثيراً بعض الأشياء في الشيخ عثمان. فقد كانت مدينة بلا زي موحّد. وكانت هناك كلاب ضالة بلا عدّ تُمضي حياتها متسكّعةً في المقاهي، وبالقرب من نهرها الخيالي. وتوجد هنا وهناك مقاهٍ ومطاعم تفتح أبوابها خلال الليل كله، و"خفافيش ظلام" كثيرة تأكل في هدوء، في سعادة ونقاء وبدائية. لا، فالقطيع لا بدّ أن ينام خلال الليل. قاعدة رئيسية في عقيدة الطفل الصغير الذي شغل لياليه بإحصاء رعاياه بسبحته. خانته مدينة الطفولة الأبدية، مدينتي التي ولدت فيها. وكان هناك الكثير من الفتور واللامبالاة في الشيخ عثمان. فقد كان مكاناً يمكن التجول فيه بسلام، والضحك حتى الترنّح، وقضاء ليالي حب في مكانٍ ما على "الأكواد" وعلى شواطئ الأحياء المجاورة، دون خوف من أي شيء. لا، فالقطيع لا بدّ أن يتنفس الشك، وأن يموت من عدم الثقة، وأن يمتلك بلا انقطاع الإحساس بعدم الأمان. ومن غير المقبول،

في رأي حشوان، أن يستمتع عاشقو سرر الرمل في هدوء بهدنة تبدأ قبيل شفق الغروب، تدثّرهم سماء مطرّزة بالنجوم. لا. لا بدّ، إذاً، من تحديد مكان حصان طروادة في مدخل كل حي. يجب زرع الخوف في كل حبة رمل. الخوف من السماء، ومن الذئاب، ومن العدو، ومن المتآمرين، ومن المرتزقة الذين كانوا في رأي حشوان في كل مكان. غزاة يأتون غالباً من السماء التي يجب أن تراقب هي أيضاً في ريبة باستمرار. يهبطون، مثل فرقٍ من جانٍ مكحّلين بالطحين، هبوطاً ليلياً كما حدثتنا منذ طفولتنا الباكرة جدات حيّنا.

لم يمرّ تطفله على مدرستنا الثانوية عَرَضاً. لم يدخل من بابها الرئيسي مثل كل الناس، بل كان بالأحرى صاعقة بقرت سقفها. كان الجميع يتكلم عن هذا البدوي القادم إلى المدينة بتوصية من الواعظ الأكبر، تؤكّد على "مواهبه" الثورية وقدراته الفريدة على الفعل. وعُيّن نهائياً "بطريركاً" لمدينتنا، وقائد الشعبة التي تقطع الشوارع الرملية لإنقاذ سكانها ربما من الذئاب، وربما من الأعراس الهائجة، دون شك، وبخاصة من طوفان لا يرحم: "التساهل في المجال الأيديولوجي".

من المؤكد أن حشوان كان يملك طاقةً لا تنفد. فقد ركّز على جميع أركان المدرسة، بل وجميع أركان المدينة. لم نعد نرى أحداً غيره. لا يتعب. يجوب مدينتنا البطيئة، في جميع الاتجاهات، كأنه ألف سهم تصل من كل مكان ليدهش هذه المدينة ذات البطء الصارخ. ولعل هذا الجبلي الوسيم، بسرعة ذهنه المميزة، وتصميمه الذي يستحق الثناء، وذاكرته الحادة، كان يستطيع صنع معجزات على غرار الرعاة القدماء البارزين الذين لفتوا الانتباه إليهم بعد سنوات طويلة من الحياة مع الكباش. لكنه لم يختر مصير "جافينو ليدا" في فيلم "بدر بدرون"، الذي كان في الواقع راعياً منذ سن السادسة – وهو الذي كان أمياً لا يعرف اللغة الإيطالية حتى بلغ العشرين من عمره، وأصبح بعد خمس عشرة سنة أستاذ اللسانيات في جامعة "ساساري". لم يسر على طريق بطل رواية **لاعب الشطرنج** ميكو زنتوفيتش الذي أصبح بطل العالم للشطرنج بعد أن كان راعياً طوال طفولته. لا. لقد رُسم قدر حشوان في رسالة التوصية من الواعظ الأكبر الذي سماه "درع الثورة"، وربان سفينة تبحر في مدينةٍ مستطيلة.

لم يعد أي شيء كما كان قبل أن يضع أول قدم في مدرستنا الوادعة. بدأ ذلك برفع علم كبير في الفناء المركزي للمدرسة، يلوّح به حشوان رسمياً كل صباح قبل بداية الدروس. ولاحظ عموماً أن عادتنا في ارتداء الثياب عشوائية، وتفتقد على نحوٍ حاسم إلى الصرامة والانضباط. صدمه أن يرانا نختار ثيابنا بحرية – بطريقة فوضوية، كما قال – فقرر أن يركّز على أصل الشرّ فينا، وأن يستأصله بقوة. فأصدر مرسوماً يقضي بأن نرتدي جميعاً بدلات كاكي غليظ مفصّلة تفصيلاً عسكرياً، وأن نتشكّل صفاً بعد صفّ، في طوابير منتظمة ومتوازية أمام علمه، كل صباح. ثم صعد على منصة الفناء المركزي بصحبة مدير المدرسة الذي لم يعد في الواقع مديرها.

وكنا جميعاً نلبس ما يراه لنا سيدنا. تتماثل بدلاتنا جميعاً بلونها الكاكي – مغطاة بالغبار وببقع عرق كبيرة سوداء – تعكس على نحوٍ أخاذ خطوط أرابسك يكوّنها ملحٌ أبيض يخطّط بدلاتنا بالطول والعرض. كنا ننظر إلى ذلك الذي حوّل مدينتنا – صالون الشاي - إلى ثُكنةٍ عسكرية، مندهشين، مضطربين، نمثّل رغماً عن أنوفنا في مسرحية تُؤلَّف وتُعرض في الزمن الحقيقي أمامنا، لاهين،

مهانين، مدفوعين، جباهنا تنهمر عرقاً، والزغب[12] لامعٌ مبلل. توارت لفحات الهواء العليل الصباحية في تلك الفترة على غير عادة، واصطففنا مثل أحياء مدينتنا الأربعة نرتّل بعد مرشدنا صيغاً تضرّعيّة، وأبياتاً ثورية، وشعارات – أوراداً صباحية تطهّرنا من انحطاطنا المقيت "على المستوى الأيديولوجي"، وتطرد بعيداً عنا شياطين الكارثة.

12 شعيرات الذقن والشارب في بداية الشباب.

ما نبا هبّي ولا شارلستون

ما درينا هو صبي أو صبية

ما نبا خائن ولا خط رجعي

والجماهير كلها ماركسية

وكان حشوان، في أعماقه، قليل الرضى عن بدلاتنا الجديدة، ولذلك أراد أن تكون عليها علامات أعنف تدفع شكلها الشاعري إلى مدى أبعد، علامات تجسّد الجوهر الحميم لنفسه على ثيابنا؛ أراد أن تكون على هذه الثياب بقع داكنة مبعثّرة كمظاهر آميبا، كقطيع كباش. أراد أن يكون الكاكي الذي نلبسه مبقّعاً، مصاباً بالبرص.

أراد أن يكون لكلٍّ منا هيئة بقرة أضحية العيد. كانت هذه البدلة الخاصة برجال القوات الخاصة. بها يجسّد مهندس مدينتنا على شكلنا الخارجي نفسه ذات الألف قدم. سيحقّق قطيعته المؤلمة مع حياته السابقة، مداعباً لاوعيه، متذكّراً قطيع طفولته دائماً. كان حشوان، وقد أضناه الشجن إلى القطيع، سيستطيع أن يرى على كل طالب كبشاً في قطيعنا وتحريراً رائعاً لقطيع شجنه. لكن الرياح لم تهب كما أراد حشوان. لأن إهانتنا لم تبلغ حدّها الأقصى. لأن رغبته لم تعد قابلة للتنفيذ. إذ لم تعد هناك أية مصبغة في مدينتنا، بعد أن أغلقت مصابغ نهر المتعة أبوابها تماماً. ولم يبقَ سوى حلٍّ أخير، هو أن نلصق على بدلاتنا في كل الاتجاهات قطعاً من القماش بلون الصرصار. لكن اتّضح أن هذا أيضاً غير واقعي إلى حدٍّ كبير: فلم يعد يوجد في دكاكين عدن قماش أحمر بلون الدم، ولم يعد هناك سوى الاختيار بين قماشين: الكاكي والأزرق. الكاكي يرمز إلى الدولة، والأزرق مكرّس لإطارات الحزب.

وأخيراً، اكتفى حشوان في رضى محدود برؤيتنا نرتدي بدلات بلون واحد. لأننا في الأخير كنا في مجموعنا صورةً مكتملةً إلى حدٍّ كبير لقطيعٍ متراصّ إلى الأبد في أحشاء نفسه. فالانفصال عنه يعني

تقطيعه، وطرده، وخنقه، وقتله. ثم وقع حادثٌ غامض، مع ذلك. فقد نسي حشوان أن يحدّد لوناً لأحزمتنا. فاته تماماً هذا الأمر على نحوٍ غريب. وهكذا كانت أمامنا حرية مطلقة في اختيار ألوانها (في الحدود الضيقة لما يتوفر في السوق، طبعاً). اعتقدت اعتقاداً صادقاً أن الأحزمة البيضاء – كان يوجد في مدرستنا بعضٌ منها، في الواقع – ستكون قليلة التكيّف مع شكلنا العام. فهي في رأيي تشوّه اتّساق بدلاتنا. لماذا لم يحرق الأحزمة البيضاء؟ كيف انطلت عليه هذه الهرطقة؟ لم أجد قط إجابة شافية لهذا السؤال الذي حيّرني.

نظرت ابتهال إلى حزامي مبتسمةً مرخيةً ظهرها الناعم على الرمل متّجهةً نحو الهلال المستدير الواثق اللبني. ابتهلت الرمال والقمر معاً كي تتواصل هذه اللحظة القصيرة إلى أبد الآبدين.

الفصل الثاني

كان حشوان شبه أمي. وهذا هو العنصر الوحيد الذي يشترك فيه مع الكباش العادية. ولكي أكون دقيقاً ينبغي أن أشير إلى قاسم مشترك آخر، ربما كان مشتركاً بينه وبين الكباش، وهو أثر الجرح الملتئم الذي يستحوذ على جزء من حاجبه الأيمن. لأن البعض يؤكد أن هذا أثر مخلب ذئب في حين يعتقد البعض الآخر أنه أثر شظية قذيفة في معركة مسلّحة مع المرتزقة على حدود البلاد.

ومع ذلك، ولشنّ حرب ثقافية على "التساهل في المجال الأيديولوجي" يجب على الأقل معرفة نطق الكلمات الرئيسية في هذه الأيديولوجية. وكان حشوان، الراعي البارز – الذي سيقصفنا عما قريب من حيث هو راع بارز بـ"محاضراته الصباحية" الشهيرة – يعرف تماماً أن العصا وحدها لا تكفي لقيادة قطيع، بل ينبغي أيضاً التشديد ببراعة العلماء على نبرات الكلمات الرئيسية في لغة الكباش: بعاع ع ع... بررررر... فوووو... للي ي ي... وما أن وصل إلى المدرسة حتى غاب بضعة أيام وعرف الجميع أن الراعي يحضر دورة أيديولوجية مكثّفة ومخصّصة له.

لم تكن المدرسة العليا للكوادر، المشابهة لمدارس الماركسية اللينينية في بلدان شرق أوروبا، قد فُتحت. وخلال هذه الدورة دفن حشوان نهائياً عدم ثقافته الشاملة. فقد حفظ عن ظهر قلب جميع الأسماء التي لا يستغني عنها في وظائفه الجديدة: ماركس، إنجلس، لينين، ستالين، ماو، على هذا الترتيب (ولم يستهوِه حقيقةً سوى واحد منهم "القوقازي الجيورجي" كما كان يسميه: "البدوي" الذي روّض العاصمة. الرابع، نجمة جميع الرعاة). وأحصى مؤلفاتهم، وحفظ عن ظهر قلب على نحو لافت للنظر جميع الأسماء، والسنوات، وعدد الفصول في هذه المؤلفات. ما أن انتهت الدورة التدريبية حتى ناح على جهل الحملان في مدرستنا، حين طرح أسئلة مثل: "أقرأت **خطوة إلى الأمام خطوتان إلى الوراء** للرفيق لينين؟". أجاب الطالب المسكين بصوتٍ منخفض خجول: "لا". فدون ذكر لينين العظيم ربما اعتقد أن المقصود كتاب ألعاب أطفال. ثم تساءل الطالب المسكين بصدق ما إذا كان من حيوانات ما قبل التاريخ يعيش خارج الزمان حين عبّر حشوان عن اندهاشه الكبير واضعاً راحة كفه على جبهته متسائلاً: "كيف يمكن العيش دون هضم لينين قط؟".

التقط خلال دورته التدريبية جميع الكلمات الرئيسية، ولخّص الجمل الحاسمة. لكن كلمة واحدة ألهبت عاطفته، وهي كلمة يحتاجها لكي يلمع ويبرز، ليلوّح بثقافته المهيبة: ''الديالكتيك''. ديا... لك... تيك. يا لها من كلمة سحرية ''غير معربة'' بمقاطع ملائمة، كلمة قادمة من بعيد، بقافيتها، ووقعها الجميل. كلمة ذات صفاء مطلق! أتدعو الحاجة للتعليق على كلمة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، تشرح نفسها بنفسها مثل ''الشوكة الرنانة'' التي سمع عنها للتو في دروس الفيزياء، قبيل تلقيه الأمر العالي بأن ينسحب ''من الجبهة العلمية'' (حسب مصطلحات القيادة السياسية أو مغادرة مدرستنا حسب تعبير أقل مجازاً) لكي يتكرّس ''للجبهة السياسية''؟

كان حشوان مسحوراً بهذه الكلمة بحيث يستهلّ بها جميع جمله. وبعيداً عن أن تكون صورة أسلوبية، استخدمها لتحل محل نصف القاموس. هكذا قلت لابتهال التي أصبحت شديدة الحساسية إزاء هذه الشخصية. وعلى العموم طردت هذه الكلمة المقدسة كثيراً من الكلمات في خطاباته، مثل النزاع، والسلام، والحياة، والموت، والعقل، والهدف، والمعركة، والمناورة، والتناقض... وهكذا

سيواجه المعلقون وكتّاب سيرة سيدنا المستقبلي مشكلة القراءة متعددة الأشكال لأقواله، ولن يقصّروا في الإشارة إلى غنى آرائه، والتعدد الذي لا ينفد لأبعادها الثقافية، والدور التاريخي لذلك الذي لعله أشبع – أو أتخم في الواقع – مفهوم الديالكتيك.

كان يجب رؤية هذه الكلمة الجذابة في خطاباته وكأنها متغير متعدد القيم. استمتعت غالباً باكتشاف القيم "المناسبة" لهذا المتغيّر المقدس في جمله. وكان هذا التمرين أكثر حذقاً مما نستطيع الافتراض. لأنه إذا حدث لي أحياناً أن أكشف النقاب عن أسرار هذه الكلمة العظيمة التي يردم بها كل الحفر في حديثه، فلا يكون السؤال تافهاً على العموم، من مثل ذلك الذي قال لي فيه: "لن تكتب بعد الآن هذا النوع من المقالات. لن تكتب من الآن وصاعداً إلا مقالات ديالكتيكية"، فلم أعرف في ذلك اليوم بالضبط أية قيمة يجب استبدالها بـ"الديالكتيك" لأفهم جملته. وأحياناً كان حديثه مشكلاً بحيث يصعب حل أنظمة معادلاته، مثل عندما كان يدندن: "آه، الديالكتيك. آه، الديالكتيك. آه، الديالكتيك" مشفعاً ذلك بابتسامة خفيفة من الرضى عن النفس، ممتزجة بنفس عميق، كثير الشجن، ووالهٍ بعض الشيء. أي عبث! أي بحث مدّعٍ! ويمكن أن يقول أي مختص

بعلوم الكمبيوتر إن تصور تفاعل يربط بين هذا اللفظ القاموسي ودلالاته الرمزية مشكلة فوق طاقة البشر. "مشكلة غير قابلة للحل". والله وحده يعلم كم كنت أبله! وفي كل الأحوال "لكل إنسان مربّع سعادته، وعالمه الرائع... ولكل شخص نقطة توازنه، وتناغمه، وتفتحه". هكذا قال لنا مدرّس في مدرستنا، مضيفاً: "ابحثوا جيداً عن نقطة توازنكم التي ستفتح لكم باب كل تفتح. ستجدونها في مكان ما. ستجدونها على طريقكم. في القراءة أو الكتابة. في الحب أو في الموسيقى. في العمل أو في الخمول..." ولا شك أن راعينا المهيب وجد سعادته كما بدا لي لا في الموسيقى، ولا في الأدب؛ لا في الرسم ولا في الرياضيات، بل في هذه الكلمة ذات الرنين الغريب. وإلا لماذا هذا الفرح الداخلي الذي يستحيل إخفاؤه حين يهدهد تنهداته التي ترافق "آه، الديالكتيك!..."؟

ولم يلتهم حشوان خلال الدورات الأيديولوجية الأسماء والكلمات الرئيسية في فهرس محتويات الكتب فحسب، بل واكتشف أيضاً "قوانين الحياة". وبلغ فخاره الذروة حين أبلغنا بلهجة امتزجت فيها النبرات البدوية بنبرات الشطح الثقافي الذي اتّسمت به تلك الفترة أن "التحولات الكمية تولّد تحولات نوعية"، وأن هذا هو القانون الثاني

من ”مبادئ الديالكتيك“، وهو الذي يأتي بعد قانون ”صراع الأضداد“، ويسبق قانون ”نفي النفي“. هكذا وعظنا قبل أن يبلغ اللحظة الحاسمة في محاضراته حينما عرض بانشراح البرهان الذي لا يقبل الدحض على هذا القانون الثاني. وعرض علينا بحكمة وبأسلوب تربوي خالص ”إثباته العلمي“ حين قصّ علينا قصة درجة الحرارة التي تختلف عن غيرها، وهي الدرجة التي تصعد، وتصعد، وتصعد، ولم يستطع مقاومة الشعور بالسرور العميق الذي اجتاحه على نحو بهيج في هذه اللحظة التي تجلى خلالها في ذهنه هذا الدرس الذي استوعبه تماماً أثناء دورته الأيديولوجية. وتلاشت حينها اندفاعاته المعتادة فجأةً: ”يبقى الماء عند درجة الحرارة ٤٠ درجة في الحالة السائلة، وفي الخمسين... درجة والستين درجة... ثم فجأةً يصل إلى الدرجة المميزة، الدرجة الفاصلة، الدرجة المائة، تلك التي تقطع بعنف كل صلة بالماضي، تلك التي منحتها قوانين الحياة دور الطليعة“. هكذا واصل حديثه بروح هيمن عليها كليةً نموذج الراعي والكباش. راودتني في هذه اللحظة من حديث حشوان الرغبة الساخرة في أن أصرخ بالهتاف مع جمهور الطلبة: ”عاشت الدرجة المائة! عاشت الدرجة

المائة!"، ثم نمضي في رقصة جماعية مجنونة... فكرت أيضاً في عدنان الذي قتله الهوس بالدرجة المائة في الأحاديث "الفلسفية" لقادتنا، أو "التكرير التسخيني" لعدن كما كان يقول في نزهتنا على نهر المتعة. لكن لم يكن لا شكيب المبتلى برغبات أخيه غير الشقيق، ولا أنا المتألم من أثر النزيف الخلفي للأشرطة اللاصقة السبعة، حينها في مناطق عدنان المضطربة. ثم قفز حشوان نحو الاستنتاج، أعظم لحظات خطبه بالتأكيد، وصرخ بقوة: "تعزيز الخط الثوري!". من البراهين الكبيرة إلى النتائج العظيمة! بمعنى آخر، لم تكن مدينتنا بدرجة حرارتها التي تبلغ الأربعين سوى ثلاجة، كما فسّر ذلك عدنان. لن تبحر سفينة القائد أبداً في بحر الرمل المتجمّد على هذا النحو. يجب تحويل عدن إلى موقد كبير للعيش فيها تحت درجة حرارة تصل مائة درجة، بالضرورة. "هذا هو الشرط الوحيد لقيام حياة جديدة". هكذا صرخ سيدنا بصوت لا يضطرب، وبإعجاب بالنفس. وأضاف بلهجة أقل حدة وبنظرة ابتهاج: "لبناء حياة ديالكتيكية".

يصبّ خطاب حشوان في حدائق الشعر مثل كل خطاب يحترم نفسه. وكان حرزه الشعري أبيات قائد شاعر (كان شعر تلك الفترة

مثلها تماماً: لآلئ نادرة):

من كوخ طلاب الحياة

كوخ الوجوه السود، شاحبة الجباه

سيدق ناقوس الحياة

وستخرس الأصوات، أصوات القداسة والطغاة

سيعود مفهوم الحياة

جدلاً، فلن نقبل رضوانه ولن نقبل رضاه.

(وفيما بعد، حين أصبح "النضج السياسي" الكلمة السائدة في الحياة اليمنية، تخلى حشوان عن هذه النهايات "الطفولية". فستقوم ترجمة دينية للبلاغة المتجمدة القادمة من بلاد السوفييت بمصادرة الحروف، وتفريغ الكلمات، وقتل الصور. وسيفضّل حشوان، الذي لا يعرف سوى اللهجة العربية لقريته، اختتام خطاباته أمام رهبان القيادة السياسية باستخدام الصيغ الغامضة المنطوقة مباشرةً بلغة لينين).

ومنذ بداية إقامة حشوان في الشيخ عثمان لم يعد أي شيء كما كان سابقاً. ومُنح له الطابق الخامس من أكبر بيت صادرته الدولة تطبيقاً لقانون "تأميم المساكن". وكان هذا أغلى أمانيه. إذ أراد

العصفور النادر الإطلال على الشيخ عثمان والعيش في أعلى طابق فيها. ولا شيء أفضل من هذا يمكن أن يرضي من تعلم خلال دورته الأيديولوجية أن تاريخ الإنسانية بناية ذات خمس طوابق: (١) المشاعية البدائية، (٢) العبودية، (٣) الإقطاع، (٤) الرأسمالية، (٥) الشيوعية. ولسوء الحظ، رقم بنايته هو ٢٤٨ من شارعي، شارع النصر، القسم (أ)، الذي سُمّي منذئذٍ وحدة الثورة. ووفقاً لتوجيهات حشوان يجب أن تضطلع وحدة الثورة – الذي يمثل شارع النصر فيها القلب النابض والشارع الأسمى – "بدور قيادي" على وحدات الشيخ عثمان الثلاث الأخرى. وهكذا أصبحنا دون أن نطلب صفوة قسم الصفوة.

تفحص حشوان بسرعة جميع شوارع الشيخ عثمان. وفرض علاقاته على الجميع. وسوّد دفاتره بملاحظات لا تنتهي عن كل عائلة. وجمع تاريخ كل شخص، بتفاصيل مدهشة. كان خطه غير مقروء دائماً، ويعاني من أخطاء إملائية كبيرة. وقد حرّر ملاحظاته عن سير حياة سكان مدينتي وعن الأحداث اليومية لمرشدها الجديد بتسرع، فامتلأت بأخطاء لغوية فظيعة أكثر من الأخطاء اللغوية التي اقترفها في نصوص أخرى. وإذا قلت إن كتابته تفتقد إلى

الاتساق في الأسلوب فإنني أكون قد عجزت عن تصوير مدى ركاكتها. فليست سوى اندفاعات مضطربة، محمومة، مكهربة، وخطوط قبيحة، مريضة، تجرح الأوراق. إنها كتابة لا تبعث على الرغبة في مشاهدتها.

أشاعت ابتهال التوازن في مشاعري بلمساتها الرقيقة. وضعت رأسي على مكان ما من جسدها؛ في مكان أنساني الغرق والعواصف. كانت بي حاجة كبيرة إلى أن أتطهر، وأهرب في منحنياتها، وأن أرحل فيها، وأسكر بإكسيرها، وأن أغوص في متعتها.

الفصل الثالث

قلت لابتهال إن شخصين جذبا انتباه الراعي منذ أول تجوال له في القسم (أ)، هما: لاهب سفّاح القطط، وعدنان أكبر بطل شطرنج.

لم يعد لاهب في تلك الفترة يستخدم طرق الاصطياد التي كان يستخدمها في الماضي. فقد ولّت المرحلة البدائية التي كان يستخدم فيها "المزرق" لإطلاق الحجارة. فلم يعد "مزرق" لاهب يعثر على قطط تقفز بهدوء بالقرب من "الكدافات". فقد حولتها رائحة لاهب إلى قطط مهاجرة، تختفي بعيداً عن "الكدافات" التي أصبح فقرها أشدّ مما مضى. وانقضت بعد ذلك أيضاً مرحلة المطاردات الليلية للقطط المنكودة في القسم (أ). وفضّلت القطط أن يزداد نحولها عما قبل، وأن تعيش على سطوح المنازل تنتظر القوت الذي سوف يتسرب من مخالب الغربان. لأن لاهب كان يعرف تماماً كيف يتواجد ومعه حجارة هرمية يوجّهها نحو فريسته. كان يعرف أقصر الطرق الفرعية في المدينة أكثر من معرفة قططنا المفجوعة العرجاء لها.

وفي تلك الفترة المتقدمة جداً عاش لاهب على إيقاع نغم أفلام رعاة البقر. ولأنه كان تواقاً لخوض معركة حامية الوطيس، تليق بمقامه وبالزمن المعاصر، فقد كان يختفي وراء القناديل التي أطفأتها نهائياً حجارته المختارة بعناية. كان يكمن وحزامه محمّل بحجارة كبيرة، يراقب المرور العابر لأي قط على حافة أي سطح، مديراً ظهره للقط، يراقب على البيوت المقابلة المسار المرتعد لظل القطط، حتى تحل اللحظة الحاسمة، وهي اللحظة التي تحدث "تحولاً نوعياً" في حياة القطط؛ درجة المائة الخاصة بها بمعنى من المعاني. كان لاهب – الذي أمضى ستاً من سنين عمره الخمس عشرة في إطفاء ضوء القناديل وأرواح القطط – يمشي بخطى واسعة وقدمين متباعدتين وعينين مثبتتين على الجدار المقابل للظل المنحني لعدو تنتظره الهزيمة، وتتردد في أذنيه موسيقى مبارزة في أفلام رعاة البقر. يوجّه يديه بطريقة مدروسة في اتجاه حزامه، ويتقدم ببطء مراقباً بانتباه شديد الظل المرتعش للعدو، وظهره متجه دائماً نحو القطط. لم يعمد لاهب قط إلى الغش في مبارزاته مع القطط. يتوقف فجأةً في منتصف الطريق بين صفين متوازيين من أحياء المدينة، ثم يدور بسرعة مذهلة ويطلق رصاصته المصوبة

نحو خصمٍ شلّتْه المفاجأة. ثم يتقدم راضياً. تخترق السماء من البحر

الأحمر حتى سواحل النورماندي (في فرنسا) صرخة قط مقتول على طرف سطحٍ مستطيل.

يا لتناقض الحياة! من سيصدّق إذا قلت إن كل شيء – تمالكوا أنفسكم تماماً – كان عاطفياً على نحوٍ غريب قبل الحقبة البدائية التي كان يستخدم فيها "المزرق".

كان عمر لاهب ثماني سنوات أو تسع سنوات حين رأيته تحت نور الليل الخافت الذي يخيّم على حينا، يداعب قطّاً على الكنبة القديمة الملقاة وسط شارعنا في مكان لا يزال فيه بعض الدواليب غير المخلّعة. كان يداعب قطاً برقة ولطف قبل أن يحاول الاتصال بهذا القط في علاقة مبالغة في حميميتها. أخفقت المحاولة تماماً. فلم يستجب القط المسكين لمحاولات لاهب بالقدر نفسه من الحماسة.

ويبدو أن الإخفاق تواصل أيضاً حين حاول لاهب سراً، مختبئاً في حطام سيارة نقل (كان أحد الآثار الكبيرة في حينا متحفاً للصدأ ولهياكل السيارات المحطّمة المزينة بلطخات بيضاء من مخلّفات الغربان...)، حلَّ معادلاته الغريبة بعض الشيء. وبعدما كانت العلاقة الحميمة ممكنة في هذه الهياكل المحطّمة التي لا يمكن اختراقها، كانت مرارة لاهب أحدّ وأقوى. ماذا حدث بينه وبين

القطط في هذه السيارة؟ هل أصبح مجنوناً؟ هل اغتصب قطاً؟ أم فأراً؟ هل كانت دورات غضبه العنيف اللاحق من القطط دون علاقة بإحباطاته العاطفية في السيارة نفسها؟ هل عضّ قطّ ذكره؟ قال لي عدنان: ”لو أن للاهب فضيلة واحدة فهي كونه التوضيح المشخّص والتجسيد النموذجي للعبث الوحشي الذي استولى على عدن“. لم أعر هذا النمط التربوي في التعبير الذي بدا لي ثقيلاً ومهووساً أي اهتمام؛ إلا أن هذه الدلالة الرمزية بدت لي مع الزمن أقل غموضاً، وصحيحة ومدهشة.

من بين الحالتين اللتين استوقفتا حشوان منذ وصوله إلى الشيخ عثمان تمّ حل حالة لاهب على نحو إيجابي (إن جاز لي القول)، على الأقل من وجهة نظر القطط في ما كان سابقاً القسم (أ). لقد حرّر حشوان القطط من الطاغية، فلم تعد مدينتنا في عيونها – غير المفقوءة بالطبع – سوى معسكر اعتقال. فشعرت بالاطمئنان ووضعت نهاية لتشردها على سطوح المدينة. عادت للعيش بهدوء على ”كدافاتها“ الأبدية. إلا أن حشوان لم ينقذ قططنا حفاظاً على جنس من الحيوانات في طريقه إلى الانقراض. أو ربما لأنه وجد أن

لاهب منجم من مواهب خفية وطاقات هائلة تتدفق ولا تستغل كما ينبغي.

كانت حينها "مدرسة أبناء البدو الرحل" قد وُجدت، وكانت قد ازدهرت في الصحراء على بعد عشرات الكيلومترات من عدن، وكانت، كما يشير اسمها جزئياً، تهدف إلى تعليم لغة الأسلحة لأولاد البدو الرحّل، الذين عُدّوا حينها مكونات "نوع بشري" فريد في خصوصيته، يمتلك مواهب ثورية ثمينة؛ أي الصفوة المستقبلية للعاملين في التحليل الأخير. فابن البدوي، الذي أعطته الثورة كل شيء بانتزاعه من سيطرة أب متشرد، سيجعل الثورة كلها بيتاً له. إنه خير مرشّح "لتعزيز النضال الثوري". ولم يُستبعد أن يساهم ابن مدني في تكوين النواة الثورية لأبناء البدو الرحل، شرط أن يثبت أنه، على نحوٍ لا يقبل الشك، ظاهرة غير طبيعية، وأنه "طفرة نوعية استثنائية" وفقاً لمصطلحات تلك الفترة. ألم ينسلخ ماركس نفسه نهائياً، حسب بند الأسئلة والأجوبة الثابت في تلك الفترة، عن طبقته الاجتماعية، ليصبح بروليتارياً إلى الأبد؟

وكان ماركسنا المعجزة سفاح قطط. ففي ذات يوم، نحو الساعة الرابعة صباحاً، ذهب قائد مدينتنا بنفسه، يحرسه ثلاثة معاونين،

للبحث عمّن وقع عليه الاختيار، وصفوة المصطفين في قسم الصفوة، إلى بيته، محرراً إياه من السجن العائلي. وفجأةً أصبح لاهب (الذي لم يغادر الشيخ عثمان قط، ولم تكن له أية متعة قط سوى أن يكون قنبلة الزوايا القائمة لشوارعها، وأن يطلق سماع اسمه صرخات القطط والسحالي وقناديل الضوء) ابنَ بدويٍّ مرتحل، وبؤبؤ عين المدرسة الهادية للصفوة الثورية.

لقد غيّرت المدرسة المتميزة اسمها مرتين خلال سنوات دراسته لتعكس التحولات الأيديولوجية للحياة السياسية. فقد أعيد تسميتها، أولاً، إلى "مدرسة النجمة الحمراء" مبتعدةً تماماً عن التسمية الأولى، التي اعتبرت الإشارة فيها إلى "طبقة" أبناء البدو الرحل – التي لم يعطِها ماركس "دوراً طليعياً" ولا أية كرامة خاصة – غير أصولي إلى حدٍّ ما. ثم ألغي بعد بضع سنين آخر اسم، وهو الاسم الذي كان له على الأقل قيمة مجازية وعُدّ، للأسف، غريباً غير مفهوم. إذ سُمّيت أخيراً "مدرسة البروليتاريا". إنه اسم لا يمكن أن يزايد عليه أي اسم آخر في سلفيته. فمن كان سيجرؤ على الحديث عن الهرطقة أو عن الانحراف الطفولي في اسم واضح ومتقن

كهذا، وأصيل ونبيه أيضاً. كيف لا يحسّ المرء بالسرور لما تتمتّع به "القيادة السياسية" من نضج سياسي.

قابلت لاهب عند أول خروج له من مدرسة أبناء البدو الرحل. كان قد نحل كثيراً، وكان يتحدث بصورة مختلفة. كانت نغمات صوته أقل قوة، وأحياناً غير مسموعة، وكان لديّ انطباع بأنه يهرّ كالقطط بصوت خفيض، وهو الذي كان له فيما مضى صوت كالرعد. تأملت "النضج الثوري" البادي في نظراته. وفجأةً أصبحت ابتهال، التي تحب القطط وتلعن لاهب، تشفق على هذا المتعقل الجديد المغرم، هو أيضاً، بالكلمة المدلّلة عند سيده. نظرت إليّ ابتهال، التي كانت بطبيعتها تحب الضحك، مرتبكةً، حين همستُ لها: "إن هذا المريد دون قيد ولا شرط قد نشر ديالكتيكه بنفس غزارة حفيد هيجل تقريباً، فأصبح الرأس المفكّر الثاني في حلقة علماء الديالكتيك في الشيخ عثمان". وطرحت علي ابتهال، التي كثيراً ما وجدت حديثي عن وباء الديالكتيك مكروراً، سؤالين في مرارة: "لماذا أصبح الديالكتيك مرضاً معدياً في الشيخ عثمان؟ وأية جريمة اقترفتها مدينتنا الصغيرة لتكون مسرحاً لهذيان أحمق؟".

وكان عدنان الشخص الوحيد الذي لم يتكلم معه حشوان قط. فقد استرعى عدنان اهتمام راعينا ولكن بشكل مختلف: لقد كان يكرهه بوضوح وبساطة. كان عدنان في نظره شخصاً يستحق القتل. كان يكره بقوة ودون تمييز كل ما يمسّ بصلة لعدنان. يكره شكله أولاً، إذ كان له شعر يلتفّ في حلقات دائرية ناعمة في حين لا يحب حشوان الشعر شبه المجعّد وشبه الناعم. وكان على نحوٍ تام ينبذ كل التكوينات المتوافقة (ألم يكن هذا تناقضاً لدى راعي الديالكتيك؟). لم يكن لدى حشوان ما يأخذه على الشعر الناعم أو الشعر المجعّد، لكنه لم يكن يحب أبداً الشعر المجعّد الناعم، لأنه كان يراه صنواً ”للحل الوسط“. إنه شعر طبقة ملعونة، طبقة الحرباء متقلّبة اللون، ”البرجوازية الصغيرة القذرة“، كما كان يسميها. فالبرجوازية الصغيرة في نظر مرشدنا تتحالف على نحوٍ مخادع مع البروليتاريا، مع إخفاء رغبتها الكامنة في زيادة ثروتها لتصبح برجوازية ”كبيرة“. يستحيل أن نتحلّى بما يكفي من الشك في هذه الطبقة الجبانة، الخائنة، المريضة، ذات الشخصية المزدوجة والحياة المزدوجة؛ طبقة المنافقين، والكمائن، والمخادعين الذين يحملون نفاقاً محفوراً في أعماق النفس، كما

يعتقد حشوان. ويظن قديسنا أنه إذا كان الشيطان إنساناً فلن يكون سوى برجوازي صغير تحديداً (ولأن الطلبة كانوا مصنفين – في قواعد الحياة اليمنية في السبعينيات – باعتبارهم فئة من فئات البرجوازية الصغيرة، لم يكن أمام الطالب من خيار سوى أن يمشي مطأطئ الرأس، وأن يشتم نفسه بلا توقف، وأن يواجه مأساة خطيئته الأصلية). وكان حشوان يعتقد اعتقاداً جازماً أن عدنان، مثل شعره، ممسوسٌ على نحوٍ لا شفاء منه بشيطان البرجوازية الصغيرة. كل شيء في عدنان برجوازي صغير. حتى أنفه كان يثير السخط، لأنه أنف برجوازي صغير! "أنف يهودي" كما كان حشوان يعلّق ساخراً. وقد قلّل من حظوظ عدنان أن جدوده ولدوا في مدينة بعيدة جداً عن القرية التي ولد فيها حشوان. فأصل عائلة عدنان من مكان يبعد بضع مئات من الكيلومترات عن المنطقة التي ولد فيها الراعي. كان هذا "الأممي البروليتاري" المتحمّس يكره الناس بما يتناسب والمسافة الجغرافية بين أماكن ولادتهم وقريته.

وينبغي عدم نسيان أن لغة عدنان كانت متمردة. كانت لغة شخصية. وهو ما كان راعينا يحسّ نحوه بحساسية قوية. لم يستطع، وهو الذي كان يفضّل الأفواه المقفلة، تحمّل أن يتحدث أحد

بطريقة مختلفة. كان فعل جملة عدنان ملقّحاً تماماً ضد الكلمات شديدة الحضور في لغة التهويم والتصميم المستخدمة في تلك الفترة، كما لو كانت له أذنان تعملان كمصفاتين ترشّحان كلمات وسائل الإعلام ومكبّرات الصوت المنصوبة على كل حي. آه، كم كان فعل جملته جميلاً وخيالياً وحراً! وهذا مصدر كره حشوان الذي كان يريد أن يقتلع لسان عدنان لا لشيء إلا ليوقف اقتباساته. كانت حقاً اقتباسات جميلة، وغزيرة بانتظام، تخضّ رأس الراعي مثل مطرقة تواصل الطرق. كانت تلك الاقتباسات ترمز في نظره لغطرسة الصالونات، وللخطيئة القاتلة. كانت سخرية كلمات عدنان تخنق حشوان وتبعث فيه رغبة كسر عظمة ذقن عدوه، وأن يصلب المرح ويمنع الضحك. كان فعل جملة عدنان حيواناً ضخماً في عينَي حشوان الذي كان مستعداً أن يدفع حياته كلها لكي يطعن، في نشوةٍ لا تُضاهى، هذا الفعل الرقيق والقوي والمنير.

أما عدنان، من حيث هو بطل شطرنج كبير، فقد طرد النوم من عينَي حشوان محوِّلاً إياه بضربة عصا سحرية إلى ماوي كبير، وعدو لدود لمن يمارس "اللعبة الإقطاعية التي تبثّ روح الدفاع عن الملك". ومع ذلك لم يحالف حشوان ما يكفي من الحظ لأن

الجيش الماوي كان في تلك الفترة يتراجع عن رقعة الشطرنج اليمنية. وأصبحت جملة ”long live Mao-tsi Tong“، التي كتبها خلال الأيام الأولى لاحتلاله مدينة مولدي على جدران أسواقها ومدارسها، بلغة يجهلها حرفياً، مصدراً لبعض الإحراج، إذ أصبحت بوضوح هرطقة. وأصبحت القِبلة الوحيدة حينها في بلاد السوفييت حيث كانت لعبة الشطرنج نشيداً وطنياً.

وعدنان، نجم مدينتنا، جعل من نفسه العدو الرئيسي لحشوان. أحببت حينها كثيراً أن أتعشى معه في المطاعم الصغيرة في المدينة. وفي كل مرة تقريباً كان يتكفل معجب بالبطل دفع الحساب. لكن مرات الأكل مع عدنان أصبحت نادرة للأسف. لم أعد إلى جانبه كما كنت من قبل. لم نعد معاً في الصف نفسه. تخلّى شيئاً فشيئاً عن جميع أصدقائه. فقد ازدادت مشاكله العائلية، ومشكل اندماجه بعالم متخلف عنه كثيراً، وزاد دماره الذاتي معنوياً ومادياً، كما تضاعف قرفه منذ وصول الراعي القديم. ولم يعد تقريباً يُشاهد خارج رقعة الشطرنج التي كانت ملجأه، والمخدِّرَ الذي يستطيع تناوله علناً.

وربما نظر حشوان إلى عدنان باعتباره كائناً غريباً، لا هو كبش ولا هو راعٍ. لا. إن هذا الافتراض الذي يدحض أكثر مسلّماته يُعدّ ببساطة عبثاً. لعل عدنان بدا له راعياً دون قطيع – منافساً محتملاً عموماً – وهذا ما لا يمكن تحمّله، أو بالأحرى كبشاً يطير بعيداً عن القطيع، وهذا ما لا يمكن السماح به. وعلى العكس، افتقد عدنان لذرات تصله بلا انفصام بمحرّر مدينتنا. لم يكن يحسّ نحوه بعاطفة ملتهبة. وقد يقول أي رياضي فصيح إن هذين الكائنين لا يقبلان استبدال أحدهما بالآخر. فمنذ الأيام الأولى لمقدم حشوان كان قلق عدنان واكتئابه واضحاً. ومع ذلك لم يكن عدنان ممّن يقلق بسهولة. ولم يبدُ عليه على العموم قبل ذلك ما يدل على أنه متضايق. ولا شك أنه كان، مرة أخرى، الوحيد الذي اشتمّ رائحة حروب البدو المستقبلية التي أقبلت لتبعث النشاط في أكثر المدن كسلاً في العالم. ألم يكن يستبطن الغيب كما كان يفعل دائماً، وجسوراً كما كان دائماً، وقد أنهى آخر يومية في سلسلة مقالاته بعنوان "قليل من الملح" (ساخراً في لطف من حياة المرح في عدن، في صحيفة اختفت بعيد ذلك بقليل) بجملة في غير زمنها، حارقة، أو بالأحرى شديدة الملوحة، إذ قال: "... لكن ثمة حريق يلوح في الأفق، يهرع

نحونا كحيوان متوحش جريح“، مستعيراً لقبين شعبيين هما

"الحريق" و"الحيوان المتوحش" تطلقهما المدينة سراً على الراعي.

إلا أن عدنان كان من بين أعداء حشوان (والله يعلم أنهم كانوا كثيرين) أكثرهم تملّصاً من السيطرة. لم يستطع حشوان الاقتراب من عدوه اللدود، بل أكثر أعدائه عرضةً لكراهيته. لم يكن من السهل التفكير بمبارزة بينهما – على طريقة لاهب والقطط – لسبب بسيط هو أن عدنان كان شخصية عامة محبوبة، وكانت الصحف تتحدث كثيراً عن الميداليات التي فاز بها "هذا الابن العظيم للشعب" (بالأحرى حصدها كما كانوا يقولون) في الدورات العالمية للشطرنج. ومع ذلك كان حشوان مستعداً للتضحية وخوض مبارزة غير محسومة النتيجة مقدماً مع عدنان. كان يرغب على نحوٍ مدهش في خوض معركة متكافئة! وهذا نادر. لكن كراهيته لعدنان كانت تضغط على أعصابه بما فيه الكفاية ليتعذر كبح جماحها. تستدرجه نحو خيارات غريبة. وعلى كل حال، لم يستطع إلا أن يكون مرشحاً للفوز بفضل وسائله في خوض المعارك والاشتباكات. وهي وسائل لا تعرفها تقاليد المشاجرات في مدينتنا.

أنصحكم بإخلاص ألاّ تشتبكوا مع حشوان. لن يبدأ بصفعكم. لن يوجّه إليكم أية لكمة من قبضته. ولن يرقص قط أمامكم كما يفعل أي ملاكم. ولن يلكزكم أبداً. ولن يردعكم برأسه. بل ببساطة سيغرس أنيابه التي تشبه أنياب ذئب، بسرعة خاطفة، في وجوهكم ليقطع قطعتين من خدودكم. وربما اقتطع أنوفكم.

ليس أنف عدنان على أي حال. كان يحرسه على الدوام جيشان بلونيهما الأسود والأبيض! كان لاعبو الشطرنج في الشيخ عثمان والمعجبون بعدنان، جميعهم على نحوٍ ما، حرسه الشخصيين. واضطر حشوان، من حيث هو رجل فعل سريع يستعجل الوصول إلى الغايات، إلى الانتظار والميل إلى تعذيب نفسه وهو يلمح في غضب صامت شعر بطل الشطرنج المشهور الذي يمشي بهدوء في شوارع الشيخ عثمان.

الفصل الرابع

قلت لابتهال: ”إن حالتي أثارت اهتمام حشوان“، وهي التي يثير عندها الحديث عن راعينا العزيز انفعالات مختلفة، من الاشمئزاز إلى الاهتمام، إذا لم أقل إلى حدّ إبداء شيء من الإعجاب به. ولكنه على الأخص يدفعها للضحك. أحببنا الضحك والسخرية كثيراً، باعتبارهما سلاحين من أسلحة مواجهة سنوات السبعين قليلة الضحك. فعندما يتغلب العبث، ويسود الخوف، ويتحكم البؤس، ويستولى الزيف على المدينة، لا يوجد ما يسمح بالتنفس سوى السخرية، باعتبارها رئةً ثالثة، كما يقول أساطين السخرية في الشيخ عثمان. لم تضحك ابتهال قط حين قلت لها: ”منذ وصوله إلى الشيخ عثمان قرر أن يلازمني كلعنة“. حاولتُ كثيراً فهم دوافعه لهذه الصداقة الإجبارية. ألأنني لم أكن أنظر إليه، مثل كثيرين من سكان مدينتي، نظرة احتقار، منذ أول لقاء مع هذا البدوي المضحك؟ (ينبغي أن أنبّه إلى أن السخرية الشعبية لم تقصّر في تمجيد ضيف المدينة الجديد منذ أول ظهور له. فقد أطلقت عليه الكثير من الألقاب سراً. ولم تغيّر المدارس الفكرية في مجال الألقاب

أيديولوجيتها: فالمدرسة الفجّة اهتمّت بلونه الأحمر فسمّته ''مؤخرة القرد''. أما المدرسة المهذّبة فاهتمت عموماً بحكمته وتساميه وسمّته ''أفلاطون''. وبين المدرستين مدارس أخرى مباشرة إلى هذا الحد أو ذاك، ومجنونة إلى هذا الحد أو ذاك، أطلقت عليه لقب ''الغول''، أو ''المتوحش''، أو ''الحريق''، أو ''ريتشارد قلب الغراب''، أو ''تأبط شراً''). ألأنني كنت أهتم بهؤلاء القادمين من بعيد؟ بأولئك الذين بسبب أنهم ولدوا في أماكن أخرى لم يكن بمستطاع أدمغتهم أن تكون ذات شكل مستطيل متوازي السطوح؟ أم أنه لكي يخفي وضعه شبه الأمي أحاط نفسه ببطانة – يفترض أنها نخبوية – اختارها من أوائل طلبة المدرسة؟ ألأنه عينني مساعداً له في قيادة سفينة نجاة مدينة مهددة بالغرق في عرض الصحراء؟

الحقيقة أن شيئاً كامناً فيه – كمادة أولية صالحة لكتابة رواية – قد أثارت اهتمامي كثيراً منذ بداية تطفله على مدينتنا. استهوتني كثيراً مراقبته عن قرب. لكنه للأسف كان ملتصقاً بي إلى درجة تصعب مراقبته. كانت لديه بالأحرى موهبة أن يكون قرصاناً أكثر منه نجماً صغيراً يبحث عن دور في التمثيل السينمائي. أيمكن دون

مخاطرة مراقبة هذا الثعبان الكبير وهو يطوي مدينتنا؟ هذه القنبلة التي جعلت حينا يرتعد؟ ومع ذلك، لم يكن مضجراً حقاً مشاهدة هذا المخلوق الوهّاج حاضراً بلا كلل في الجهات الأربع من مدينةٍ كسولة. ولم يكن مأموناً مشاهدته يركض في جميع الاتجاهات. في كل مكان عملياً. في جميع زوايا الشيخ عثمان. بقائمته الطويلة من المهمات اليومية. مستعجل دائماً... إن لم يكن يجوب المدينة ليتفقدها، فهو في طريقه لتجنيد جندي جديد، أو لتدريب جنديٍّ قديم. وإن لم يكن يجمع المعلومات عن تفاصيل قضاء وقتنا – قرّر أن من واجبه المقدس تحديد مكان كل فرد في كل لحظة – فهو منشغل بتكديس الملاحظات عن آرائنا وأحاسيسنا. وإن لم يكن يمشي بخطوات واسعة لإلقاء القبض على جنديٍّ تخلّف بضع دقائق عن موعده، فهو يجري نحو الخلف عائداً إلى نقطة الانطلاق. يصعب عليه فهم أن في الشيخ عثمان يجب الانتظار دائماً. لم يستطع تقبّل حقيقة أن الإيقاع المجنون والصرامة العسكرية كلمات غائبة عن مفرداتنا العدنية، وأنها تقاليد أجنبية عن مملكتنا المطبوعة بالبطء والضحك. ثم ليعوّض عن تأخره، يستعجل أكثر فأكثر حتى يبدو راكضاً ومتعدد الانشغالات، مضطراً للعدو نحو الخلف، ليكرّر

الركض نحو الأمام، على طريقة الكتابة التي تُقرأ من أولها إلى آخرها، ومن آخرها إلى أولها.

إلا أن صديقنا كان يتأسّف لاستعجاله الدائم وغير القابل للتحكم، الذي يسبّب ركضه المتكرر وسباقه المحموم في الاتجاهين. إنها اللحظة الوحيدة التي كان يمارس فيها "النقد الذاتي"، المبدأ الثوري المشهور الذي كان يعظنا بتطبيقه باستمرار، ودون تفريق، كنوع من الاعتراف المفصّل والدائم. لم يكن في هذا ما يشين في المسالك اليمنية الجديدة، عدا عن أن هذا المعترف المبجّل كان يحاول عمل أي شيء لمعرفة صغائرنا وحفظها عن ظهر قلب. إلا أن نقده الذاتي الخاص به يصاغ بأسلوب مقنع، في صيغة حكمة مميزة: "المستعجل يتبرّز مرتين!"، ناقداً نفسه كل مرة تنتهي فيها مهمته نهايةً سيئة مما يضطره لإعادتها ثانية. ويضيف قائلاً وهو يتنهد: "نحن لا نقول ذلك آسفين بما فيه الكفاية". ثم يبتسم ابتسامة خفيفة تدعو للإعجاب قبل أن يكرّر للمرة الثانية – بهدوء أكثر – حكمته العزيزة.

ولم يكن غير ذي أهمية مراقبة حشوان ثابتاً في مكانه، مستغرقاً في تفكيرٍ عميق. لأن طريقته في التركيز عند التفكير لا تفتقد هي

الأخرى إلى الجاذبية. فكثيراً ما قضى خلال فترة الصباح يعدّ الأسفار التالية لبقية يومه، في منزله الواقع في الطابق الخامس والأخير من ناطحة السحاب الوحيدة في الشيخ عثمان، بالقرب من نافذته، يفتّش بنظراته مدينةً حارّة، مخنوقةً تحت قدميه. عيناه ترتعشان مثل غسّالة صينية في مرحلة تجفيف الثياب، ينتف حفنةً من شعر إبطه الأيسر، يسحبها بالجملة. وفي هذه اللحظة بالذات يكون تأبّط شرّا في عمق التفكير. ثم ينثر في الهواء الطلق مجموع ما نتفه من شعر، ملاحظاً على نحوٍ غير واع سقوطها الهادئ على شارع النصر. "آه، على الأقل لو احترم مبدأ التناسق!"، قلت يوماً في مواجهة وجهٍ ذي حاجبٍ مستقيم وناقص، مستسلمٍ لتفكيرٍ رصين يُغذّيه إبطان غير متناسقين إلى حدٍّ كبير. وكان يفتقد إلى عبارة مجازية تتوّج تلك الحالة العظيمة للتفكير. نعم. كان يفتقد إلى عبارة غريبة لإعطاء هذه الحالة الجمالية حجماً مجازياً، لدفعها نحو بلوغ الصفاء، وحملها نحو قمة الانشداه التي كان حشوان قد بلغها. كان يقول بركاكة: "سأنتهي بمعرفة كل شيء" وهو يراقب تحويم شعره فوق شارعنا. ويواصل قائلاً بموهبة حادة لا تُنكر: "سأنتهي بمعرفة عدد الشعرات في كل مؤخرة". لم يكن البحث عن

صيغة رياضية ما دفع شاعرنا لقول هذا، بلا شك. إلا أنني أفضّل تعريفه الساذج للإنسان المستعجل على هذه العبارة قليلة التهذيب. وقد تابعني مثل ظلّي خلال الفترة القصيرة من نضاله ”على الجبهة العلمية“، ودبّر بالتوازي علاقات مع كثيرٍ من زملائي، وفرض نفسه في وسط قطيعنا، ملتصقاً مثل شوكة في الحلق. ربما لأنه عرف الاستفادة من تشبّهنا بالكباش؛ من ضعفنا وخوفنا من سلطته، وحرصنا على أن نعيش في سلام مع ذلك الذي سيحكم مدينتنا، وبخاصة لأنه عرف كيف يلتصق بضحاياه. لأنه ببساطة كان أخطبوطاً، كما كان يسمي نفسه بفخر في لحظات المكاشفة القليلة في حياته.

الله وحده يعلم لماذا، خلال إقامته القصيرة في مدرستنا الثانوية، قرر أن يلتصق بي أكثر من الآخرين. قلت لابتهال إنه فرض عليّ ”صداقته الحميمة“. لم أعد قادراً على التنفس بحرية كما كنت قبل ذلك. إلا أن هذا لم يخنقني تماماً. كان يكفي أحياناً أن أتعلّم انتزاع نفسي من المدرسة، بأن أهرب من نوافذها، وأن أعجب بالضواحي الواقعة بالقرب منها. أن أتسكّع في أغلب الأوقات. كان ينبغي أن أتعلم، من وقت لآخر، العيش متخفياً لأتنفس على نحوٍ عادي. وكان

يكفي أحياناً أن أكشف بدقة مصادر مراقبة ممتعة، أو طريفة بالأحرى، في المقابلات التي لا مهرب منها مع هذا الصديق الحميم بالضرورة. وعلى أي حال، لم تصبني دائماً حمّى الدم الأحمر. كان لديّ حرزي الواقي من جميع المخاطر، المتمثّل بابتهال التي لم أتوقف عن أن أحكي لها عن مدينتنا. لم أكن أفكّر في أعماقي ودائماً إلا بها؛ ببشرتها الناعمة الوردية؛ برائحة الياسمين والهيل، وبعينيها الواسعتين بلونهما الزمردي، وبكلماتها ونظراتها؛ بوجهها الذي يجسّد قصيدة حب عظيمة؛ بخطوتها، وبطعم شفتيها؛ بضحكتها... (كانت لقاءاتنا كل شهر تقريباً على ''الكود'' تغسلني من جميع الشرور، وتغذّيني، وتحصنني، وتزوّدني بما أعيش به كجمل يتغذّى بسنامه). تعلّمنا في ''كودنا'' كيف نعيش حياةً سطحية في مدينتنا، وأن نبتعد، ونواجه بالحبّ السري قانون الجنون. أن نوقد شعلة الضحك في مواجهة العبث الراكض. ماذا نستطيع أن نفعل سوى أن نضحك؟ ضحكنا كثيراً على حياتنا، وعلى أنفسنا، وعلى حشوان. ضحكت كثيراً دون انقطاع... وذات ليلة أصبح فيها صديقي الراعي لا يطاق؛ كريهاً بلا حدود. ليلة صدر فيها عدد من المجلة الشهرية لمدرستنا، كان آخر عدد بعد وصوله.

قلت لابتهال: كنت تلك الليلة وحيداً في ركن اللقاء في حينا أنتظر الزملاء الذين سيمرون هناك. ظننت أن بعضهم قرأ مقالي بعنوان "أحبك حتى ظل بي على ٢". كنت مستعجلاً لمعرفة ردود فعلهم. لكن أحداً لم يمرّ بعد تلك الليلة. كانت هناك شاة وحيدة تذهب إلى دكان سيف الأعمى وتعود إليّ، تلتهم الأوراق والأكياس الفارغة التي تجدها في طريقها... لم يكن هناك أيٌّ من أصحابي في محيط المنطقة في لحظة تدفّق الناس بعد العشاء، حين يستطيعون الخروج لقضاء الوقت والانشغال دون أن تحرقهم الشمس، وللمغازلة في ضوء الليل الخافت المتواطئ، وفهم لماذا اختار قدماء هذه الأرض عبادة القمر، والسخرية من حياتهم للحصول على الفرح الوحيد الذي تستطيع تلك الحياة أن توفره. سألني صوت بدأ يصبح أليفاً عندي، لفرد وُجد صدفة بجانبي، قائلاً: ماذا يعني هذا العنوان: "أحبك حتى ظل بي على ٢"؟ أجبت ببراءة سعيداً باهتمام قارئ جديد لموضوعي:

– بي على ٢ تساوي في حساب المثلثات تسعين درجة، أو زاوية قائمة إذا أحببت. وظل بي على اثنين يساوي ما لا نهاية، ورسمت

الرمز على الرمل الحار في حيّنا. وهذا يعني، إذاً، أحبك إلى ما لا نهاية.

احمرّ وجهه لمدة ثانية كما لو أنّي أعلنت له أنني أحبه.

واصل صوت الراعي الذي ظهر من العدم كعفريت نزل من السماء سؤاله:

– حول ماذا يدور المقال؟

– إنها رسالة حب. الأولى من سلسلة طويلة. مكتوبة باستخدام مبالغ فيه للكلمات والعبارات العلمية التي نتعلمها هذه السنة في الرياضيات. حاولت استخدام هذه المصطلحات الجديدة في سياق أكثر رومانسية مما هي في الرياضيات. وجدت أنها تتكيّف في سرور، وتستمتع كثيراً خارج سياقاتها العلمية المبرطمة. إنها تشبه فتيات جميلات يخرجن من حجاباتهن الإسفلتية ليستلقين على الأمواج الهادئة (رسم حشوان أمام هذا التشبيه التقريبي ابتسامة لا تنسجم مع نظرته الغامضة).

واصلت الدفاع عن مقالي أمام هذا الديالكتيكي البارز قائلاً:

– من المهم ملاحظة كيف تستطيع هذه المفاهيم الرياضية المتقشّفة المجرّدة أن تكون في خدمة قضية عاطفية وشخصية.

– قلت إنه الأول في سلسلة طويلة؟

أجبت بحماسة ملتهبة لا تخلو من الادّعاء المبالغ فيه:

– سأظل أكتب إلى الأبد رسائل حب إلى ما لا نهاية.

قاطعني قائلاً:

– لماذا كتبته؟ ما فائدته؟

اختلاجات المكر تخون نظرته... كان سؤاله غريباً عليّ فتلعثمت. بدت لي الإجابة التقليدية مثل "لأن هذا يسرّني" في غير مكانها. وهو ما تجنّبته بعناية. فلست للأسف – وربما لحسن الحظ – من نوع الأبطال الذي يمكنهم أن يستلّوا سيوفهم أحراراً، ويجرؤوا بلا مجاملة وأيا كانت النتائج على قول: "لأن هذا يسرّني!". والحقيقة أنني لا أستطيع أن أعترف له باسم ملهمتي التي تستمع إلي وأنا أحدّثها عن مدينتنا، عن آلامها وأفراحها... لم أحسّ بالحاجة لمضاعفة خوفي بتصوّرها تتصدّر قائمة من يراقبهم (إن كانت غائبة عنها). أرآها حقيقة؟ لا أظن ذلك. لو كان ذلك صحيحاً لكان شيء ما قد تغيّر فيه بالتأكيد. أيستطيع تخيّل مشيها في الظلام يملأ فضاء الجمال بالفرح والضوء؟ أؤكد أن ذلك غير ممكن. لم يدرس حشوان في دورته الأيديولوجية فرح الليل يحتضن

حبيبين على كثيبٍ رملي، ولم يتعلّم الرحيل في عيني حبيبته، وكيف يكون مسكوناً برقتها، وكيف يتغذى بالحضور الطاغي لصورتها...

قال الصديق المشؤوم:

– "أحبك حتى ظل بي على ٢!"، هذا أولاً عنوان برجوازي صغير. إنني أشتمّ رائحة المقالات البرجوازية الصغيرة من عناوينها. بلا شك، إنها حاسة شمّ ابن الأرض.

لو كان شخصاً آخر لرددت عليه في الحال: "قل بالأحرى إن عنوان مقالي منتن". لكن أبالإمكان أن "تدغدغ جملاً"؟ أليس من الأفضل أمام هذه الصرامة القاسية أن أدندن في الداخل بلحن رائق؟ كما أن عين حشوان في هذه اللحظة قد بدت خارقة وهو ما كان يحتفظ به لعدنان، وكأنني قد حللت محل عدنان بالوكالة. نظراته محمّلة بالشك المبرّر في أنني سأستسلم بسرور لعدوى كلمات عدوه اللدود وأفكاره. واصل حديثه ساخراً:

– في لحظة عظيمة بلغ فيها الديالكتيك ذروته، تكتب "أحبك حتى ظل بي على ٢".

اضطربت تماماً إلى درجة أنني نسيت أن أحلّ معادلاته ذات المتغيرات الديالكتيكية. كان بمستطاعي، لو لم أكن مضطرباً، أن

أفسّر جملته بشيء ما مثل ”عندما يبلغ صراع الطبقات ذروته“. على أي حال، كنت أقل ميلاً من أي وقت لأن أقول له ما حلمت بقوله دائماً: ”بالله عليك، دع هذه الكلمة وتوقّف عن تعذيبها“.

واصل حشوان قائلاً لي، أنا الشاعر المحبط:

– إنك فاقد الإحساس تماماً. إن عماك السياسي كارثة.

ثبّت لاشعورياً نظّارتي البائسة على عيني، تلك النظّارة التي لم تكفّ عن الانزلاق على أنفي. واصل قائلاً:

– العدو الطبقي في كل مكان. على الحدود. في كل شارع. في كل بيت. أؤكّد: في كل بيت.

فكّرت في الحال في أبي الذي لم يكن آية الله المنتظر لـ”الاشتراكية العلمية“ وهو الذي يكرهه الراعي بالطبع بقوة ويخفي خبث مشاعره. فكّرت في عدنان الذي يكرهه الراعي في وضح النهار...

– بدلاً من أن تقول هذا بقوة لشعبنا، ماذا تفعل؟ تكتب رسائل حب! بمصطلحات رياضية! إنك حقاً في حاجة إلى دورة في ”الواقعية الاشتراكية“ في المجال الأدبي.

امتلأت حينها بالهلع من السيناريو الزلزالي الذي قد يكون الراعي رسمه لي، فيأتي نحو الساعة الرابعة صباحاً ليخرجني من منزلي عارضاً عليّ دورة أدبية في مدرسة أبناء البدو الرحّل، أو لا يعلم إلا الله أين. ثم تبدّد هذا الافتراض الديالكتيكي وانمحى تماماً من رأسي دون صعوبة كبيرة، بفعل تفاؤلي البالغ والعميق. إلا أنني لاحظت أن راعينا عرف كيف يعرض "تبحّره" الأدبي الذي اكتسبه خلال أسبوع شهير قضاه في التأمل الأيديولوجي، وهو أسبوع أكثر أرستقراطيةً من الدورات العسكرية لسنوات طويلة في مدرسة أبناء البدو الرحّل. أعلن حشوان بصوتٍ أعلى:

– لا يحتاج الشعب إلى هذه الثرثرة البرجوازية الصغيرة. الشعب يحتاج إلى تعليم ديالكتيكي. ما مصطلحاتك الرياضية، وما الشعر، إلا تشدقاً أكاديمياً! ثقافة صالونات! إنني ضد هذا البذخ الثقافي بقوة. إنه عدونا الأول. فلتعرف هذا بسرعة معرفة تامة، لأنني لن أتوانى عن ترداد أن كل كلمة، وكل حرف، وكل نظرة، وكل حركة، وكل رقم، وكل نقطة... في النهاية، إما أن تكون في خدمة قضية الطبقة العاملة وحلفائها الحقيقيين، وإما في خدمة العدو الطبقي. ولا يوجد طريق ثالث. يجب أن يختار كل إنسان المعسكر الذي يقف فيه.

ثم أضاف وقد حمي وطيسه وأصبح خارج السيطرة على نفسه:

– "اللانهاية " التي تتحدث عنها مفهوم برجوازي. والرياضيات التي لا تُلفظ أعداداً تبني مصانع رياضيات ليبرالية. والشعر غير الصناعي أفيون الشعوب...

أعترف أنني، منذ تلك اللحظة، فقدت القدرة على التقاط بقية أقواله. أضاف سعيداً بدوره كصاحب رسالة، وبجمله المضيئة التي تتجه مباشرةً نحو ضمير التاريخ وإلى ذاكرة الشعوب:

– من الآن وصاعداً ستكتب مقالات ديالكتيكية! لن تكتب بعد الآن إلا مقالات ديالكتيكية!

في تلك الليلة، شيء ما، كأنه قصّ جناح أو ضربة فأس صدئة، أصابني بألم شديد في الظهر لن أبرأ منه أبداً.

الفصل الخامس

كنت سعيداً حين كُلِّف حشوان رسمياً – بعد شهرين من غزوه مدرستنا – بترك العلم وشأنه والتكرّس فقط للسياسة. اعتقدت بما هو معروف عني من تفاؤل ساذج أنه سيكون غير مرئي بالنسبة لنا، مختفياً خلف أبراج العاج السياسية، وأننا سنعود إلى حياتنا المسالمة. لكننا كنّا على موعد مع الوهم وحده. لأن حشوان أصبح أكثر حضوراً من ذي قبل. فبعد قليل، بعيد انسحابه من "المعركة العلمية" (أكانت لحظة مأساوية في تاريخ العلم؟)، ارتقى على نحوٍ لافت للنظر إلى اللجنة المركزية. وكان يردّد بفخر أنه "أصغر أعضائها سناً". وبذلك امتلك دراجة نارية زرقاء جديدة قادمة من ألمانيا، إذ وُزِّعت حوالي أربعين منها بالتساوي بين المحافظات. وامتلك أربعون من الكوادر البارزة مفاتيح هذه الدراجات الفاخرة. وقُدِّمت الدراجة المخصصة للشيخ عثمان إلى ابنها المعجزة.

كان حشوان يقطع الشيخ عثمان على دراجته النارية بأقصى سرعة، في سباق جامح مع الشياطين، كما لو كان يسعى للحاق بكل ساكن في مدينتنا. كان يعشق إثارة زوابع الهواء والغبار كما

لو كان في سباق باريس – دكار عبر الصحراء الكبرى. كان على دراجته النارية في ذروة النشوة بوضوح؛ في أوج الإعجاب بالعبقري العظيم؛ كأنه من ”أحرق أسوار الصين“ – وكانت هذه العبارة عزيزة على نفسه. انتقل مباشرةً من راعٍ إلى راكب دراجة نارية. كانت دراجته لامعة دون صدأ ولا كسر، تزمجر بغرابة في مدينة شاحبة. وكان ”نهر المتعة“ حلبة السباق المفضّلة لديه بعد الظهر، إذ كانت دراجته تمخر عباب النهر مثل حية تتخطّر في حديقة ورود. يدور حول النهر بعينين محملقتين، كما لو كان يراقب أسوار سجن، ويمشّط النهر من طرف إلى آخر لإطفاء أكثر من ابتسامة؛ ليربك أكثر من حديث، ويقلق أكثر من شخص يتمشّى... ثم يعود بسرعة نحو المدينة، الساعة السادسة بعد الظهر، في اللحظة التي يبدأ فيها علي الثرثار دورانه على النهر لسبب مختلف تماماً؛ في اللحظة التي تخرج الأكتاف العارية من ”الشياذر“ لتستلقي وتسبح في ضوء الليل الفضي، تحت سماء لا يمكن للعيون أن تغمض عنها. وتحت قميصه، في الجهة اليمنى من كمّه، يظهر سنام رُكّزت أنظارنا عليه، وأثار فضولنا. ويظهر هذا السنام بوضوح حين يكون على دراجته النارية. وحاولت كثيرٌ من

الشائعات والتحليلات في حينا كشف خبايا سرّ هذا السنام. ومع استبعاد الفرضيات التشكيلية (المورفولوجية) ذات النزعات الجنسية، يمكن القول إن عليّ أن أرجّح حقيقة أن السنام ينبغي أن يقع بين ما يطرحه المتواضعون الذين يزعمون أنه يخفي مسدساً عادياً وبين ما يطرحه المبالغون الذين يؤكّدون أنه مسدس مرصّع بالذهب؛ هدية من قائد كبير في بلدٍ راقٍ، أُعجب كثيراً براعينا الموهوب ذي المواهب الأسطورية، ”سيف ثورتنا“ كما كان يحب أن يُدعى. كان حشوان يعشق مسدسه إلى درجة أنه لا يفارقه قط. يحسّ بحاجة ملحوظة إليه في مدينة يسيطر عليها النوم واللامبالاة والأمن منذ فجر التاريخ.

كانت أناقة حشوان ستبدو جذابة فوق دراجته النارية، مدعوماً بسنامه، لو لم ينحشر في البدلة الخاصة بالكوادر. إذ كان عليه أن يرتدي، مثل جمهور القادة، البدلة الحزينة، الزرقاء الباهتة، ذات التفصيل المبالغ في استطالته. هذا الزيّ المضحك يعرض جاذبية المكرشين الملفوفين فيها، لكنه كان غير ملائم قط لذوي القامات النحيلة مثل حشوان، بل ويجعلهم يبدون في مظهرٍ مضحك. كان يستحق شيئاً آخر، هو الذي كان كرشه غير مطاطي، وظهره

مستقيماً مثل رمح، صلباً مثل جبال القرية التي ولد فيها. هو الذي كان له جسد منحوت يتّسم بالقوة والرشاقة. أقول بأمانة إن حشوان كان ينبغي أن يلبس ثياباً أخرى. كان يستحق ثياباً شخصية جداً؛ قميصاً بلون قرمزي، وفوطة ريفية ذات ألوان فاقعة – زرقاء وخضراء فضية، كما اقترحت ابتهال التي شاركتني عيباً لطيفاً يعيد تماماً اختراع عالمنا الصغير – كان ذلك سيمنحه أصالةً مميزةً جداً. وفوق ذلك، لو أن حشوان ترك شعره ينمو ليغطي أذنيه، ووضع نظارات ملونة لإخفاء عينيه المتباعدتين بعض الشيء، لتحوّل بلا شك إلى قرصانٍ ماهرٍ وجذاب يغزو صحراءنا بفخار. كان حشوان بكل تأكيد سيظهر في هيئة فارس ساحر يمتطي دراجةً نارية، يلتهب في مدينة ذات بطءٍ سعيد. وبالإضافة إلى ذلك، لو أن الله أنبت في جمجمته قرنين صغيرين حقيقيين (لا يوجد – وهذا مدح له – من له رأس مناسب أكثر منه لذلك) لكان "ذو القرنين" الحديث في فرعه الخاص بالدراجات، وقد بلغ المرحلة العليا من الكمال المبالغ في تكوينه.

كان حشوان يحسّ على دراجته أنه في بيئته. صحيح أن قطيعه الجديد زاد على نحوٍ ملموس. لكن عصاه المسدس كانت أكثر إثارةً

للخوف من عصاه الخشبية القديمة في طفولته. وكان على هذه الآلة الحديثة أكثر سرعةً بما لا يقاس. على مستوى إرادته الجامحة المتعطشة للفعالية والحضور الطاغي. وحتى أفكاره، حين يعتلي سرج دراجته، كانت بمستوى قوته الجديدة في التدخل: كانت أفكاراً عملية جاهزة للفعل المباشر أدقّ وأكثر تحديداً من حكمه الفلسفية المتعالية المجرّدة التي كانت تمسّه مسّاً خفيفاً في عشّه العاجي، في المنزل رقم ٢٤٨ من شارع النصر.

لاحت فكرة فجأةً ذات يوم في رأس حشوان، كتفاحة سقطت على رأس عابر سبيل. فكرة وظيفية جداً، أقرب إلى حاجات "السلوك الثوري" منها إلى حاجات تقدّم الفكر الكوني. بزغت هذه الفكرة البارعة في حمّى سباق دراجته النارية حول المصنع الوحيد في الشيخ عثمان، مصنع الغزل والنسيج الذي شُيّد بسخاء بفضل مساعدة الصين الشعبية، على أرض براح بين المدينة و"نهر المتعة". عرض صاحب هذه الفكرة خلال اجتماع للشريحة القيادية العليا – أهذا هو الشكل الهندسي الملائم – إنشاء نظام مراقبة سمعي بصري في مصنع الغزل والنسيج.

هكذا أراد حشوان إدخال نظام تكنولوجي متقدم في المصنع الذي لا يعاني من وفرة إلكترونية، لمراقبة كل خطوة، وكل هزة رأس، وكل شدّ حزام عند عمال المصنع. ألحّت هذه الفكرة على راعينا الذي رضع الشك من الذئاب مع حليب أمه. أراد، بحثاً عن رؤية أفضل، أن يحوّل مصنع الغزل والنسيج إلى بيت نمل (بالتحديد، بيت نمل مزوّد بسلطة مركزية مطلقة، أو بالأحرى ”مركزية ديمقراطية“ كما كان يفضّل القول حينها، قبل أن يفضّل بعد ذلك بسنوات استخدام عبارة ”الديمقراطية الحاسمة“ لتحلّ محلها فيما بعد أيضاً، في عالم أضاع رشده بسرعة، ”الديمقراطية الليبرالية“). أكان يجهل أنه يعيش في مجرة لها تصور مختلف عن العمل؟ أرجّح أن هذا صحيح. لقد نسي حشوان أنه يعيش في مملكة طيور البحر التي تنظر إلى العمل باعتباره لحظة لقاء ودي وثرثرة حرة هادئة. مملكة حلقات جماعية عظيمة حول طعام إفطار وولائم جماعية (في مكان العمل أو في المقهى المجاور)، ولماذا لا يكون في تفاعل قصير بين الإنسان والآلة في انشراح لا تعكّره الرتابة؟

كان دليله الشيطاني، الذي يرافقه في جولاته ملتصقاً بظهره على الدراجة النارية كعشيقة، مثالياً على نحوٍ واضح. لم يكن يخشى

ظهور سيده بعيداً فيما وراء مدينتنا الحلزون. ومع ذلك، لم يتوقف حشوان عن وعظنا في ”محاضراته الصباحية“ بأنه يجب أن يكون، كما قال لينين – أو بالأحرى ”رفيقي لينين“ كما كان يقول – على بعد ”عشر خطوات“ أمام الشعب، عشر بالعدد، لا زيادة ولا نقصان. فأكثر من عشر بعيد جداً، وأقل من عشر غير كافٍ، حسب تعليق الراعي القديم الذي لم يكن مع ذلك يحتاج إلى هذا التوجيه حين قاد مسيرة قطيع طفولته.

حين أسرّ لي حشوان بما اكتشفه على ظهر دراجته النارية، لسوء حظي أنني سألته ما إن كان ذلك لا يناقض تماماً المبدأ الذي تؤكّده الكتب الثورية الكبيرة الداعية إلى ”الثقة بالشعب“.

كان لصديقنا نوعان من الإجابات عن الأسئلة غير المريحة: إما أن يطلق سيلاً من مئة جملة محمومة ومتزامنة ويترك لمحدثه المهمة الشاقة المتمثلة بأن يُكوّن منها معنى (إن كان هناك معنى)، وإما – وإن وقعتم في هذه الحالة فلتقلقوا! – يتظاهر بلامبالاة تامة، كما لو لم يسمع شيئاً. ولحسن حظي أن حشوان أجاب عن سؤالي بابتسامة من حديدٍ صلب حاول بصعوبة إخفاءها (أعترف أنني لا أتذكّر بدقة ما إن كان لهذه الابتسامة ظهور واقعي أم أنها حلية

أدبية عادية اخترعتها هنا) وبسيل كاسح من كلمات لم أخرج منها بأي معنى. لم أفهم أبداً ما إن كان يريد القول إنّ هذا المبدأ قد عُدِّل بعد موت ماركس، بفقرة سرية من فتوى – لم يعرف عن هذا التعديل سوى الحواريين الكبار مثل حشوان –، أم أنه أراد أن يوضّح لي أنه ينبغي اعتبار هذا المبدأ منسوخاً مثل الآيات الشيطانية، أم أنه ربما بيّن لي أنني ينبغي أن أقرأ هذا المبدأ "ديالكتيكياً"! لأن هذه الكلمة – القاموس التي ينطقها حشوان على نحو متميز أكثر من الكلمات الأخرى التي تخرج بالتوازي، كانت لا تزال خاتم سليمان. وفي هذه الحالة الثالثة، هو وحده من يستطيع توضيح تعريف "القراءة الديالكتيكية"، ومعنى قراءته الخاصة به. إلا أنني لم أستطع فهم أنه أراد أن يبرهن لي بخاصة صحة اكتشافه على المستوى الأيديولوجي، وبحوثه حول "المراقبة الثورية" على نحوٍ عام. أكان ممكناً، في كل الأحوال، أن تخلو من قواعد جوهرية راسخة الأطروحاتُ الصائبةُ لهذا المتخرّج الكبير من "مدرسة الحياة" كما كان مغرماً بتقديم نفسه في بداية حياته المهنية، المعلّم المفكّر كما أطلق عليه أتباعه فيما بعد، وبعد الفترة التي وُصفت بالطفولية: "سيف الثورة".

قلت لحشوان بسذاجة:

– هذا عموماً يشبه كثيراً لعبة الراعي والكباش (كنت أجهل حينها أن قائدنا كان طفلاً راعياً لا يقبل لسبب ما زلت أجهله أن يقال إنه كان كذلك!).

غيّر حشوان بمهارة موضوع الحديث كما لو لم يسمعني. إلا أن رجفة تشنّج اعترت جفنه. وهنا أيضاً لا أستطيع مطلقاً أن أؤكّد حقيقة الرجفة ولا إنكار رغبة غبية إلى هذا الحد أو ذاك في أن أصنع على هذا النحو بطلاً خيالياً. ومع ذلك، لو كان هناك نظام كمبيوتر لترجمة النظرات يستطيع تفسير حركات عينيه السريعة جداً على نحو مقروء، عند حديثي عن الراعي والكباش، لظهر على شاشة هذا النظام كتاب لم يسمع به أحد. لكن، للأسف، لا وجود لمثل هذا النظام، مثل عدم وجود مولّد آلي لإنتاج الروايات الأدبية.

لم أستطع حينها أن أفترض أنني اقترفت حماقةً كبيرة وانتهكت محرّمات. لأنّي لو كنت أعلم أن صاحبنا يحاول إخفاء السنوات الطويلة التي قضاها في الرعي، ولو عرفت أن في ذلك عيباً غامضاً، لكنت صغت كلماتي على نحوٍ مختلف وتجنّبتُ إزعاج

محدّثي أو المساس بأية نقطة حساسة لها علاقة بمطلع حياته. يبقى أنّ ما يثير الإعجاب الكبير في تفكير راعينا، وهو على دراجة نارية، هو جانبه الخيالي. فقد نسي حشوان أن نظامه المعقّد للمراقبة، وميله المبكر نحو الوسائط المتعددة، كانت ستكلّف حينها جزءاً كبيراً من اعتمادات الخطة الثلاثية للدولة، والتي بلغت ٩٣ مليون دينار.

ومنذ اليوم الذي اعتلى فيه سرج دراجته النارية مشّط فارسنا الحديث الشيخ عثمان، لتستحق اسماً آخر، هو "حشوان غراد"، أو مدينة حشوان.

الجزء السابع

رغبة الجمل الأخيرة

الفصل الأول

”حشوان غراد“ هي تلك المدينة التي استيقظتُ فيها ذات يوم وحيداً، بعد أن نزفتُ دمي كله، في فراغ خنقني بالمعنى الحرفي. لم يعد لي فيها صحاب بعد أن هجروني كلهم على نحوٍ غريب، بين عشيةٍ وضحاها! كان ارتباكي ظاهراً حين وجدت نفسي فجأةً منبوذاً من أفضل أصدقائي، في سهوب قطبية من العزلة، دون أدنى سبب، دون أي ظل من تبرير.

افترضتُ في البداية أنها لعبة جماعية ممسرحة؛ دعابة فظة؛ ملهاة عبوسة أُخرجت بمهارة. ثم أحسستُ في ضيق أن من المحتمل أنها تجاوزت حدود المسرحية، وأنها من الإزعاج بحيث لا تكون ممتعة. حاولت عبثاً، وقد أحسست كثيراً بالضعف، فهم لماذا أُغلقت جميع الأبواب فجأةً أمامي وفي وقتٍ متزامن، وكيف أصبح زملائي القدامى متحفظين، يتحدثون لغةً جافة ودبلوماسية على نحو غير مألوف، ينظرون إليّ بعين يكاد يغمضها الشك الغامض، ولا يفعلون في العمق سوى شيء واحد هو الابتعاد عني.

وقد جاءني ذات يوم التفسير ببرود من الراعي نفسه. فقد أوقف دراجته النارية أمامي مضطرباً كما هو دوماً في الواقع، واعترف لي أنه أصبح متفائلاً فيما يخصّ "المراحل اللاحقة من حياتي". قال لي متخفياً وراء ابتسامة قرصان:

– يفترض أن تتحسّن حالتك الآن. أعتقد أنني سأحررك نهائياً من مرضك.

أجبت ببراءة مندهشاً:

– مرضي! ما هو مرضي؟

– مرضك هم! هذه الحلقات من أصدقائك البرجوازيين الصغار الذين سمموك بـ"تساهلهم على المستوى الأيديولوجي". لكن هذا انتهى! لقد شُفيت إلى الأبد من هذه الشرور. لا تخش شيئاً بعد الآن. لن يجرؤوا قط على الاقتراب منك... لكن لا تحاول ثانيةً معرفة كيف حدث هذا. لن تعرف ذلك أبداً.

واصل ملاكي الحارس راسماً أكثر ابتساماته التواءً:

– من الآن وصاعداً ستتحسّن صحتك الأيديولوجية بسرعة. ستستطيع أخيراً أن تكرّس نفسك للديالكتيك.

افترضتُ أنه يريد القول ”ستكرّس نفسك للنضال الثوري“... وعلى الرغم من حديثه الذي أصابني بالاشمئزاز والتقزّز، وعلى الرغم من الاندهاش المرير الذي صدمني بقوة، كانت لديّ رغبة صغيرة، فاسدة بعض الشيء، أن أسأله ماذا يقصد بتكريس نفسي للديالكتيك؟ أهو نادٍ جديد؟ لكنّي في الواقع لم أمتلك الشجاعة أو الرعونة كي أجازف. ثم ألقى منقذي العظيم مباشرةً استنتاجاته الأخيرة: ”فلنقلها مراراً وتكراراً: أن نفعل ولو في وقت متأخر خير من أن لا نفعل أبداً! والآن إلى الأمام، يا رفيق ناجي“.

كيف توصّل بهذه الفاعلية والنجاح إلى أن يبثّ الشقاق، وأن يدمّر الثقة والصلات الوثيقة التي ربطتني بأغلب أصدقائي؟ ماذا لفّق لهم عني؟ أنني مصاب بفيروس تنتقل العدوى به عن طريق النظر؟ أنني أدبّر مؤامرةً في الخفاء لإبادتهم؟ أم أن قراراً سياسياً داخلياً يمنع – لأسباب تمسّ المصالح العليا للدولة – الاقتراب مني والتحدث إليّ؟... من سيعرف الإجابة عن هذه الأسئلة سيفهم كيف تمكّن من أن يصبح هذا الوضع غير المعقول واقعاً – يوماً ما، وفي مكانٍ ما – وسيعرف بلا شك أن يفسّر لماذا وصلت حياتنا المسالمة اللطيفة إلى ما وصلت إليه، وكيف أصبحت الشيخ عثمان حشوان

غراد. وربما تمكّن في الوقت نفسه من كشف نصف ألغاز الكون. لست أنا من يملك مفاتيح الإجابة (إن كانت هناك ثمة إجابة)، لكنني بالمقابل أعرف التوكيد لوقت طويل أنه في بلد يكمن فيها الفرح الوحيد الذي لا ينفد في دفء العلاقات الاجتماعية، والصداقات التي لا تتزعزع، والضحك الجماعي، والحماسة الجماعية، تكون العزلة بلا شك أكثر صيغ السقام بشاعة. أستطيع أن أعلن على رؤوس الأشهاد أن اليوم الذي تستيقظ فيه دون أصدقاء ليس يوماً سعيداً. أيّاً كان الدافع. في مدينة تُدبَّر فيها جميع المؤامرات. لأن زراعة الشك بالتأكيد قد اجتاحت المدينة بقوة في تلك الفترة من التاريخ، حيث توجّب التزام الرقابة الذاتية، والحديث بلغتين، والتحلّي بالحذر بلا انقطاع. وطغى طيف المؤامرة الدائمة في كل مكان، وفي كل لحظة. كل واحد يشكّ في الآخرين. من الشارع وحتى رهبان الدولة، المكتب السياسي، الذي تُشبّه السخرية الشعبية اجتماعاته بلعبة الكراسي الموسيقية التي تنتهي بالضرورة بشخص مغتال. الحقّ أن لماركسيتنا البدوية، كما كان عدنان يقول، ذوقاً وحشياً حاداً في الغالب.

لكن لحسن حظي أنني كان لدي ابتهال لأقصّ عليها حكاية مدينتنا، ملائكتها وشياطينها، شعرائها ونجاريها... ملجأي الأخير ابتهال، حتى ولو لم تعد حشوان غراد، بالنسبة لنا ذات يوم، نموذجاً مثالياً للأرض الموعودة. ومع ذلك كان ذلك اليوم عيداً: أحضر لي مارب "الشواف" الصباحي السعيد الذي أشعرني أنني سأتنفس الصعداء هذا المساء، في باريس، على جنة "الكود" الخاص بنا.

حين كانت الشمس تستعد ببطء لمغادرة السماء، كنت سعيداً كأعمى استعاد نظره. غادرت الشيخ عثمان نحو نقطة لقائنا، على بعد كيلومتر من "الكود". وحين التحقت بي ابتهال كانت "أكواد" الأفق على وشك أن تلتهم الشمس، ولم يكن قد بقي سوى جبهتها الدامية لا تزال ترفض أن تنطمر. وكنا متعطّشين للحب أكثر من أي وقتٍ مضى. نتقدم خفيةً نحو "كودنا"، وجزيرة غنائنا وفرحنا، بعيداً عن حلبات الخوف وعن محيط المكائد. كان الحب ملجأنا الأخير في تلك الفترة، ومثل انهمار ماء استحمام الساعة الخامسة بعد الظهر، يغسل شقاءنا وشرور حياة أصبحت مجنونة.

لاحظت في فرح، فيما نحن نقترب من "الكود"، أن ابتهال بدأت تجرّب قرض الشعر. أحستْ بالحاجة إليه بقوة الأشياء (نُحسّ في

عدن دائماً بالحاجة إلى الحلم وإلى الشعر). ها هي مندمجة بحياتنا. تعرف كيف تهرب منها على نحوٍ رائع. قالت:

– أتعرف أدونيس؟

أجبت:

– إنني معجب بشعره كثيراً.

– أقرأت ”مرآة لمسجد الحسين؟“ حيث يقول:

ألا ترى الأشجار وهي تمشي
حدباء،
في سكر وفي أناة
كي تشهد الصلاة؟
ألا ترى سيفاً بغير غمد
يبكي،
وسيّافاً بلا يدين
يطوف حول مسجد الحسين؟

أجبت سعيداً بسماع صوتها الناعم يردّد لأول مرة الشعر الجميل:

– نعم. أعرف أيضاً ”مرآة الشاهد“ حيث يقول أدونيس:

وحينما استقرت الرماح في حشاشة الحسين
وازّينت بجسد الحسين
وداست الخيول كل نقطة
في جسد الحسين
واستلبت وقسّمت ملابس الحسين،
رأيت كل حجر يحنو على الحسين
رأيت كل نهر
يسير في جنازة الحسين.

قرأتُ أبياتاً أخرى لأدونيس أحفظها غيباً، متحدثاً بسرعة، دون أن أدع لابتهال الوقت لتتذوقه.

سألتني:

– أتعرف بودلير؟

أجبت:

– لا أعرف سوى اسمه.

– وجدت مجموعته **أزهار الشر** عند إحدى صديقاتي، مترجمة إلى اللغة العربية، في مكتبة أخيها الذي يدرس الأدب في لبنان.

استمعت باهتمام لابتهال تقرأ ”الميت السعيد“ لتسمح لي مرةً أخرى أن أكتشف على الشفاه نفسها مذاقاً جديداً، وأبعاداً أجهلها، وعوالم لا أعرفها:

على أرضٍ سمينةٍ وممتلئةٍ بالحلزونات
أريد أن أحفر بنفسي حفرةً عميقة،
أستطيع في وقت فراغي أن أفرش عليها عظامي القديمة
وأنام في النسيان مثل سمك قرشٍ يخوض في الموج.
أكره الوصايا وأكره القبور؛
أحرى من أن التمس دمعةً من العالم،
أحببت أن أفضل دعوة الغربان، حياً
أن تنزف جميع أطراف جثتي المتعفنة.

كانت جميع هذه الأشعار، المشرّبة بالحزن في الظلام الذي عاود استيلاءه على الفضاء، ستصيبني بالكآبة لو لم أستمع إليها بصوت ابتهال الرقيق. انخطفتُ بالنشوة أمام هذا الصوت المترقرق بالشعر، مستسلماً لآلهة الكلمات، لتأخذني بعيداً عن مدينةٍ كئيبة. اقتربنا من ”مضيق ابتهال“ التي وعدتني بإعارتي مجموعة بودلير الشعرية في المرة القادمة. قرأت عليّ من الذاكرة أكثر من قصيدة خلال سيرنا نحو ”الكود“. وقد أصبحتُ كائناً مندهشاً، ثملاً، مسحوراً،

ومفتوناً. أدركنا بالقرب من قمة ”الكود“ شيئاً غريباً، تمنّت ابتهال ألاّ نجد كومة زبالة في أعلاه. تساءلت:

– أهو كيس زبالة كبير معتل على ”العرش“؟

قلت لها في تفاؤلٍ زائد:

– لعله ملك الشعر جاء بنفسه ليحيّي زبونةً فاتنة مهتمة ببضاعته!

إنه بالأحرى يشبه قرناً ملصقاً على رأس ”الكود“.

لا! إنه رجلٌ متخفٍ في القمة، كما لو كان ينتظرنا.

الفصل الثاني

تساءلت في ذهول: ماذا يفعل فوق ”كودنا“؟ بأي حق يتطفّل علينا. تساءلت قبل كبح كآبتي وإقفال الباب في وجه أي قلق: أليست القاعدة المقدسة لمدينة الأحلام، هذه البلاد شبه الخيالية التي ”يشرف عليها“ علي الثرثار ويحدد مناطقها ويوزعها، الاحترام المقدّس لخصوصية الآخرين؟

قلت لابتهال:

– لا. إنه علي الثرثار نفسه وقد اشتاق إلى الحديث مع أيٍّ كان على الأرجح.

أحسستُ بالإحراج مقدّماً. إذ يقال إنه أصبح ذلق اللسان بحيث لا يستطيع أحد إسكاته. افترضت أنه لن يكون سواه، داحضاً الشائعات التي تتردّد منذ بعض الوقت حول اختفائه. تحدثوا عن سجنه على إثر موجة اعتقالات ”وطاويط الظلام“ حسب التسمية الرسمية. وأكّدوا ذلك بأنه يشترك في زنزانة واحدة – وهو ما ضايقه أكثر من أي شيء آخر – مع الصياد الأصنج المعروف في الشيخ عثمان، وهو رجل مستقيم وفاضل إلى حد أن بعضهم يقسم أنه أحد

ملائكة السماء الذين يعيشون على الأرض متخفّين في زيّ إنسان. إنه صياد وحيد، متواضع، رقيق، صامت، ذو رأس دقيق لوّحته الشمس في صرامة بلونٍ داكن؛ رأس لوّنته الشمس بلونٍ نحاسيٍّ جميل وجذاب، ضاعف الزمن سحره وتجاعيده معاً. أمضى حياته بين المسجد والبحر: إما أن يكون منشغلاً بأداء الصلاة أو بالاصطياد. ثم يبيع سمكَهُ دون أن ينظر إلى النقود التي يكسبها ويوزّعها كلها في أماكن أخرى للفقراء، لا يبقي له إلا ما يتغذّى به في اليوم التالي. كان يعيش وحيداً بلا صديق سوى البحر، ولا أي معروف آخر سوى الأمواج وسمكه. ولم يعانِ إلاّ من مشكلة واحدة: خذلته أذناه تماماً يوماً ما لسببٍ أجهله. ومنذ أن منعت الثورة الاصطياد لم يفلح أحد في أن يشرح له مخاطر البحر.

وعلى بعد خطوتين أو ثلاث نهض الرجل المختفي واقترب منا. لم يكن من تصوّرت. قدّم نفسه بأنه أحد أفراد "المليشيا الشعبية" وسأل عمّا نفعله هنا. كان في حوالي الثلاثين من عمره كما بدا لي. قلت له محاولاً بدء حوار ودّي مع هذا الرجل العسكري:

– نحن في طريقنا للعودة... من الممتع الخروج في نزهة قصيرة حول الشيخ عثمان.

سأل عن اسمَينا... وبعد أن أعطيناه اسمين وهميين قلت له بصوت تراكبت كلماته: ”إنها خطيبتي“، ولوّحتُ له بخاتمَي الخطبة. فخواتم الخطبة التي تُلبس بعد احتفالٍ رسمي في عدن دائرية ومصنوعة من الذهب الخالص. وكان خاتمانا مزيفين تماماً، مثل اسمينا اللذين قدّمناهما لرجل المليشيا. ولحسن الحظ أننا فكّرنا بالاستعداد لمثل هذا الوضع.

أضفتُ آملاً ضرب عصفورين بحجر:

– الذهب ”لحم الشمس“ كما قال قدماء المصريين.

وذلك لأخفي أثر المفاجأة بهذا اللقاء غير المتوقع، وأؤكّد صدق ما يدلّ عليه خاتمانا. إنه أسلوبي في الكذب. أسلوب مَنْ ”بدل ما يكحّلها يعورها“ كما يقول مثلنا الشعبي. رغبت في أن أعرض عليه باقةً – كثيراً ما رددتها في حياتي – من العبارات المدهشة من النوع نفسه الذي يبدأ بـ”الضوء ظلّ الله “... لكنّي توقفتُ فجأةً. كانت هذه العبارة في تلك الفترة غير مألوفة وفكرة ”برجوازية صغيرة“.

تساءلتُ في تعجّب معتقداً أنني حاذق بما يكفي لتركيز النقاش مع رجل المليشيا حول أرض الفراعنة:

– كم هو ممتع! قرأت هذه العبارة في كتاب حول قدماء المصريين، بعد ظهر يومنا هذا. يا لها من صورة جميلة! أليس كذلك؟

أشار رجل المليشيا في الحال، وقد بدا أقل تأثراً بالموضوع المقترح، إلى أن التجول خارج المدينة ممنوع – لأسباب أمنية – بعد حلول الليل، وأمرنا بالعودة إلى منزلنا في الحال. ارتحت تماماً لهذا المخرج الذي اقترحه هذا الرجل ذو العضلات المفتولة والعينين المحمرّتين. إلا أنني كنت لا أزال أرتعد من الصدمة التي أحسست بها جرّاء هذا اللقاء المظلم، على "كود" بعيد، أو بالأحرى على "كود" مغتصب... انتهيت إلى الإحساس بأنني أيضاً مالك لهذا "الكود" مثل امتلاكي لأحشائي. وكنت قد بالغت في عادة تسميته بـ"كودي".

أجبت راغباً في وضع نهاية لهذا الاجتماع الثلاثي البغيض:

– إننا نتفهم هذا الأمر.

وأضفت وأنا أشدّ على يد ابتهال للعودة دون تأخير:

– سننفذ هذا الأمر بالطبع.

أصبح الرجل ألطف من ذي قبل ونصح بلهجة أقل صرامةً بتجنّب الخروج في الأوقات المتأخرة، ملقياً نظرة خاطفة على ابتهال، ومتحدثاً عن اجتماعات سياسية سرية نجح في اكتشافها. نظر باهتمام أكثر إلى ابتهال، التي همست أن علينا أن نعود في الحال، وقدّم لي سيجارة. قبلتها بمجاملة مفرطة. ومع أني كنت مثل أبي سريع التصديق، فقد أحسست أن رجل المليشيا يخرّف بحديثه عن اجتماعات سياسية أو، في أحسن الأحوال، يعدّ أحلامه حقائق. لأن غابة ”الأكواد“ كانت أقل مواتاة للاجتماعات السياسية والمناقشات الأيديولوجية. والحوار الوحيد الذي قد نستطيع سماعه، ذلك الذي تناهى ذات يوم إلى مسامعنا، أنا وابتهال، من رجل وامرأة على ”الكود“ المجاور: همسات حب تهرب من وقت إلى آخر من حصار السرية، قبل أن تُكبت في خجل. لا يوجد ما هو سياسي في الكلمات التي تنطلق وتجعلنا نحمرّ خجلاً. لم يعد بإمكاننا، أنا وابتهال، النظر إلى بعضنا البعض، فتخفينا وراء قبلة انتصبت كتمثال، كما لو كنّا لا نسمع رعشات هذه الكلمات الرقيقة المثيرة. هذه الكلمات اللاذعة الناعمة، النقية، الرخوة التي تعرّت في بعض مقاطعها بفظاظة سامية بشذرات من الكلمات الفجّة،

الموجزة، ذات الابتذال السوقي الفاتن: كنا بعيدين حينها إلى أقصى حدّ عن أدب الاجتماعات الخشبية في تلك الفترة.

وفجأةً تغيّر شيء ما في سلوك رجل المليشيا؛ شيء ما أسال لعابه بقوة. أكان انعكاس ضوء القمر على وجه ابتهال؟ أم الروائح الزكيّة المنطلقة من شعرها؟ أم إيقاع صوتها؟ أم جمال مشيتها وقدّها الذي لا يداخله التصلّب؟

أخرج بسرعة مسدسه الذي تلألأ تحت ضوء القمر. لم تخطر في بالي فكرة التحقق ممّا إذا كان مرصّعاً بـ"لحم الشمس" مثل المسدس المفترض الذي لدى الراعي. اقترب مني بتصميم مهدداً وطلب مني أن أختفي في الحال وأتركه بمفرده مع ابتهال. فبعد أن اعتدى بنجاح على "كودنا" أراد الاقتراب من ابتهال. يا لغرابة العالم أحياناً! توجد لحظات يستطيع فيها حتى شخص مثلي لا يملك الجرأة الكافية، قليل الجسارة، قليل الخبرة في الاشتباكات، تركيز ثقله كله في قبضته على نحوٍ غير واع، ليطلقها بكل ما لديه من قوة، بسرعة شديدة، دون تفكير، مباشرةً باتجاه العين اليمنى لرجل المليشيا. ثم انطلقنا في موكب لاهث من اثنين، في ليل شديد الظلمة، مصعوقَين مذعورَين حتى أقصى مدى. جرينا كما لم نجرِ قط من

قبل، دون معرفة ما إذا كان عفريت الظلمات يتبعنا أم أنه ظل يرقص بعين دامية فوق "كودنا"، أم أن رصاصه سيداعب ركبنا بين لحظة وأخرى.

كان العبث حاضراً، متأججاً يغمر الرمل بسمٍّ منتن. ركضت ابتهال بجانبي بسرعة مثل سرعتي. تملّكها خوف فظيع. انتابها أقصى ما تستطيع من خوف. وأصابني الرعب من أن أنهار. لم يجرؤ التعب الجسدي هذه المرة على إيقافي في منتصف الطريق. كادت قدماي تطيران. كان إحساساً غريباً ومضحكاً أن تحسّ بنفسك محمولاً تماماً على قدمين تطيران (أحس بما يشبه العار لأن ظلال مرح ما انفكّت تندسّ في ظلمات حياتي كلها). فكّرتُ في ابتهال، الرقيقة، الجميلة، الهشة بحيث لا تتحمّل مطاردة ذئب شرير مسلح في الظلام. خفق قلبي بسرعة مدهشة. هدّأني إحساس قبضتي بالألم. تمنّيت أن يكون ألمها أشدّ، وأن يتضاعف مرتين أو ثلاثاً، بل ألف مرة في عين الشيطان. كنت متأكداً بأن طلقات ستخترق ركبتي، وأنه لن يصيب ابتهال أي مكروه، وأن الله سيحفظها تماماً. ثم صرت أكثر تفاؤلاً، شبه واثق بأن شيئاً لن يمسّني أنا أيضاً. قلت لنفسي: "لقد حماني الله دائماً". سرى في أعماقي شعاعٌ من اليقين،

عذبٌ مثل ماءٍ جليدي يُشرب في أقصى درجات حرارة يومٍ من أيام صيف عدن. انتابني يقين بمذاق العسل بأن العناية الإلهية لن تنساني ولن تتخلّى عني أبداً. ابتهلت إلى الله وأنا أجري، دعوته في أعماقي دون توقّف. انبجست في لحظة واحدة في ذاكرتي أجمل الابتهالات التي كان أبي يردّدها، وعاودتني دون أي خطأ، وقوّت أملي. أأستطيع نسيانها؟ أأنسى أباً كان دائماً حاضراً في جميع لحظاتي الصعبة، حتى ولو انتصب بيننا ذات يوم جدار برلين الضخم؟

حملت في يدي "شيذر" ابتهال الملفوف. ينبعث منه بقوة خليط من العطر والبخور المتشرّب به. تنفذ رائحته الجميلة إلى ثيابي المغرقة بشذروان من عرق، وتخترق جميع أجزاء جسدي المبلل. خفق قلبي خفقاناً أقوى. وأخيراً تغلّب علي إنهاك كان على وشك أن يحطّمني. كادت رئتاي تنفجران. نظرت إلى ابتهال وأنا لا أزال أجري.

زاد ابتعادنا عن "الكود" وحاذينا نهر المتعة. لم تخترقني بعد أية طلقة. تناقصت ابتهالاتي. إلا أنّ شيئاً من الخوف كان لا يزال يدفعني؛ خوف يداخله من وقت لآخر اندهاشٌ سعيد أمام حالة قدمَيّ

المنطلقتين دون سيطرة عليهما، ومن إحساس مصدره "شيذر" ناعم، بارد لطيف، رقيق معطّر.

ها نحن على حدود الشيخ عثمان حيث ينبغي أن نفترق سريعاً. تراجع انصدام ابتهال بوضوح مفسحاً المجال لابتسامة انتصار خفيفة. تضاءل انصدامي أيضاً. عاودتني حينها تلك الرغبة التي لا شفاء منها في أن أذوب في ابتهال، وأن أذوب عليها، وأقبّلها بلا انقطاع، لنكون تمثالين التصقا إلى الأبد وإن استحال نصبهما في هذا المكان.

وقبل أن نفترق بسرعة، توافقنا على أن نناقش فيما بعد هذه المفاجأة الوحشية، لنرسم استراتيجية للقاءاتنا القريبة.

فيما بعد. فيما بعد. فيما بعد.

الفصل الثالث

واجهت "فيما بعد" هذه صعوبة قاتلة. فقد افتقد المنزل رقم ٣٧٣ كل حركة بشكل حاسم، بعد ذلك بيومين. كنت أتمشى ذلك الصباح أمام بيتنا كما اعتدت ساعة خروج ابتهال للذهاب إلى المدرسة، راغباً، كما اعتدت، في أن أملأ عينيَّ بصورتها المشرّبة بالضوء الباكر البارد الآسر. لكن باب المنزل رقم ٣٧٣ بدا راكداً بلا حراك، كما لو كان مغلقاً بالمفتاح. لم يعد يظهر منه لا أزال ولا مارب. لا شيء يحرّكه. عصف بمنزلهم بردٌ جليديّ، تعاظم في جميع منعطفات شارع النصر. وبُعيد بضع دقائق عبر شارعنا خبرٌ يقول إن أسرة ابتهال هربت سراً من الجنوب.

وكما هو معتاد فاضت الإضافات والتعليقات في شارع النصر، وتتالت الروايات وتعارضت، بعضها أخصب من بعضها الآخر. وأكّدت الصيغة الأرجح أن العائلة غادرت المدينة تحت جنح الليل نحو الشمال. ووفقاً لهذه الرواية، سرّب الراعي منذ بضعة أيام شائعة تقول إن هذه العائلة شديدة الخطورة. لأن أباها العجوز، الذي لسوء حظه أنه وصل من السعودية قبل أيام قليلة لقضاء

عطلة، جاسوس دولي: ״خبير كبير متخصّص في نشر الثورات المضادة״، كما أشاعت ببراعة واندفاع مكاتب التجليات الساطعة في الطابق الأخير من المنزل رقم ٢٤٨، من شارع النصر. أشاع حشوان أيضاً الشك حول هرب قريب نحو الشمال... كان لشائعة ״هرب إلى الشمال״ في عدن، وهرب إلى الجنوب في صنعاء، خلال تلك الفترة، رنين حاد، شديد الشؤم. إذ اختُرعت لتخلط بمكر بين ״المختفين״ وآلاف الهاربين، لتخفي في الحقيقة معنىً آخر، أكثر كمداً وقصراً وتحديداً.

لكن لحسن الحظ أن الشائعة لم تكن مجازية هذه المرة. فقد هربت عائلة هؤلاء المنفيين الأبديين (كما ينبغي، بسرعة شديدة، وفي سرية تامة، صفر اليدين) لتصبح حقيقة على الجانب الآخر من الحدود. جاء التأكيد بعد بضعة شهور من خلال طرد وصل إلى بيتنا يحمله عمّ لابتهال نزل من قريته في الشمال. قالت لي أمي التي أصبحت الآن قادرة على قراءة الكلمات على ظاهر المغلف:

– أحضر لك رجل هذا الصباح طرداً مرسلاً من أزال.

كان اسم أزال الذي عرفت أمي قراءته دون خطأ مكتوباً للتمويه على مغلّف يحوي مجموعة **أزهار الشر** الشعرية ويتوجّب عليّ

لإزالة الشك أن أضعها في ظرف يرسل بالبريد من ابتهال إلى صديقتها. وكان في الطرد أيضاً رسالة طويلة كتبتها ابتهال بعيد وصولها إلى قرية أبيها، ترقد منذ شهرين في الظرف، شرحت فيها أن أباها أمرهم بالرحيل حالاً، وتفصّل كيف غادروا عدن، وركضهم ليلاً، ورحلتهم المرهقة. كانت ابتهال تنتحب في رسالتها، من قدرها، ومن مآسيها. قرأتُها محطّماً. قالت إن الحديث يدور من حولها حول عرس كبير رُتِّب بينها وبين أحد أقاربها (لم أشك قط في أنها محكوم عليها بأن تكون فريسة لجميع الأطماع). اتّفق "المعنيون الثلاثة": الزوج والأبوان. هكذا تهكّمت في شجاعة. كان بين أبيها وعروسها أعمال مشتركة في السعودية.

"إنهم مصممون على إرغامي على هذا الزواج. لكنّي لن أخضع. يتوجّب علينا مع ذلك أن نتزوج حالاً بأي ثمن كان قبل أن يفوت الزمن ويحدث ما لا تُحمد عقباه". ومضت تشرح لي كيف أن الزواج هناك يقاوم أي تغيير منذ قرون، ثابت كما هو، دنيء ومهين، قائلةً: "الزواج صفقة رابحة باهظة الثمن". قالت إنها فقدت الرغبة في الضحك، وإنها تعاني من بردٍ دائم. كانت ابتهال تحلم بالعودة إلى عدن حيث يحرم "قانون الأسرة" تعدّد الزوجات

والزواج بالإكراه وبيع المرأة. كتبت تقول: ”الحياة في عدن جنة بالقياس إلى الشمال!“. الحق أن عدن من المدن النادرة في العالم التي يحسّ المرء بالرغبة في مغادرتها بمجرد وصولها، وبالعودة إليها لحظة مغادرتها. تحدثت ابتهال كثيراً عن حنينها إلى عدن، وإلى ”الكود“، وإلى شارع النصر. كانت كلماتها محمّلة بالحب، بقوة لا مثيل لها. إنه الحنين الذي يُدمّر كل الحدود، وهو ما يعجبني أكثر من غيره في الابتعاد. لأن الرسائل الطويلة التي كتبتُها إليها منذ رحيلها مشبعة بهذا الحنين الملتهب المفعم بالحب، والمروّع وشديد العاطفة. لم أتوقّف عن الكتابة إليها – بلسانٍ ذلق مثل دموعي المنهمرة، مغيثٍ كمرفأ أمان – لكنّي لم أستطع قط إرسال تلك الرسائل. لأنه حتى لو تمكّنت الاتصالات البريدية بين الجنوب والشمال من أن تعمل بمعجزة، كان ينبغي أن أتذكّر أن العناوين في مدن الشمال تقريبية وصفية في الغالب (دون رموز أو أرقام) ؛ أما القرى فهي بلا عناوين، بلا اتصالات.

وما أن فرغت من قراءة رسالتها حتى أسرعت إلى بيت عمها باحثاً عن أخبار طرية. كان عمها رجلاً خمسينياً بثياب متواضعة، وبدا التعامل معه صعباً.

– اسمي ناجي. كانت رسالة أزال مرسلة إلي. لماذا وصلت بعد أكثر من شهرين؟

– أخّرتُ سفري لأسابيع بسبب زواج.

– أأستطيع الحصول على أخبار عن ابتهال، لأننا ننوي أن نعلن خطبتنا قريباً.

– إنني أتحدث عن زواجها يا بني.

وأضاف بصوتٍ مرتعش ومتقطّع إنها ماتت في اليوم نفسه.

لا أعرف كم أخذت من الوقت لاستيعاب هاتين الجملتين (أتذكّر أنه كان وقتاً طويلاً)، لكنني أعرف أنه انتزع شراييني، وصعقني. أتذكّر أن ذراعيه أحاطتا برأسٍ يذرف أكثر دموعه حرارةً، وأغزرها. وأتذكّر بخاصة – وهذا ما لن أنساه أبداً – أنني تمنّيت الموت في الوقت نفسه، لي وللإنسانية كلها كذلك. تمنيت أن يغرق الكون في عدمٍ شامل، وأن يختفي بأكمله في الحال دون أن يحسّ به أحد، ودون أن يعاني أحد أو يتألم. أشبهت طفلاً بائساً يلفظ أمنيته الغالية وحيداً في الظلمات، راغباً في أن تتنازل الحياة عن عرشها حالاً، وأن يهبط ليلٌ أبدي على الكون دون عذاب، ودون أن يمتلك أحد من الوقت ما يسمح له بالإحساس بهجوم العدم الكوني. أية

راحة! لا وجود لأي عالم، ولا لأي شخص، ولا شقاء، في الحال!... كانت هذه الأمنية خلال لحظة طويلة أقوى وأصدق ما أملك من تعزية.

أتذكّر أيضاً أن العم قال بعض الجمل المتعلقة بحتمية الموت، وبعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن القضاء والقدر. لكنني لا أعرف بأية صيغة نطقت جملي المبتورة، وكلماتي المتلعثمة الحزينة، قبل أن أنطق نطقاً صحيحاً كلمة ''كيف؟''.

سألت مخنوقاً بنحيبي:

– كيف ماتت؟

– حان أجلها يا بني.

– نعم. نعم... لكن مِمَّ ماتت؟

– العلم عند الله، يا بني.

صحيح. ليس لسؤالي سبب وجيه. ليس له معنى في النظام المنطقي اليمني. نموت في اليمن كما نشرب الماء. الموت في اليمن حي، ويومي، وعادي، وجودُه طاغٍ. فإن لم نمت من طلقة في الرأس، متنا ببساطة. سبب الموت قليل الأهمية. يتعلم الجميع أن:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تعددت الأسباب والموت واحد

لا نعرف في اليمن ممَّ نموت، إلا نادراً. من السل أو من الشلل... هناك حيث المعاينة الطبية، مثلها مثل عين الإنسان، لا تخطئ أبداً. نموت في ”العربية السعيدة“ بغزارة وابتذال، ونموت بكثرة، ونموت ببساطة. أو بالأحرى نموت من مرض السكّري. ولا نموت قط باحتشام وكبرياء مثلما نموت من السكري. نحب أن يطفو هذا المرض في كل مرة نجهل فيها سبب الوفاة. وحتى في المستشفى نعشق هذه الكلمة الجميلة: السكّري. نزيّن بها الموت على غرار خطابات حشوان الموشّاة بـ”الديالكتيك“. السكّري في اليمن مرضٌ مختال، مزدهر، نبيل وسعيد. رحمة إلهية. اسمه حلو، ذو رنين لطيف، يشير إلى مرضٍ حلم. ففي بلد العطورات القديمة نعشق الكلمات ذات الرنين الجميل. فالسكّري ليس كلمة مهينة ذات مقاطع دامية مثل الشلل، ولا كلمة تدل على عقاب إلهي مثل السرطان تتشابه مع الكلمة الجهنمية ”شيطان“. ومن جانب آخر، فإن نبر كلمتَيّ شلل وشيطان وحده يكفي ليملأ الإنسان بالهلع، دون أن نتكلم عن مرض ”فقدان المناعة“ (AIDS) الذي من المنطقي جداً ألاّ يكون مرضاً مختالا. وفي الانتظار لحسن الحظ أن الله

اخترع السكّري.

– نعم. ولكن أكانت مريضة قبل أن تموت؟

– لا. لكن هذا شائع في عائلتها. يموتون غالباً موتاً غريباً في عائلتها. فقدت أختاً تكبرها كان عمرها سيكون اليوم عشرين سنة، بالطريقة نفسها، من مرضٍ شاذ، لم يعرفه الطب، يا بني.

وأضاف بنظرةٍ متأملة، ونهدةٍ عميقة، وبرطمةٍ يائسة:

– مرض خاص بعائلتها.

قلت له بصوتٍ خافتٍ تماماً:

– صف لي بالتحديد كيف ماتت. أرجوك.

أجاب العم الذي لا بدّ أنه انزعج من سلسلة الأسئلة الغريبة التي طرحتها:

– كانت شديدة الاضطراب صباح يوم زفافها، كما لو كان الجنّ قد تملّكوها. قالت إنها تحس بالدوار وبوجع في الرأس، وأنها توشك أن يغمى عليها. دعا لها أقاربها لطرد الشيطان من رأسها دون جدوى. ثم ذهبت للاستحمام ولم تعد... ماتت في الحمام، يا بني. الله يغفر لها ويرحمها ويدخلها جنات عدن.

قال ذلك متلعثماً في خشوع، ثم أردف مضطرباً:

– ماتت مثل أختها صباح يوم زفافها وهي تستحم. ”الموت في الحمام“ قدرهم. لم يتوصّل أي عالم إلى فهمه. رأيت بنفسي رأسي هذين الملَكين الشابين. كان عليهما الاثنتين – رحمهما الله – الأثر نفسه تحت العينين. أثر لا نشاهده قط في مكان آخر.

– أقالت شيئاً صباح ذلك اليوم يتعلق بي؟ أتركت لي أي شيء؟

– لا يا بني. ماتت فجأةً. لم يكن أحد يتصور أنها ستموت.

الفصل الرابع

هبّت على الشيخ عثمان عاصفة رملية خنقتني وكتمت أنفاسي على نحوٍ قاتل. أصبحت مدينةً ملتهبةً تحت قدمي. أحسستُ أن جهنّم تبتلع ساقَيّ ببطء. لم يستطع أي شيء أن يحميني من الإحساس بقدمين محترقتين فوق أرضٍ من جمر. سكن قدمَيّ شيطانٌ محموم، وأصبحت النار هوسي الجنوني؛ نار موقدة ملتهمة، متأججة وخالدة. لم يستطع شيء أن يزيل من قدمَيَّ الإحساس بالحريق الذي يلتهمهما. فكّرتُ كثيراً في رسالة ابتهال الأخيرة التي قالت فيها إنها تحسّ دائماً بالبرد، وأن لا شيء استطاع تحريرها من برد داخلي دائم.

استولى اختفاؤها على ذهني، واستحوذ على فضائي ووقتي. تدفقت صورها الحية بلا انقطاع من كل مكان. من الرمل ومن الشارع. من رقم ٣٧٣ شارع النصر. (أصبحت نظراتي إلى سكان هذا المنزل الجدد عدائية بلا مسوّغ، غصباً عني).

من جميع الأرقام الفردية. من دكان سيف الأعمى. من مقدم الغسق نحو "كودنا" بعد أن أصبح مكاناً يعشقه مسدس وعسكري

مفقوء العين. من حب الهيل. من ”مضيق ابتهال“. من رائحة ”شيذرها“ الحريري الذي استنشقته وأنا أجري بجانبها. من نظرية فيثاغورس. من أدونيس وبودلير. من القمر والنجوم. من لون الزمرّد. من أسفل الثلاجة حيث كنا نضع رسائلنا. من الله ومن السحر. من سيشاهد النجوم معي خلال الليل؟ من سيحل محل الورود التي لم توجد قط في مدينتنا؟ من سيضحك ليغرقني بالفرح؟ من سيهذي ليهبني حياة؟ من سيحكي لي حكاية تداعب قلبي المحبط؟ من سيثأر لابتهال؟ من سيجعلني أنسى فظاعة الواقع والزيف المسيطر؟

من سيثأر لابتهال؟

من سيثأر لابتهال؟

أصبحتُ فريسة لألمٍ لا ينفد، ولكآبة شاملة، ولحقدٍ مدمّر. تضافرت هذه الغيلان الثلاثة بفظاعة لاستهلاكي. لالتهامي ببطء. لجعلي بائساً مثل عصفورٍ فقد جناحيه وسط ثلاثة ثعابين. أي إحساس بالراحة والتمالك توفّره الضغينة! – فلتغفر لي الكائنات المتمدنة – إنها الغول الوحيد الذي ألقى علي نظرةً رحيمة، من بين هذه الغيلان الثلاثة. جميع قصائد مذكراتي الخاصة في تلك الفترة

مقفّاة بالضغينة؛ بالأمل بحلول يوم حساب لا يرحم شيطاناً رجيماً فجّر محيطات شرٍّ في كل مكان. ذلك الذي يسيطر اليوم على روايتي كما شغل بالأمس شعري الذي يضجّ بالضغينة. لوحشٍ يقف اليوم على خرائب حائط نسياني، عنيفاً كما كان في الماضي حين خنق لحظات سعادتي مع ابتهال. قاتلها الأول.

وفي مكان شلال السعادة، الذي كانت ابتهال تجسّده، حلّ حزنٌ قاتل في جميع أماكن الشيخ عثمان وقد أصبحت منفاي، وساعة رمل أحزاني، ومصدر عذابي. مدينة "حيوان وحشي" جريح. جحيمي الخاص بي. هذه المدينة، التي انتهيت بعد لأي إلى حبها والتماهي معها، لم تعد مدينتي. رفضتني كي أعيش فيها حقيقة، في أعماقها، وفي قلب جروحها. في قلبها الدامي. في هيجانات عذاباتها. لم أعد أفعل سوى مراقبة زمنها الثقيل يتقدم بصعوبة، يصفعني كمتوالية أبدية من ضربات مطرقة. أيقظتني بفظاظة أفكار مأساوية أعادت إلى ذهني ذلك الجمل المشهور الذي مات سعيداً فوق جثةٍ متعفنة. أصبحت تجسيداً لجمل تلك المدينة الجمل. عشت في أعماقي مأساة حيوانات مدينتي. تفهّمتُ عذاباتها وشاركتها إياها. عصفت بي في تلك الأوقات، أقذر لحظات حياتي، صورٌ

مضمحلّةٌ مختبئةٌ في ثنايا الطفولة، لحيواناتٍ متألمة تُذبح بفظاعة.
أولاً، محنة حمام حديقة حيوانات عدن، يوم الحبور الكبير، يوم العيد. كانت الحديقة مكتظة بالزوار ذلك اليوم. ولكي أتجنّب ساعة الازدحام في نهاية الفترة الصباحية كنت أذهب إليها مع إخوتي وأخواتي مبكرين في الصباح، بعيد تناول طعام الإفطار الوفير في العيد. نزور فيها بكثيرٍ من السرور ومن الفضول جميع الحيوانات، وجميع الأقفاص ما عدا ذلك الذي توجد فيه ثعابين. كان الرعب منها – يضرمه الروح الملعونة التي تنسبه لها الأساطير والكتب المقدسة – محفوراً في أعماق نفوسنا. فحين نقترب منه ندور بسرعة ولا نلقي عليه إلا نظرة خاطفة، ونتجنبه دون أي خطأ.

تجنّبت هذا القفص في يوم عيد سنتي الثامنة، كالمعتاد. فإذا بي أرى تجمعاً غريباً من حولي. حاولت إدراك دوافع هذا التجمهر المرح الذي ينظر إلى داخل القفص. سألت أحد الزوار فتجاهلني. أعدت سؤالي. اعترف هنا دون تردد قائلاً:

– يوجد أناس يشترون من بائع الحمام عند مدخل الحديقة فراخ الحمام لإدخالها عبر قضبان قفص الثعابين الثلاثة! كنت سأرفض التصديق لو لم أشاهد هيجان الجمهور لمشاهدة اضطراب الموت

في الأجنحة المرتجفة. فهمت ذلك عن بعد فألقى بي في حلبات الحقيقة المرّة. ولم يكن مستغرباً أن أصبح منذ تلك اللحظة ملاحقاً بوسواس الثعابين الثلاثة الجائعة وهي توجّه رؤوسها – التي تخيلتها دائماً مبتسمة بخبث – نحو جناحَي الحمامة البائسة المذعورة من الفزع، تسمع مصدومةً وعاجزةً صرير الثعابين الحاد، وتراها تمدّ أنيابها الحادة السامة نحو جسدها الصغير المرتعش. هذا المشهد الذي تصورته دون أن أراه عن قرب، لحمامة في مثلث الموت الذي يضيق حولها شيئاً فشيئاً، في وجه وحشية مشاهدين مبتهجين، كان كابوساً مرعباً أفسد طفولتي، راودني بتكرار – بعد أن تضافر الزمن والنسيان لمحوه – في تلك الفترة المذهلة التي تلت موت ابتهال. طرت دون أجنحة، مثل البطل المسكين لهذا المشهد، في قفص العربية السعيدة المسمّى الشيخ عثمان.

عاد إلى ذاكرتي أيضاً مشهد آخر مزقني، شاهدته بعينَيَّ عن قرب، لكلبٍ يتقيأ دماً. يتقيأ أحشاءه المطحونة بسمٍّ يفعل بإيقاع مدينتنا اللوغارتيمي: ببطء شديد، يلقي بكومة من أمعاء ودواخل على الرمل الملتهب في حيّنا. ينتحب الكلب بصوتٍ مذبوح على

بطنه الممزقة. يدور بخطى تحتضر محملقاً في عيون المارة. يتوسّل إلينا أن نسعفه. كان عمري بالكاد سبع سنوات حين شاهدت هذا الرقص الجنائزي، في الصباح الباكر عند خروجي من البيت للذهاب إلى المدرسة. طوّحتْ برأسي الطفولي خطوات الكلب الأخيرة وعواؤه المخنوق، وعذّبتني طويلاً، مع أني، مثل جميع أطفال حيّي، ينتابني خوفٌ أزرق من الكلاب الجائعة في الغالب، والمخيفة. تربض مثل ذئاب مذعورة حين نعود من الأسواق القديمة بأكياس مليئة باللحم، وتكون صعبة المراس حين نقطع الشوارع في الليل بالقرب منها. كثيرة العدد. لا تتردد في النباح معلنةً جوعها. تعوي من ضربات الأحجار التي تصفعها ليلاً ونهاراً. تحب العضّ الذي يسبّب ألماً شديداً. جرحت أحد الأطفال جرحاً خطيراً، كما يقال، فقررت بلدية الشيخ عثمان إبادة جميع الكلاب. إن لم يكتب كلب مأساة كلاب عدن فلن تُكتب أبداً. سيتوقف طويلا أمام مذبحة حدثت صباح ذات يوم اقتربت فيه سيارة البلدية من الكلاب النائمة في وسط شوارع الشيخ عثمان، لتترك بجانبها طعام إفطار خاص جداً: لحماً مفروماً مخلوطاً بمسحوق الزجاج.

مات الفرح والحقيقة نهائياً في الشيخ عثمان. أثارت جميع كائناتها في نفسي الخوف والريبة. ذكّرتني القطط العوراء في القسم (أ) صباحاً ومساءً برجل مليشيا فظ، قوي ومتحصّن، يجوب المدينة باحثاً عني. أراه في كل مكان. ينبجس من كل مكان، بعينه الدامية المتعطشة للانتقام. أشعلت جميع أشياء الشيخ عثمان خوفي وكرهي. فأي ضوضاء أياً كانت – صوت سيارة تتوقف، طرق على باب، رنين تلفون... – يصيبني بالخوف من راعٍ قديم قرّر أن "جميع الظروف الموضوعية والذاتية"، كما كان يحب أن يقول غالباً، قد توفّرت لدخولي التاريخ؛ لأكون الراعي العام المساعد. وفي انتظار الطرق بضربات خاطفة على باب بيتنا عشت رعباً خيالياً، أرتدي ثياباً متّسخة، وآكل قليلاً، وقد بدا عليَّ النحول. أصبح رأسي ميداناً تتكاثر فيه الشعرات البيضاء بسرعة جعلت أقاربي يستغربون. وبدت قسمات وجهي حادة، ونظرتي مرتجفة، وهيئة جثة هامدة تحتل تماماً وجهي الذي تغرقه الدموع كل ليلة.

لن يتأخر الراعي الكبير، المكتشف الماهر للمواهب، عن أن يسرّب في غموض أن شارعه، الذي قدّم لاهب إلى مدرسة أبناء البدو الرحل، لا يزال قادراً على تقديم مساهمة أساسية ثانية لهذه

المدرسة النموذجية. ثمة "طفرة نوعية أخرى"، كما يبدو، في هذا الشارع الزاخر بالموهوبين ثورياً. أكان يأمل أن ينقذني من كآبتي الدائمة؛ من أية ضوضاء تذكّرني به؛ أن يوفّر لي هدوءاً سيبيريا في مدرسة يصعب الوصول إليها، مزروعة في عمق الصحراء؟ أرغب في أن يقدّم لي هذه الدورة في "الواقعية الاشتراكية" التي وصفها لي حين قرأ متقززاً العنوان الشيطاني لنثري الشعري "أحبك إلى ظل بي على ٢".

فاحت نتانة الدسائس من المنزل رقم ٢٤٨ في شارع النصر. كان يحس دائماً بالدسائس. كان بابه يصيبني بالخوف. بابنا يبعث فيَّ الخوف. جميع الأبواب التي تُطرق تصيبني بالخوف. لم يطرق بابنا بعد أيُّ طارق. "لن يتأخر طرقه"، قلت أهدّد نفسي بتكرار هوسي. ثم، في الواقع، طُرق بابنا ذات يوم. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر. كانت أمي تقرأ بمفردها ولو لم يكن دون أخطاء وتشتّت ذهن. كانت تنقل بعض السطور بكثيرٍ من المصاعب والمقاطعة، عن أبي الذي ما انفكّ الفيض الصوفي يتأجّج في جوانحه بمرور الوقت. كان يتلو حِكَم العطار، الصوفي الفارسي المشهور الذي شبّه حياة المأخوذ بالعشق الإلهي بالمرحلة العظيمة للهدهد الذي أرشد

التسعة والعشرين عصفوراً نحو "السيمورغ"؛ العصفور "القريب منا والذي نحن عنه مبتعدون". يقطع الهدهد الوديان السبعة: البحث، والحب، والمعرفة، والاستخفاف، والتوحيد، والذهول، والفناء، نحو جبل قاف. وكنت محاصراً على سريري ضالاً بين ضفتيه. أدور، وأتلوّى، وأترنّح، وأتوه، وأتكوّر... محاولاً أن أنام ساعة القيلولة. كنت أتذبذب بين الرغبة في الهرب من حياةٍ أصبحت لا تطاق تحت رحمة باب يطرق، وإحساسٍ فطريٍّ أبدي بالخلاص القدري الذي سيأتي من السماء. قالت أمي التي كانت بالقرب من النافذة إن الشخص الذي طرق الباب يبحث عني... سألت بقلبٍ يخفق: "صفي لي مظهره؟" قالت: "يرتدي قميصاً رمادياً ذا خطوط حمراء، وشعره ناعم ملفوف في تجاعيد دائرية، وليس خالياً من الحلقات الزرق تحت عينيه. أظن أنه أحد زملائك القدامى. مضت على الأقل سنتان لم يمرّ للبحث عنك".

أراحني هذا الظهور لعدنان بقدر ما أدهشني. جاء هذا الغائب الكبير ليقول لي إن الوقت قد حان كي لا أنتظر بعد الآن ليلة قدر تنقذني من أيامٍ سود (الأيام السود التي رُسمت لك: قال تحديدا). قال لي: "حان وقت تغيير نظارتيك! لن يأتي أي بساط سحري ليجنّبك

الخطر. يجب أن تقرّر قدماك القيام بمسيرة طويلة عبر الحدود، وأن تتجرأ على قطع المسافة". وشرح لي كيف أنسحب من مدينتنا، وكيف أعيش بعيداً عنها. سألت:

– وأنت؟

أجاب بالنفي. أهي كبرياء الأبطال؟ أهي نبوة ناقصة؟ أفكّر أنه سيهرب من مخالب النمر؟ أكان يحسّ أنه سيقاوم بصمود، سيمزّق العاصفة الهوجاء، وينهك عدوه اللدود؟ أراودته رغبة الحلاج في أن يُصلب؟ كيف استطاع أن يتصور ولو للحظة واحدة أنه سينتصر على الغول؟ أما أنا فلم أجب على اقتراحه، لأنني احتجت ساعات لالتقاطه، وأياماً كي أستوعبه، وشهوراً للتفكير فيه، وسنواتٍ كي أقرر القيام بفعلٍ يترجمه. كان عدنان مقتضباً في حديثه، ومع ذلك كان لديَّ الوقت لأطرح عليه سؤالاً يطفو في رأسي منذ طفولتنا؛ سؤال قديم كما لو أحسست في أعماقي أنه السؤال الأخير.

– عند الحديث عن ليلة القدر، أرغب في أن أوجّه إليك سؤالاً يشتعل على شفتَيَّ منذ سنوات طويلة... عمّا إذا كان الملاك يأتي بشخصه ليسأل ما هي أمنيتك.

– فلننظّم اختباراً في الإملاء بمستوى أولي بسيط، لأكبر مائة مسؤول يمني ونعلّق أوراق إجاباتهم في مكان عام.

لم يتغيّر عدنان كثيراً، لم يفقد شيئاً من غطرسته النبيلة! لكن صوته يرنّ كالوداع، صوت مدهش، كما لو كان مقتنعاً بأنني سأنفّذ نصيحته مساء ذلك اليوم. ثم ذهب في الحال، يتقدم بنطلونه الأزرق الغامق على إيقاع خطواته الخفيفة كما عهدناها في الأيام الخالية، وكان ظهر قميصه الرمادي ذي الخطوط الحمر مبقّعاً بالعرق. أشعل سيجارة دون أن ينظر إلى الخلف، وكان شعره الأسود المجعّد الناعم يلمع تحت شمس ما بعد الظهيرة، تنيره بجميع أشعتها. وبعد ساعة سلكتُ الطريق المعاكس للطريق التي دلّني عليها. أخذت "تاكسي" جماعياً يذهب إلى قلب عدن، في كريتر، وجلست بالقرب من باب دكان مستنداً إلى جداره، على بعد ثلاث خطوات من بابه، في المكان الأكثر حركةً، مددت ساقَيّ على ممر صغير مناسب لي.

استلقيت لساعات طويلة في هذه المعصرة التي تعصر الناس، متأملاً وجوه المارة، والسيارات المزدحمة، والحركة في المقهى المقابل، فناجين الشاي والطاولات، والكراسي... لفحني هواءٌ نقي،

وتخلّل نفسي فراغٌ طاغٍ. في هذه الشوارع التي تعجّ بالمتسكّعين؛ في هذا المرجل الذي يعجّ بالمسحوقين؛ في لوحة الضحك الجدارية هذه، لوحة الفناء واليأس، سينبعث صمتٌ وسكون. هدوء حقيقي هائل يبعث على الدوار. استرخت أعضائي على هذا المضيق المخنوق بين الدكان والمقهى. لم أفكّر بشيء؛ لا بعدنان، ولا بأبي، ولا بحشوان... كان الجمهور تياراً أخرس، متواصلاً، مطهراً، منفتحاً، تياراً حارساً. استمعت، ساكناً على وشك أن يغلبني النعاس، إلى صوت أبواق السيارات، والى أحاديث المارة، وإلى الصرخات الآتية من بعيد. نظرت إلى الناس الكثيرين يجلسون إلى طاولات المقهى المقابل. وتابعت تدفق الوجود، وهياج المتدافعين، والسيارات التي تصارع مضائق تمنعها من الحركة، وألوان القمصان والفوط، وتموّج "الشياذر". تنفّستُ رائحة قاع المدينة وأحشائها، استنشقتها بجسدي كله. ومن آونة لأخرى كانت تنبثق ذكريات صغيرة ورموز بلا معنى، لترافق عزلتي السعيدة. مثل لعبة "الاستغماية" التي عرفناها في صبانا الباكر، خلف قناديل الحي العاقرة. بلاط غرفتي. مكتبي الجميل الذي أحببته كثيراً، أجمل هدية قدّمها لي أبي منذ القلم الذي ضاع، هذا المكتب الذي كتبت

عليه بسرعة أول رسالة إلى ابتهال. وقماش ملطّخ أخفيته تحت وسادة سريري. موعدي الضائع مع كرة القدم. طعم حبات الهيل في وجه ابتهال، وأنفاسها المعطرة. الجبل الذي تقع فوق خاصرته قرية أبي. آخر قفزة تحتضر بها الكلاب المسمومة. الحمامة الملقاة وسط الثعابين الثلاثة. والحمام الذي يتدفّق على سقوف الحي، حين كنّا نصعد في سن الخمس أو الست سنوات لنلقي له بخبز مفتّت. يتجمّع، يقفز، يسير في شكل متعرّج، يهدل. كنا نحب مشاهدته يلتقط الخبز، وينقره بعيون يقظة، سعيدة، قبل أن يطير معاً، يشقّ السماء الفسيحة متجهاً نحو الأفق.

كان عدنان على خطأ على نحوٍ ما. ربما كانت الليلة التي تلت زيارته ليلة قدري. كما كان على حق في الوقت نفسه، لأن من جاء تلك الليلة إلى باب بيتنا لم يكن ملاكاً – لا يمرّ الملاك إلا مرة واحدة. وقد سبق أن مرّ يرتدي قميصاً رمادياً ذا خطوطٍ حمر! – بل كانت سيارة "لاند روفر" من مدرسة أبناء البدو الرحّل. وحين ترجّل منها حشوان بعد الفجر بقليل، لم يكن أبي في البيت. كان كالمعتاد في المسجد يؤدي صلاة الفجر. كان أخي محمود كما اعتاد دائماً حاضراً. وكنت بعيداً عن الشيخ عثمان. وفيما بعد أخبرني

محمود أن حشوان فتّش جميع زوايا بيتنا بحثاً عني في خيبة وحزن نادراً ما كان عارياً إلى هذا الحد. كانت عيناه غارقتين في الدموع، وكان حزيناً كمن فقد شخصاً عزيزاً عليه. كمن وصل بعد بضع دقائق على مغادرة آخر قطار.

قال محمود:

– كان يبكي مثل طفل.

سألت:

– أكان يرافقه رجل مليشيا مفقوء العين؟

– لا. كان وحيداً يحمل حقيبة شخصية بسيطة، كما لو قرّر الانسحاب هو أيضاً. بدا مسعوراً مضطرباً شديد الإرهاق. همس خلال بضع ثوانٍ بجمل غامضة، غير مفهومة؛ بدا لي أنني سمعته يلعن حياته. يرطن: "ديالكتيك مقرف" أو "أحس بالقرف من الديالكتيك". تولّد لديَّ انطباع أنه سيرافقك في هربك!

الجزء الثامن

على جبل آمن ومعروف

عندما عدوتِ تلتهمين أصابك في معمعان الجنون العارم
قررتْ الغربان أن ترسم مظلةً تحجب السماء
ونأتْ طيور البحر عن الشاطئ
واحتفلت الفئران ثملى بانتصارها السادس

[اقتباس من كتابات عدنان]

الفصل الأول

كانت "حشوان غراد" مدينةً ينبغي أن يغادرها المرء خلسةً منسلاً على رؤوس أصابع قدميه. تبعث فيك رغبة تغيير الكوكب والقرن، وتدفعك ستة آلاف كيلومتر بعيداً عنها، إلى مدينة لا تشبهها كثيراً؛ لا تذكّرك بها إلا قليلاً؛ في مدينة تعيش فيها وتنام على نحوٍ مختلف، وتتكلم وتموت على نحوٍ آخر. مدينة "روان" مدينة باردة، دون نجم ولا أفق ولا غبار (وهؤلاء الثلاثة هم سكان الدرجة الأولى في الشيخ عثمان). ليست الأشجار ما ينقص مدينة روان، فهي تتدلى من أعلى الجدران، ومن الشرفات، وتغطّي الواجهات والحفر، وتنبت في كل مكان؛ بين الإسفلت والحصى، وبين الحواجز الحديدية والفواصل؛ على المرتفعات والسهول، وعلى السطوح والسقوف. يوجد في روان من الشجر بقدر ما في الشيخ عثمان من الغبار والعكس بالعكس. يوجد من الأشجار في الشيخ عثمان مقدار ما توجد من ضواحٍ رملية حول روان.

شمس الشيخ عثمان أكبر من شمس روان – إذا ظهرت – بمرتين، وأكثر احمراراً بثلاثة أضعاف. تغيب الشمس في الشيخ

عثمان ببطء، مثل نشوة طويلة وعميقة، خلف أفق أرجواني يفصل السماء والأرض بألوان صافية وحية. أما في روان فإن الشمس تغرب – إذا ظهرت – بعنف في لحظة في ربع السماء، محترقةً في قطران السحب الدخانية لمصانع الكيماويات على ضفة نهر السين اليسرى. لا توجد في الشيخ عثمان لعنة الجو الرمادي. فهذا الجو كائن مجهول ومرغوب. والمطر فيها رحمة ولحظة فرح وحلم. يهجر أهالي الشيخ عثمان منازلهم ليرقصوا في الشوارع بجذوع عارية. ينظرون بغبطة وحنين إلى السماء تحمل قطرات مطر أياً كان تردّدها عن الهطول. أما أهل روان فيعترضون رحمة السماء بالمظلات المعتمة العمياء. وفي الشيخ عثمان لا يوجد أفضل من النوم في الهواء الطلق. في دارة، أو في شارع، أو فوق سطح. تصبح الرابطة هناك بالنجوم حميمة. فهي تداعب أهدابك قبل أن تغمض عينيك. أما في روان فتنام في غرفة مغلقة النوافذ والأبواب غلقاً محكماً، بعد أن تقول "ليلة سعيدة" للجدار المقابل.

تجعلك مدينة روان القديمة المحاطة بشوارع دائرية تنسى تماماً الشيخ عثمان. فلتنزل حيث شئت في هذه المدينة المتحف من مقاطعة النورماندي، في مقابل الكاتدرائية، أو أمام كنيسة جان

دارك، أو شارع فيسكونتيه، أو شارع سان رومان، أو شارع ساعة الحائط الكبيرة، أو شارع المادلين، أو شارع دوشانج، أو شارع أو دو روبيك... ستدرك دون صعوبة أنك بعيد تماماً عن العمارة القبيحة الكسولة لمدينة مشوّهة، مختزلة إلى مجموعة متداعية من مربعات متشابكة بشراسة. صُمِّمت جميع شوارع روان لتتحدى التقشّف المستطيل في الشيخ عثمان، كما لو أنها لا تفعل سوى ازدراء انتظامها الخانق. تنحني تلك الشوارع لتحاذي شيئاً ما، ولتضطهد الشيخ عثمان البعيدة بتذكيرها دون انقطاع بإعاقتها الفطرية. تتجمّع شوارع روان في عدد من المجموعات الحرة والمتنوعة، وتتقاطع، وتتسكّع، وتبحر، وتلتوي، وتنفرج بهدوء، وتتعرّى ببطء شديد أمام العيون. أما في الشيخ عثمان فكل شيء متكثّف. إنها مدينة منحوتة بتكرار في جميع أجزائها: كن حيث شئت فيها وانظر في اتجاه مستقيم وسترى المدينة كلها (إن عرفت كيف تضاعف الصورة التي انطبعت على شبكية عينيك مائة مرة). الشيخ عثمان منزل واحد، وكل بيت من بيوتها غرفة من غرف ذلك المنزل. كل شيء يتعقّد ويتشابك ويندمج. الكل يعيش فيها جنباً إلى جنب. الكل يختنق داخل شبكة كمّاشاتها المستطيلة. لا يوجد ما

هو أكثر فاعليةً لعلاج الشيخ عثمان إلا في روان. فحين تقضي الجزء الأكبر من سنتك ترتدي الثياب الصوفية من ''فانيلاّت''، و''شيلان''، ومعاطف، وقفازات، وتخلعها في الغرف المسخّنة قبل أن تعيد ارتدائها لكي تخرج قبل أن تخلعها مرةً ثانية ثم ترتديها من جديد قبل أن تخلعها فيما بعد... فإنك بعيد عن الشيخ عثمان حيث ترتدي قميصاً قصيراً مبللاً بالعرق طوال السنة. وحين تصبح علاقتك حميمة بجزماتك ومظلاتك، وحين تمشي في شارع ذي بلاط مقوّس، وحين تتسكّع في شارع تقطعه ساقية دون فئران ولا صراصير، حين تشمّ في مركز المدينة رائحة المنتجات الكيماوية لمصانع الضفة اليسرى... ستنتهي بالسؤال عمّا إذا كنت تدور حول الشمس مثلما في الشيخ عثمان.

في الشيخ عثمان تبدو لك روان تجسيداً أرضياً للجنة. لأن أهل الشيخ عثمان، وقد أذابتهم شمسهم المجرمة، لا يستطيعون إلا أن يجدوا في روان هذه مصنعاً كبيراً للسحب، وواحةً للحلم. وفي روان لا شيء مطلوب مثل التنزه في الشيخ عثمان، فيما حولها، والجلوس في أي طرف من شوارعها، والنظر طويلاً، طويلاً جداً، إلى الزمن وهو يولد ويزول، وإلى الزمن وهو يجري؛ العودة إلى

الفرح الأولي، والانتشاء أمام الشمس والرمل والأمواج الحارة. دون أن تنسى التنزه في سمائها المزينة بنجوم نابضة لا عدّ لها (فالسماء في روان كائن في طريقه إلى الانقراض، كما تشهد عليه نجمة الراعي، أي كوكب "فينوس" الذي يظهر فيها أحياناً ويموت من الضجر).

لروان والشيخ عثمان سمة فريدة مشتركة، هي قربهما من مدينة كبيرة ومن امتداد رملي يسمّى في المدينتين: باريس. إنهما مدينتان تتجاهل إحداهما الأخرى، وتجهلان بعضهما بعضاً، وتتعارضان وتتكاملان. ومع ذلك تستحقان، فوق كل شيء وبمعزل عن كل الحدود، الاتصال والتوأمة، والاندماج، والتضافر، والمزج، والتشابك، والتزاوج، والانصهار، والخلط. فمن تهجينهما تولد ابنة النار والماء، أجمل المدن وأكثرها سحراً وفتنة.

لا يوجد ما هو أسهل من بناء عشّ على تلّ في روان، ليكون حصناً يجري فيه نسيان الشيخ عثمان. وهذا خوارزمي سهل ومجرَّب: ابدأ مثلاً بدراسة الرياضيات. وهذا ما سيغيّر البرنامج القديم الذي عهدته في الثانوية، القسم العلمي في عدن حيث ما زالت الرياضيات متوقفة عند "عناصر إقليدس"، وحيث يجب حفظ

القرآن والشعر، بما في ذلك خمسمائة صفحة من كتاب أحياء مزوّد بصور لأعضاء الذباب والصراصير، وأسماء شعر أفخاذها، والأشكال المفصّلة لأجهزة الهضم والتناسل عندها. أي مدينة متغنّجة هذه الشيخ عثمان! وكم تنمّي على نحوٍ رائع ثوابتها! وحتى حصصها المدرسية لا تتركك تنزع نفسك من أكثر الصفحات قذارةً في مادة الأحياء.

ثم اعشق العمل في الحديقة (أليست الشيخ عثمان العاصمة الدولية لمصممي الحدائق؟)، أو اعشق – وهو الشيء نفسه تقريباً – أقل العلوم شيخوخةً وامتلاءً بالغبار: أي علوم الكمبيوتر، الملكة الجديدة للعلوم كما يقال، واجعل هدفك الموت في أحضان لوحة مفاتيح كمبيوتر. بهذا تكون بكل تأكيد بعيداً عن الذكريات وعن قضاء وقت الفراغ والاهتمامات في الشيخ عثمان.

شيّدتُ في روان حائط نسيان الشيخ عثمان. وهو حائط اختياري، تتسرّب منه بعض الأشياء، في حين تستبعد البقية، جميع البقية، تُراقب وتُخنق وتُلقى في العدم. ولم تمتلك حق أن تقطع متراسي دون استئذان سوى بعض الأخبار العابرة عن عائلة الشاعر الذي مات في السنة نفسها التي مات فيها قلمه ومجموعاته

الشعرية الست، وعائلة تلك السيدة التي – بعد أن أصبحت تقرأ وتكتب – أرسلت لي بانتظام رسائل كُتبت في أي يوم عدا يوم الأربعاء، يوم الغسيل الأسبوعي الكثير. وامتلكَ حقَّ تسلق متراسي جرحٌ خالد بطعم حبّ الهال: ابتهال. وامتلكتْ حقَّ الالتفاف حول المتراس شجرةٌ نبتت وسط شارع النصر لتصبح شارة التحية – في مكالمة هاتفية أو في رسالة قطعت البحر الأحمر – "والشجرة، كيف حال الشجرة؟".

ولا يستطيع إلا القفز فوق المتراس إعجابي بالصورة الأسطورية لزميلٍ قديم أحيّيه من أعماق نفسي، شهيد (لأنه كان محكوماً في الجوهر أن يكون كذلك)، مصلوب (كان قدره أن يكون كذلك، وكان يرغب في ذلك وكأنه واجب ديني). ومع ذلك، بقي من عدن القديمة يوم ١٣ يناير ١٩٨٦ شيءٌ من عدنان بداية السبعينيات. الجديد بالنسبة له أنه غرق في دورات من التوتر المفرط، والعزلة الجليدية، حتى صنّفه كثيرون باعتباره مجنوناً. صحيح أنه أصبح شديد النحول ومدمّراً؛ تظهر حول عينيه دوائر سود بارزة بروز أنفه. إلا أنه كان يُبعث من جديد في مباريات الشطرنج، أو بالأحرى حوالي سبعة في المائة منه. لم يمت بعد تماماً، وإنما كان

ينبعث كما لو أن جذوةً من حدة ذهنه القديمة ما زالت تلتهب. صحيح أن هذا قليل، لكنه كافٍ للإبقاء على أسطورته، ليعيش ويبقى غير قابل للقهر، لكي يصدّ حشوان بأظافره.

ماذا حدث من غرابة صباح ١٣ يناير؟ لا شيء غير عادي. ربما. واصلت الإنسانية برتابة محزنة حياتها الغامضة التي بدأت قبل ثلاثة ملايين سنة. غير جديرة دائماً بإدراك لماذا وجدت، ومن أين جاءت، والى أين تتجه؛ تقف أيضاً عاجزةً دائماً أمام جميع الأسئلة الكبيرة التي حيّرتها منذ فجر الزمن. لا شيء غير عادي، بلا شك، بالنسبة للأطفال المضطرين للعمل بأيديهم الصغيرة التي تشبه أيدي العجائز مع أنهم في سنّ الخامسة، وبالنسبة لرجال ونساء يموتون جوعاً، للمنسيين، والمحرومين، والتائهين، والمعذَّبين، والمحبَطين، ومن لا أمل في شفائهم، والمحرومين من العمل والحب والمرح. لا جديد حقيقةً في حياة بني الإنسان: يوجد دائماً إنسان يمشي بطول الشارع دون هدف، ودون هَمّ. كان هناك دائماً رجلٌ مشبوب العاطفة يتصبّب بالعرق على صفحة رواية؛ وأمٌّ أطلقت صرخةً من القلب تضحك لترنّح طفلها وهو يخطو خطواته الأولى؛ وباحثٌ يقتلع شعر رأسه وهو يتخبّط في حسابٍ

مضجر ينتهي في أحسن الحالات بالكشف عن حرف لا أهمية له من ألغاز الحياة. كان هناك دائماً غواصٌ يترحّل في عالم الأعماق العجيب نشوانَ يحمل كحلم رغبته في أن يقضي حياته في جوار الشُّعُب المرجانية؛ وكان هناك دائماً متسلّقٌ يصعد قمة جبلٍ بحثاً عن سدرة المنتهى، راغباً في أن يتذوق في ظلها، هناك حيث يسمع صدى مقاهي السماء، رشفات من جعة باردة. كان هناك دائماً إنسانٌ باحثٌ عن هذا المطلق الذي نتعطّش جميعنا لمعرفته؛ وكان هناك دائماً رجلٌ يدغدغ آماله ويُنوِّم مغناطيسياً قلقه في برود معبدٍ عبري، أو كنيسةٍ، أو مسجدٍ، أو معبدٍ بوذيّ، يحتمي من ضعفنا في ملاذ هذا الماضي البعيد الذي يفتننا ويتحكّم بنا. كانت هناك دائماً فيتناميةٌ في "سهل الوحل والأرز" بالقرب من نهر ميكونغ في عملٍ شاق لزراعة حقول الأرز، يداخلها الخوف من أن تنفث عاصفة مياه النهر ريحاً يهدم ما عملت، تترك ذكرياتها المريرة لتيار النهر الرهيب وهو يأخذ كل شيء نحو المحيط. وكان هناك دائماً مولعٌ بالحب يجلس على مقعدٍ مقابلٍ لنهر النيل، يقرأ للمرة الألف رسالة حب. وكان هناك دائماً سائحٌ يتوقف أمام "مكتب السياحة السويسري" غير البعيد عن سيرك بيكاديللي في لندن ليشاهد الثياب

الشعبية لجميع المقاطعات السويسرية تمرّ بإيقاع سبعةٍ وعشرين جرساً تقرع. وكان هناك دائماً عاشقان عضّتهما الرغبة التي تفترس دون تحفظ، تترقرق عاطفتهما في أعماقهما الأكثر حميميةً، في نظراتهما الأكثر رقةً، والأكثر اشتهاءً. لا شيء غير عادي بلا شك. كانت تقلّبات معنى الحياة دائماً مكثّفة بين آخر نظرة لطفل اغتُصب وقُتل ولرجلٍ يطبع قبلته الأولى التي حلم بها طويلاً على شفتي حبيبته الأولى.

ربما لا شيء غير عادي، إذا نسينا أن تناسخ المؤامرات، والكذبات الكبيرة، والضربات المقيتة في الحياة السياسية اليمنية سوف تلد كما فعلت دائماً. وستتجه دورات العنف الخسيس حتماً نحو الهاوية، نحو واحدٍ من انفجاراتها الهائلة القاتلة. اصطفّت السلطة والجيش والسكان في عشيرتين كبيرتين، وأعلن كلٌّ منهما ولاءه لأكثر الشعارات صواباً وتقدميةً و "أممية بروليتارية". كانت الأقنعة التي أُلصقت طويلاً بالوجوه قد فُصِّلت لتناسب الوجوه ويظنّها الجميع مخلصة. رأت كل عشيرة في الآخر شراً مطلقاً، وعدواً ينبغي ذبحه. "معارك قديمة قبلية عشائرية مزيّنة اليوم بعطورات الصراع الطبقي"، وفقاً لتحليل عدنان السبعينيات.

الساعة العاشرة صباحاً. ضربت إحدى العشيرتين ضربتها. أُعدّ كلُّ شيء سراً وبتزامنٍ مذهل: في كل مكان، من مقر المكتب السياسي حتى الشارع، مروراً بالسيارات والمكاتب الإدارية، والأماكن المشتركة. الساعة العاشرة صباحاً تماماً. مئات الأيدي استلّت أسلحتها وأطلقت ببرود على أفراد من العشيرة الأخرى في اجتماع عمل، أو على دورية عسكرية حول طعام إفطار، أو على أصحاب يتناولون الشاي. تكفّل كل شخص بقتل من بدا أنه "صديقه الحقيقي" و"أفضل زملائه". طُبخ كل شيء بغدر وشؤم متقن خليق بأكثر الدسائس الماكرة التي عرفتها الحقبة السلجوقية، وأكثر المكائد الخائنة للمماليك. كانت تكراراً "لمذبحة القلعة" التي أعدّها محمد علي باشا للمماليك، ولكن على مستوى البلاد كلها.

انفجرت أفظع الحروب في تاريخ اليمن. شاملة، عنيفة، وصاعقة. كسبتها العشيرة التي كانت "مذبحة المماليك" قد أعدّت لسحقها. وانتصرت الضحية فانهمكت في القراءة المفصّلة لجميع بطاقات هوية المارة لإفناء العشيرة التي بدأت الحرب، بالقدر نفسه من الخسّة، والشؤم، مخدَّرةً بجنون الانتصار، وبغيظ الحقد، وبحججٍ "مادية تاريخية" من آخر صيحة، وتحت أقنعة "أممية

بروليتارية" مماثلة... ضد جميع من نكبهم سوء حظ بالولادة في مناطق ينتمي إليها الزعماء الذين خططوا للمذبحة الأولى وهربوا في جبن. وبلغ الانتقام ذروته، وسقطت الرؤوس بلا رحمة. كلمة سر وحيدة حرّضت المنتصرين: "أبيدوهم في كل مكان إن أردتم منع انتشار الفيروس الكريه الذي لا يمكن السيطرة عليه" مؤكّدين بحججٍ فولاذية: "اطرقوا الحديد وهو لا يزال ساخناً"، معلنين بهذا ولاءهم للنقاء الأيديولوجي. لم تكن سجلات النبل ولا القداسة موضوع اهتمام المنتصرين الرئيسي.

وبين الشرارة التي أطلقها البعض وانتصار البعض الآخر كانت هناك حرب قبلية عشائرية أممية بروليتارية تواصلت حوالي عشرة أيام، تتالت فيها الضربات الخسيسة، والتصفيات المرعبة، والحسابات السياسية دون توقف. حوالي عشرة آلاف قتيل، ومشهد غير معقول لمذبحة لا يستطيع الخيال الإنساني أمامها إلا أن ينحني خشوعاً أمام اندلاع الفظاعة، والعنف، والرعب الذي لم يستطع أحد حتى الآن أن يصفه أو يفسّره – فهل نسيه أحد؟ – مادة لحلقة من برنامج "مسيرة قرن" التلفزيوني، عذراء تماماً، هدية لصائدي

القصص غير العادية. ”كدافة“ كراهية، وجبن، وضعف، وهشاشة شرسة.

بين هاتين اللحظتين كانت عدن مدينة موبوءة بالطاعون؛ سكرى في حفلة موسيقى مشتعلة بالحرائق. تقصف الطائرات والسفن من كل صوب، بجميع أنواع القذائف لتبلغ ذروة الانتشاء. غزت الشوارع دبابات ومدافع ثقيلة أخفتها العشيرتان منذ شهرين، وأطلّت من السطوح والشرفات. وارتجف السكان يبتهلون ويبكون، ويسخرون ويضحكون بأقصى ما يستطيعون. في البدء بدا كل شيء مثل حرب يمنية عادية إلى هذا الحد أو ذاك. صحيح أنها أشد وأقوى، ذات ضغط أكثر. وبمعنى آخر، أحدث وأعمّ. لكن بعد قليل من الضربة الأولى لم تعد الحياة ممكنة. فقد قصفت المدافع آبار الماء حول عدن، ودمّرت بدرجة عالية من السخرية مضخّات هذه الآبار (وهو ما فعله جيش الوحدة فيما بعد عندما أراد توحيد السكان بالموت عطشاً). وهنا لم تعد حرباً عادية، لأن سؤالاً نموذجياً فرض نفسه: أتستطيع عدن أن تعيش بضع ساعات دون ماء؟

لم يعد أحد يضحك. ووفقاً لمسافة مكان سكن البعض من البحر، هناك من شرب ماء المحيط الهندي المالح، وبعضهم شرب بول المراحيض الحامض. واندفعوا لحفر آثار الآبار المطمورة التي تذكّرها كبار السن تذكراً غامضاً. ركضوا في جنون يحفرون وسط الشوارع، أو وسط البيوت، آملين الكشف عن أبسط مصدر للماء. وتجمّعت طوابير طويلة أمام الحفر، الموحلة للأسف، أو المصفرّة كثيراً. صفوف مزّقها في الغالب القصف المتبادل إن لم تنصهر ببساطة وسط مطرٍ من الحرائق. ركض الناس، واختفوا، وانشغلوا، وتعاونوا، وجُنّوا، وذُهلوا، وانصدموا خلال ساعات. تكدّست الجثث والأنقاض المحترقة في كل حي. شخص وحيد ظلّ يذرع الشوارع في هدوء، غير قادر على إدراك جميع هذه المصائب الهائجة بعد أن تنبأ بها كثيراً قبل سنين من وقوعها. كان ينظر نحو اليسار ونحو اليمين والى الأمام دون قدرة على إدراك ما حدث. هو الذي سخر في طفولته من أولئك "الذين لا يرون شاشة السينما" حين يشاهدون أفلام سينما الشرق (مصنع الدموع، كما كان يسميه)، هو الذي عرف تماماً الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال، ها هو حالم وسط الدخان الأسود، يتجاهل أكثر المعاني ابتذالاً، معنى الدخان،

مشيداً شاشةً خيالية بين الحقيقة و... الحقيقة. "يذرع الشوارع بهدوء"، كانت هذه آخر صورة احتفظ بها سكان الشيخ عثمان عن عدنان. يتصفّح الدبابات والطائرات في رقصها الجنائزي دون إدراك ما يحدث، ويسمع دويّها الذي يهزّ جميع أجزاء المدينة كما لو كان يشاهد شريطاً سينمائياً. ومع ذلك كان يعلم تماماً أن نهايته قريبة! كان يعلم علم اليقين – وسأعطي الدليل على ذلك – أنه يقضي آخر ساعات حياته! لم يتجاهل، في الحقيقة، أنه إذا كان الراعي قد كسب الحرب فسيكون فريسته المرغوبة. كان عدنان، بالنسبة لحشوان، غنيمة يتذوقها في اللقمة الأخيرة، لالتهامها ببطء، وباستمتاع. وإذا فقد الحرب فلن يهرب من عدن قبل أن يصفّي حساباته مع عدنان ويكسب على الأقل حربه العزيزة على نفسه، الحرب الخاصة به، على عدوٍ يكرهه أكثر من غيره. لكن، ماذا لو سقط حشوان قبل أن يجد عدوه المنتظر منذ وقتٍ طويل؟ لا. هذا عبث. لسبب شديد البساطة. كان القرصان الذي يملك قوة الراعي شديد الجبن، وبالتالي لن يموت بسرعة، وكان حقيراً بحيث لا يمكن أن يحتفل بموت غير عادي، وشديدَ التعطّش لدم عدنان بحيث لن يسلم الروح بهذه السرعة قبل أن يحقّق أكثر أمنياته حميمية.

كان عدنان يعرف هذا كله. لذلك كان يذرع الشوارع بلا اضطراب، يلقي نظراته الأخيرة على هذه المدينة التي يبدو من النظرة الأولى أنها فقدت وعيها، يتأمل جدرانها المهدّمة التي لم تكن ترغب إلا في الانحناء لتطبع على جبينه قبلة الوداع. تذوب نظراته في نظرات الجمال الصامتة (التي تفصح أكثر من أيٍّ كان عن عذابات هذه المدينة المغتصبة، المهانة، وعن مآسي هذا الملجأ القديم لقابيل؛ وهاوية سمسرة مسافرين يرحلون "بنعالٍ من ريح". هذه المدينة متعددة الأعراق والعناصر في أعماقها، مرحة بتصميم. هذا الحلم المستحيل للإسكندر الأعظم. باب إرم ذات العماد وباب العربية السعيدة، وقد أصبحت مسلخاً وفريسةً للنيران، ومسرحاً لحروب البدو). "كان يمشي في الشوارع بنظرةٍ باردة، وخطواتٍ متثاقلة"، هكذا قال الناس الذين استغربوا بخاصة أن يروا خطواته الصامتة، ونظراته الوادعة إلى حدود الاستخفاف وعدم الفهم، وتسكّعه الأخير في مدينة فريسة لجنونٍ قاتل؛ مدينة تهلك بقسوة من العطش. "رأيته، آخر مرة، يقطع الشوارع وحيداً كالمعتاد؛ يحاذي الدبابات، ويتجاهل الصواعق التي تسقط من كل مكان، كما لو أن شيئاً لم يكن. كما لو أنه لا يعرف أن الموت هبط على عدن مثل

طوفان‘‘، هكذا كتب إلي أخي محمود يجيب عن بعض الأسئلة التي طرحتها عليه حول أيام عدنان الأخيرة في عدن.

ما الذي يسمح لي بأن أؤكّد أن عدنان كان يعرف أنه على بعد خطوتين من نهايته، وأنه كان يقضي آخر ساعات حياته، كما قال محمود؟

تلقيت رسالة من أخي عدنان الذي لم أكن أتحدث معه في طفولتي. بعثت إليه دموعي وتعزيتي في رسالة طويلة لا تستطيع أن تحمل سوى جزء ضئيل من ألمي، وبعض أسئلة أحببت الاستفسار عنها تخصّ السنوات الأخيرة من حياة عدنان وكتاباته. تركتني رسالة أخيه المقتضبة أعتقد أن عدنان توقّع تماماً موته منذ بداية الحرب. في الواقع، تحتوي تلك الرسالة بضعة سطور لا أهمية لها، وملحقاً فيه قصيدة كُتبت بخط عدنان مؤرّخة في ١٥ يناير ١٩٨٦، أوردها هنا:

حين هرعتِ تلتهمين أصابعك
في معمعان الجنون العارم
رسمت الغربان ظلاً يحجب السماء عن الأرض
تناءت طيور البحر عن الضفاف
واحتفلت الفئران سكرانةً بانتصارها السادس،

عندها قضيتُ آخر ساعاتي
أشرب مثلك دمعي
آه، ما أصفى إبريق الدمع
اغتسل بدمعي
آه، ما أنقى شلالات الدمع
آه، مدينتي المذبوحة

كيف مات عدنان؟

مثل ملك شطرنج انشقّ عمودياً بسيفٍ قطع كثيراً من الرؤوس، سيف قذر. قُتل عدنان بفظاعة على يد حشوان (الذي لم يحلم بغير ذلك) قبل أن يهرب من عدن! ربما توجّب عليّ أن أتوقف هنا كي أهرب من جميع التفاصيل التي أثارها هذا السؤال الفظيع: ”ما هي الظروف الحقيقية المحيطة بموته؟“. هذا النوع من الأسئلة قليل الأهمية بالنسبة لسكان مدينتي، وله مع ذلك إجابات متناقضة بعدد سكان المدينة. لا يستطيع أحد تناول هذا السؤال الشائك باستثناء حشوان نفسه، ربما. لا أستطيع لذلك أن أخاطر بالذهاب في هذا الاتجاه. لن آخذ في الحسبان بإيجاز – إذا سمحتم لي – سوى رواية أصحاب الحد الأدنى المتساهلين ورواية المبالغين، الذين كتبوا معاً، ودائماً، التاريخ الشفوي لمدينتنا. قال أنصار الحد الأدنى إن حشوان

نفسه كلّف جنوده بقتل عدنان وهو على وشك أن ينهزم غاضباً، فجاؤوا لأسر عدنان من بيته، ثم حملوه إلى زعيمهم الذي أطلق عليه حوالي عشرين رصاصة، قبل أن يغادر عدن في الحال، راسماً ابتسامةً شبه مشعة. أما أصحاب الحد الأقصى فزعموا أن الراعي القديم قبل أن يهرب استقبل لاعب الشطرنج المشهور طالباً من الجنود الذين أحضروه أن يتركوه في جلسة مغلقة مع مضيفه؛ واقتاده حشوان بنفسه مقيداً إلى جبل آمن ومعروف، وعذّبه عندئذ طويلاً بسلسلة من أساليب التعذيب التي لا أجرؤ على ذكرها هنا. والبعض أقسموا أن الراعي اقتلع أنفه الذي لم يكن يعجبه، والتهم بضع قطع مختارة من أحشائه الدامية – قبل أن يُقطّعه بيديه ويرمي أوصاله قطعةً قطعة من أعلى الجبل.

أياً كانت الطريقة التي يموت بها أبطال الروايات، تلتوي الحقيقة في مكانٍ ما بين روايات أصحاب الحد الأدنى وروايات أصحاب الحد الأقصى. وأياً كانت الطريقة التي مات بها عدنان فقد كان ميتاً منذ وقتٍ طويل، قبل أن يُقبض عليه ويُقيَّد ويُعامَل بوحشية، ويُصبّ في هذا النهر من الدماء التي سالت دائماً في مدينة بلا ماء. مدينة جافة.

من سيكتب آلاف الروايات عن هؤلاء الأموات المنسيين؟ من سيكتب تاريخ "الثورة التي التهمت أطفالها؟" من سيستخلص من نظرات الجِمال والنوق تاريخَ بلادٍ ممزقةٍ بالحروب والنسيان. من سينقذ الذاكرة من النسيان؟ من سيشرح كيف يمكن لهذه الأعمال الوحشية التي لا مثيل لها أن تحدث في أي يوم، وفي أي مكان؟ من سيفسّر الجنون؟ من سيضع نظريات للجنون؟ من سيتوصّل إلى اكتشاف رياضيات الجنون؟

تستطيعون بالتأكيد، باستعارة معادلات الشهيد ذي العينين المحاطتين بدوائر سود، أن تقولوا لي، مثلاً، كما في أي درس نظري في الرياضيات: "حين نجعل الموت عادياً (م)، ونزرع الشك (ش)، لا نحصد إلا نتيجة مشعة وأكثر منطقيةً هي الكارثة (ك)". تستطيعون حتى أن تستدلّوا، ودائماً مثل أي درس في الرياضيات، على أنه في بلد عشائري تجد المعادلة التالية:

م x ش = ك:

جعل الموت عادياً x زرع الشك = الكارثة

أرضاً أكثر خصوبةً لتحققها. وإذا رفعتَ ناتج الطرف الأيمن من المعادلة إلى أُسٍّ كافٍ من فقدان الذاكرة (ف) حصلتَ على إمكانية

كبيرة بأن تعيش في الكارثة حتى ما لا نهاية (ك ن). كارثة معادلة الدائرة التالية:

(م x ش) بأسّ ف = ك ن

(جعل الموت عادياً x الشك) فقدان الذاكرة = كارثة لانهائية (وهو المطلوب إثباته).

هذا مؤكد. مؤكد. مؤكد. لكنني لم أشفِ غليلي بعد. فكيف يمكن جعل الموت عادياً؟ وكيف يمكن تغذية المؤامرات؟ وكيف يمكن أن ننسى؟

ماذا كان دور الراعي القديم في هذه الحرب؟ وماذا أصبح؟ كان دوره طاغياً مدعوماً بلاهب، مبيد القطط وأكثر حوارييه حماسة. كان أحد مهندسيها الطليعيين، ورأس حربتها، ورئيس طابخي مؤامراتها، وأصبح فيما بعد أحد أكبر دعاة الليبرالية المنطلقة من عقالها، كما توقّع عدنان وحده قبل وقتٍ طويل. عدنان المتنبئ النجم وشهيد المقهى الذي يحمل اسمه بجدارة. اكتفى حشوان بإعادة تأهيل لحظية، أسرع كثيراً من دورته الأيديولوجية القديمة. لأنه عرف بسرعة أنه يستطيع في العمق الحفاظ على ما هو أساسي من تراثه البلاغي، وقالب خطاباته، مستبدلاً بعض المتغيرات الكبيرة –

الديمقراطية محل الثورة، والسوق محل الاشتراكية، والولايات المتحدة الأميركية محل الاتحاد السوفييتي... – وكل شيء يبقى صالحاً وعمودياً، وفصيحاً: "مشروعاً حضارياً" كما يحب أن يقول الآن. فهو، من حيث هو طليعي دائماً وراعٍ بارز، كان أول من صاغ "قانون العائلة"، وهو الآن أول من تزوج بأربع نساء منذ إلغاء هذا القانون حديثاً. ولعله تجاوز هذا الرقم المتواضع لو سمح فقهاء الاجتهاد لهذه الحدود الرقمية بالدخول في المزايدات والمناقصات والمساهمات الحرة. كما أنه أصبح، بسبقٍ حطم جميع الأرقام، شخصاً واسع الثراء، يملك ثروة كبيرة. فالراعي القديم يملك اليوم ما يستطيع به شراء ملايين عديدة من الكباش، جمهورية من الكباش. وحشوان أخيراً (لحظة كتابة هذه الكلمات) يمضي والمسبحة لا تفارق يده، بعد أن أصبح حاجّاً هشّاً ورجلَ دينٍ بارز. البطل المحتمل في الحرب على البيرة، والشيوعية، وأحمر الشفاه. وبعض نساكه الأقربين يتحدثون اليوم عن مواهبه الروحية، بالأحرى الصوفية...

لا شيء غير عائلة، وجرح، وشجرة، وصورة أسطورية عن زميل قديم، له حق التسلق فوق متراسي المدرّع، في قلعتي في

مقاطعة النورماندي. أما الباقي كله فقد بدا لي مطروداً مثل ملفٍّ قُذف في سلة مخلفات جهاز كمبيوتر؛ ممحوّاً مثل نتيجة رسالة "نظّف الشاشة" التي توجّهها برامج الكمبيوتر للجهاز. على شاشة جهاز كمبيوتر. منسياً مثل ما وراء "رأس دعامة المؤشر" وهو يهبط بسرعة. إلى الأبد. إلى الأبد، إلى الأبد... انتهى بي الأمر إلى الإحساس بأني أعيش روايةً جديدة لكاتبٍ آخر، تدور أحداثها في مجرةٍ أخرى على بعد سنوات ضوئية من أحداث الرواية القديمة.

كانت الرواية القديمة تشبه كثيراً "عملية صيرورة". أهي "صيرورة" قُتلت أم تجمّدت؟ هذا هو السؤال. اعتقدتُ أنها قُتلت ظانّاً أنني فزتُ في معركة النسيان. فكّرتُ أنها قُتلت معتقداً أن التفكير باهتمام في كتاب أو لوحة مفاتيح كمبيوتر يستطيع تجويع الذاكرة لدفنها. ظننت أنها قتلت قبل اليوم الذي وقع فيه حادث غير منتظر مع أنه طرق بشكل عادي إلى حدٍّ ما. مكالمة تلفونية. "أمنا مريضة جداً. يجب أن تأتي إليك لتُجري عملية جراحية، في روان، سريعاً".

الجزء التاسع

الضماد الغريب

تشير نهاية ”القائمة الدائرية“ نحو البداية. وهذا برنامج LISP يسمح بتكوين قوائم دائرية...

[كتيب مرجعي في لغة LISP للكمبيوتر]

روان، ٢٨ مارس ١٩٩٢ غرفة رقم ٢٤٨، مستشفى "اوتيل ديو"

أقدّس العطورات مثل هذه السيدة الممددة على بعد خطوتين مني، وأتذوق بشيء من الجلال أقراص خبز الطاوة في الصباح، وأخشى الأعداد الزوجية. قلت بإحساس متشائم على نحو متزايد: "من الصعب العثور على رقم أكثر زوجية من الرقم ٢٤٨"...

بهذه الفقرة القصيرة بدأتُ روايتي، اليوم، ٢٨ مارس سنة ١٩٩٠. وبها أتوقف. لا أدري ماذا أكتب، ولا من أين أبدأ... شُلّ قلمي، وأوراقي فارغة ومطويّة. تعوي كآبتي. وتموت كلماتي قبل أن تولد: أعيش ساعات طويلة من التفتت والتجمّع، ومن التحلّل والتكوّن...

أجلس هذا اليوم على سرير وُضع مؤقتاً قرب سرير أمي لأرافقها وأترجم محادثاتها مع الممرضين والممرضات والجراحين. لم أتوقف، في الواقع، عن التأمل خلسةً في وجهها الجميل الذي لا يتبدل، دون أي تجاعيد. افتقدتها كثيراً منذ تلك السنوات الطويلة التي فصلت بيننا خلالها ستة آلاف كيلومتر! ها هي بيني وبين

النافذة الكبيرة المقابلة، تظهر خصلات مكشوفة من شعرها الأسود المشرب بالضوء الوردي الذي يعبر النافذة، وحولها في خلفية اللوحة مرتفعات كاتدرائية روان، وكنيستا سان ماكلو وسانت وان، بأجراسهما التي تزين سطوح روان ببهاء لا مثيل له. تحركت قليلاً، وحلمت كثيراً، حابسةً ما يشبه بسمة صغيرة لطفلٍ صغير.

ابتعدت أمي منذ ثلاثة أيام في نومٍ بلا ضفاف. لم نتوقف أنا وأخي محمود الذي رافقها عن تقبيلها، وتحريكها برقة لنوقظها. ردّد محمود بصوتٍ مرتفع الآيات القرآنية التي كانت تفضّلها، ظانّاً أنها تداعب إدراكها في العمق، وأنها ستشعل أكثر أحاسيسها عاطفةً، آملاً أنها ستمسّها أكثر بكثير من صرخاتي الخرساء. "أماه. أماه. استيقظي. استيقظي". "أعرف دائماً هذه السور". اكتشفتُ ذلك فجأةً. بفضلها استطعت محو أميتها قبل حوالي عشرين سنة.

مرت ثلاثة أيام منذ أن أُجريت لها عملية جراحية. تدخّل جراحي بلا نتيجة، باستثناء قصبة غريبة للتغذية تربط مسباراً مزروعاً في مكانٍ ما من أحشائها بقصبة من ماء الجلوكوز المخصب بكلوريد الصوديوم وبمغذيات أخرى. لم يكن الجرّاح الذي رأيت ظله مرة أو

مرتين يأمل بأكثر من استمرارها في الحياة بضعة شهور بهذا الحبل السرّي. لا شيء سوى طرف نفق الهروب من قهر هذا التقلص الظالم الذي لا شفاء منه والذي يجعلها تختفي منذ أسابيع؛ طرف نفق أقل مذلةً من انطفاءٍ فظّ في مكانٍ ما في عدن. غابت أمي منذ اليوم الثالث في ضباب قلّت شفافيته وصعب سبر غوره. استولت علينا بعض المشاعر الفظة التي تصبح شيئاً فشيئاً نهائية. اضطربنا مذعورين أمام غيابها الطويل. ترنّحنا بين الأمل السعيد واليأس الأكثر ظلاماً، في مواجهة تمثالها الصغير الممتد الثابت بلا حراك، مستمتعاً في المنطقة الواقعة بين الحياة والموت، منتظراً على حدود عالمنا الصغير، على تخوم العالم الآخر الذي أعلت من شأنه دائماً، ورغبت فيه دائماً كما نرغب في خلاصٍ شاف، مع حبها لحياتنا ولأفراحها الصغيرة حباً جماً.

عاد إلى ذاكرتي يوم وصولها إلى مطار شارل ديغول في باريس. غمرني الفرح لأن أجدها هنا بجانبي. وصدمني أن أكتشف وأواجه سرطانها في مرحلة متقدمة، إذ لم يُكتشف في وقت مبكر في عدن. بدت شبحاً يغيب بعد أن فقدت نصف وزنها في بضع شهور، ولا تستطيع الكلام إلا بصعوبة، وشديدة الضعف بسبب شبه

استحالة أن تأكل منذ أسابيع طويلة. فكّرتُ بوعدي وأنا أقود السيارة التي تقلّها من باريس إلى روان حين قلت لها: ”سأريكِ يا أمي الغابات والدكاكين الكبيرة وجميع شوارع روان وباريس... سنذرعها معاً مشياً على الأقدام. سنستمتع بكل ركن، ونتوقف أمام كل منعطف، وسأعلّمك هذه المرة كيف تقودين سيارة. ستقودينها خلال أيام قلائل أفضل مني. وحين ستعودين إلى عدن ستعرفين قيادة السيارة بطريقة ممتازة. سأعلّمك أيضاً كيف تبرمجين الكمبيوتر بلغة LISP ولغةProlog وستتولين البرمجة بعد شهور قليلة بمفردك! وسنتمشى معاً على ضفاف شبكة الإنترنيت. وخلال ساعات ستبحرين عبر هذه الشبكة إلى جهات العالم الأربع...“ قلت مغموراً بألف مشروع ومشروع برمجتُها لما بعد شفاء القادمة من بعيد. هذا الضيف الغالي. كان محمود يبتسم أمام هذياني. كان يعلم أنني لا أجهل أن أية امرأة يمنية في سن أمنا لم تضع يدها على مقود سيارة. لكنه أراد أن أهبط إلى الأرض مذكّراً إياي بما لاحظته دون صعوبة منذ الخروج من الطائرة – أنه منذ أسابيع يحمل أمي غالباً لينقلها من مكان إلى آخر. كانت تبتسم أيضاً، لا تتوقف نظرتها عن تأمل صحراء الرماد التي تغطي السماء من باريس إلى

روان، معجبةً بهذا المحيط من السحب السميكة الرمادية، الكثيفة بانتظام، تغطّي الأرض طوال الرحلة. لم تكن لديها القوة لتقويم مقترحي، وفضّلت أن تلقي نظراتها كلها على هذا السماء الفسيح المختفي، دون شمس، ووجدته مظلماً على نحو يدعو للإعجاب. كانت ترغب في أن لا تتوقف هذه الرحلة. وأحبت أن تتنفس محيطات كاملة من هذا الهواء الجديد البارد، وتملأ رئتيها منه بما يكفي لحياة جديدة. كانت تبتهل إلى الله في أعماقها أن لا تكون أول نظرة إلى باريس آخر نظرة تلقيها على هذه المدينة. فقد وجدت فيها مقدمة الجنة. اعترتها فجأةً رغبةٌ هائلة بأن تتمشى بلا توقف في هذا السكن الكبير للراحة، في هذا البلد الأخضر، المنسّق، المتناغم البهيج. وأرادت التوقف أمام واجهات دكاكينه، وتأمل جدرانه، لتطلق مليارات من "سبحان الله" مبهورة أمام كنائسه وتماثيله، وتذوب في أمواج الحرية التي تتدفق فخورةً في شوارعه. وقعت أمي بسرعة وبعنف في حب مفاجئ، وكان حبها الأكثر حدةً، والشخصي، والقاسي! وللحظة قصيرة فكّرتُ بالساعات الأولى لوصولي إلى هذه الأرض قبل سنين طويلة. والغريب أنني ذلك اليوم كانت لدي المشاعر نفسها التي أحسّت بها أمي تحت سماء

مماثلة تماماً. لمحتُ من المرايا العاكسة (التي يؤخذ عليّ تجاهلها في الغالب) في سيارتي (التي يسمّيها البعض ''المركب السكران'') غلالتَي حب وسعادةً تظلل عينَيّ أمي، مختلطةً ببسمةٍ تتردّد في جميع خلايا وجهها، تعيد إلى خدّيها اللذين حفرهما المرض طفولتهما السعيدة. لم أرَ أمي قط تبتسم بحرية ولهذا الوقت الطويل بسمةً بهذا القدر من الصفاء والخلود.

فكرتُ أيضاً بملء أوراق الفحوص الطبية، يوم وصول أمي، ٢١ مارس. سألتني السكرتيرة في مدخل المستشفى:

– ما هو تاريخ مولد أمك؟

أجبت:

– ليست لديها شهادة ميلاد. ولا تعرف أية امرأة يمنية في عمرها تاريخ مولدها.

– لا يهم. لكنني مع ذلك أحتاج إلى تسجيل تاريخ المولد.

اقترح محمود الذي عرضت عليه المشكلة، دون تفكير، اختيار تاريخ اليوم، ٢١ مارس. قلت لأخي: إنها فكرة حسنة. إنه أول يوم في فصل الربيع هذه السنة. لأنها سنة كبيسة. ومحمود الذي يُعدُّ الربيع بالنسبة له مفهوماً مجرداً، ولم يكن السؤال المتعلق ببدايته

مرة كل أربع سنين في ٢١ مارس في نظره سؤالاً مركزياً، فكّر بالأحرى بعيد الأم في اليمن، في ٢١ مارس. أجبت السكرتيرة مخترعاً سنة تقريبية:

– ٢١ مارس، سنة ١٩٢٠...

ثم قلت مقاطعاً نفسي فجأة:

– لا. هذا عبث. إنه عبث بلا شك. أمي صغيرة جداً. لا يا سيدتي، ٢١ مارس سنة ١٩٣٠. لا... سنة ١٩٣١.

هكذا أجبت محاولاً أن أجعل جميع الأرقام فردية، كما كانت أمي ستفضّل، حسب ظني. ثم تلعثمت:

– "جني". ربما لا تكون سنة ١٩٣١ عدداً أولياً.

رجوت السكرتيرة أن تمنحني دقيقتين لأجرى عمليتين حسابيتين قصيرتين لأستقر على خيار. قبلت مندهشة وهي تنظر إليّ وإن بشيء من القلق. تناولتُ ورقة وأسرعت بقسمة ١٩٣١ على الأعداد الأولية بين ٣ و٤٧ لأكتشف بارتياح صدفة أنه رقم أولي تماماً. قلت مسروراً:

– نعم. ٢١ مارس، ١٩٣١. هذا هو...

أجابت السكرتيرة بابتسامة آلية قبل أن تعطي لأمي الغرفة رقم ٢٤٨ بعد يومين من الفحوصات الأولية.

– حسناً. حسناً. عيد ميلاد سعيد، إذاً.

بسرعة بدا لي هذا العدد الزوجي على نحو مفرط أقل جاذبية. لكننا في هذه الدنيا الفانية ننتهي إلى تليين المحرّمات، وقبول كل شيء. إلا أن ذكريات غامضة عن بيت ذي طوابق خمسة حمل هذا الرقم، بيت مظلم في شارع النصر، صدمتني فجأة. شيء ما دفعني في غموض لأن أطلب تغيير الغرفة. رطنتُ برغبتي بشكل غير مفهوم لي فما بالك بالسكرتيرة التي لعلها تساءلت تساؤلاً جدياً عمّا إذا لم تكن تتعامل مع شخص شبه مشوش عقلياً. ثم تخليت عن طلبي وأعدت شكر السكرتيرة لتهنئة أمي بعيد ميلادها.

وفي مساء يوم ٢١ مارس احتفلنا بعيد ميلاد أمنا. احتفلنا بجميع أعياد ميلادها التي لم يُحتفل بها من قبل. وفي هذا اليوم طبخت كثيراً بحب وإتقان. وكنت فخوراً بأن أستعيد خمسة وستين في المائة من طعم وجباتها القديمة. لكن عيدها كان زهداً حقيقياً. لم نستطع أن نصفق لأمنا العزيزة التي كانت ضعيفة بحيث صعب عليها إطفاء شمعاتها. لم نستطع الأكل ولا حتى مضغ ولو قطعة

صغيرة أياً كانت أمام هذه السيدة الصغيرة التي لم تتمكن من أكل أي شيء كما اعتادت. وأخيراً، اكتفينا باستنشاق الروائح المنطلقة بقوة من المطبخ. كانت غذاءنا الوحيد الفاخر. إلا أن أمي شربت من الماء أقصى ما استطاعت أن تشرب. وجدت أن لماء روان مذاقاً حلواً. قالت: "لم أشرب قط ماءً في عذوبته". وكنا سعداء سعادةً عميقة رائعة هذه الليلة.

أعدت التفكير باليوم الذي سبق العملية الجراحية، مساء دخولها المستشفى حينما لم ترغب سوى في إدخال السرور إلى نفوسنا! هذه المريضة الشاحبة، وقد خارت قواها، لا تفكر إلا في أن تجعلنا نضحك؛ إلا في أن تعطينا لحظة مرح، في غرفتها في المستشفى. ظلت وفية لما يلخّص حياتها كلها: أن تمنح السعادة. هذه السيدة التي يفترسها سرطان طاغٍ لا تفكّر في تلك الليلة إلا بأن تقدم لنا صورةً مشحونة بالسرور والفرح، عن سيدة قوية، متفتّحة، كريمة. تنزهت وحيدة بين قنوات التلفزيون (كانت هذه أول مرة تفتح التلفزيون: كانت لها اهتمامات أخرى في منزلها العدني). طرحت علي بعض الأسئلة حول بعض الدعاية، وحول صحة التنبؤ بالأحوال الجوية، وحول قواعد برنامج مسابقة "الأعداد

والحروف"... أطفأت التلفزيون ووضعت جهاز التحكّم عن بعد على الطاولة بجانب مسبحتها الزرقاء الوفية، وكأس مائها، وترجمة عربية من رواية **البؤساء** أحضرتها لها لقراءتها خلال إقامتها في المستشفى. حاولت جاهدةً أن تخطو بضع خطوات في غرفتها بمفردها دون دعم. وهذا ما جعلها تبدو منهكة تماماً. ثم نظرت بانتباه إلى سقف غرفتها وهي مستلقية – انتابها شيء ما كأنه "عقدة السقف" – قبل أن تحدّثنا عن سقف آخر على بعد ستة آلاف كيلومتر من هذا. سقف الغرفة التي أمضت فيها بضعة أسابيع سبقت مجيئها إلى فرنسا، في مستشفى الجمهورية في عدن، حيث أُشبع كبدها بأطنان من الأدوية لعلاج... السكّري. عَبَرَ السقف المتداعي فأر ارتطم بأمي! تملّكتني رغبة متحمسة بالانفجار ضاحكاً. وتملكتني أيضاً رغبة جامحة بأن أنفجر بالبكاء. قالت بصوت يحاول بجهدٍ جهيد أن يبدو أكثر حيويةً وأقل ضعفاً مما هو عليه: "الفئران حكّام مطلقون في المستشفى الرئيسي في عدن. الفئران في كل مكان. بلا دين ولا قانون. كائنات فريدة. ديناصورات صغيرة. وحتى القطط الوحشية في المستشفى (التي تحتفل مع ذلك دون توقف، كما قال أخي محمود، بالكومة الخرافية

من المشيمات الملقاة في القمامة) لا تجرؤ على الاقتراب من الفئران". هكذا قالت راسمةً ابتسامة سخرية لم تبدِها قط من قبل.

أكان ينبغي عليّ أن أضحك حتى ولو كنت حزيناً، أنا الذي فررت قبل كثيرٍ من السنين؟ ألم يتضح اليوم أن هذا الغياب كان مفيداً؟ أكنت أستطيع استقدام أمي للعلاج في فرنسا، حيث العلاج امتياز، دون هذا الغياب؟ استوقفتني أسئلة عادت بي إلى الماضي، وأنا بحضرة أمي الناعسة بشدة؛ أسئلة قطب موجب، وأسئلة قطب سالب. شيء غامض تفسّخ وصعد من العمق، مثل فقاعات هواء تصعد إلى سطح إناء ماء يمرّ فيه تيار كهربائي. "لحظات من التفتت والتجمع، ومن التحلل والتكوّن" كما قلت في الصفحة الأولى من الرواية قبل أن يصاب قلمي بالشلل.

استعدت في ذاكرتي مستشفى عدن الرئيسي، ذلك المستشفى الذي أحضرتُ إليه ذات يوم "ودف" (وفد) العجائز... واستعدت شارعنا وقد أطلق عليه منذ ذلك الوقت "شارع الثلاث عجائز ذوات النظارات". فكرت بهذا المستشفى وقد أصبح بعد عشرين سنة أطلال المستشفى القديم؛ خراباً تمطر عليه الفئران. انفتحت ثغرة في مكان ما من رأسي، في حائط نسياني. قطيع من الفئران يسكن

دماغي. ”يتهدم كل شيء حين تصل الفئران!“، هكذا قالت جدات حينا. ”تصل من كل مكان. لا تحترم لا معاهدات ولا حدود“. وأكّدنَ أن هذه الفئران ”دمّرت العربية السعيدة ومملكة سبأ، حين التهمت حجارة أسس سدّها وأركانه“. وسدّي أنا على بعد سنوات ممطرة كثيرة أيضاً. ها أنذا منطوٍ على نفسي، في لقاء خاص مع أعماق أعماقي، مع الأنا الداخلية الخاصة بي، ومع معادلاتي الأولية. فكرتُ في هذا المستشفى الذي وضعت فيه نظاراتي الطبية لأول مرة؛ في الأيام الأولى من شهر العسل بينها وبيني؛ وفي اليوم الذي رأيت فيه رأس أمي دون التشوش الذي كان يغطي الكون قبل أن تمتطي أنفي هذه النظارات الشجاعة (وحتى هنا في سريرها في المستشفى في مواجهة صفحتي الأولى غير المكتملة، بعد عشرين سنة، ملفوفة على نحو فظيع، تظهر عظامها من جلدها. وحتى هنا، ظل وجهها الذي واصلت تأمله بتعطش غير قابل للفناء ذا شبابٍ لا ينفد. دون أي تجاعيد. لم تعترِه التجاعيد قط. أعجبت طوال حياتي بوجهها الذي لم تجرؤ التجاعيد على طعنه). فكرتُ طويلاً في هذا المستشفى، في النظارات التي افتقدتها كثيراً أيام مطاردات الجوالب، مع أولاد عمي في حقول جبل القلة. عاد إلي غناء

الجوالب. آه، كم يتكامل بتناسق مع اللون الكئيب للحظاتها المريضة، في هذه الغرفة رقم ٢٤٨ في مستشفى اوتيل ديو، في مدينة روان! كم هذا الغناء حزين وجميل في الوقت نفسه! وكم يعكس تفسيره الشعبي جوهره المأساوي على نحوٍ ملائم:

"يجعل له حنش أسودي من قتل ولدي"!

أصداء الغناء القادمة من القرية التي ولد فيها أبي حاضرة هنا، مختلطة بشخير أمي. مليون جولبة تطير في رأسي، تحت سماء روان. طبقات جليد تذوب، وطبقات غبار تبتعد. مدن مطمورة تخلع حجاباتها. مدن متعددة الأعراق، متبخرة، غريبة. مزيج من باريس وصنعاء. قطع مبعثرة من مدن متباعدة، من مدن أشباح تندمج وتطفو وتترنّح وتتلاشى. وأبعد فأبعد، بعمق أكثر، مدينة حقيقية وأسطورية: عدن. مدينة أصبحت بلا لون، وحيدة اللون، مدينة كاكي شديد الشحوب. حائط نسيان يتصدّع. يسقط في مكان ما داخل رأسي. يتفسّخ رأسي. كتل من سنوات صدئة تصعد إلى السطح. مثل مواد أولية في ماء يتحلل. مثل فقاعات أوكسجين وهيدروجين تصعد بلا انقطاع في ماء رأسي المكهرب. فصول تنبثق وتتصادم ويختلط حابلها بنابلها، وتخلق من جديد... وأبعد من

ذلك أيضاً ضاحية محاطة بوديان ضحك. ضاحية – جمل: هي الشيخ عثمان. وكلما نظرت إلى أمي غائبة في الغيبوبة، ممددة على سريرها، تبحر في البعيد وهي قدامي، ببطنها المحاط بالضمادات، رأيت ملكة شطرنج بطنها ثغرة في حائط نسياني. هناك حيث ولد نزيف من الذكريات، يتقدم كشبكة من المتوافقات المنطقية تتسع في شكل حلزوني؛ تطمس في مرورها كل ذكر لهذه البطن المبقورة. ثم تتشظّى في "العبث الوحشي" قبل أن تشير دائرياً نحو البداية نفسها. النهاية. البداية – النهاية. إنها هنا هذه البداية النهاية أمام عيني، مختبئة في إحدى خصلات رسم بياني جنيني، في لعبة شطرنج في مقهى الشهداء، بين صبيين عمر كلٍّ منهما أربع عشرة سنة: شكيب وأنا. بشطرنج جميل من خشب البلوط. وضماد غريب يحيط بعنقاء تنبعث من رمادها، وملكة بلا تجاعيد لا تغادر عيني.

الجزء العاشر
فترة زمنية أساسية جداً

ذات ليلة وأنا طفل (فريسة لقلق غامض) تملّكتني رغبة بأن أكون مع أمي، لكنها كانت نائمة. لم أجرؤ على إيقاظها. كان بابها مغلقاً. وبعد ترددٍ قصير، رقدتُ على الأرض أمام الباب ودسستُ أصابعي من تحت الباب. وما أن انزلق طرف يدي إلى غرفتها حتى خفق قلبي بانتظام، وأصبح تنفّسي هادئاً (وذاب النوم الوادع فوق نفسي الضعيفة كطفل ولفّها).

فلاديمير ماكانين، **طاولة بمفرش دورق في الوسط**

الفصل الأول

قال صوت قوي يصعد من حياتي السابقة: ”أرني كتاب أنجلس الذي تقرأه!“. كان صوتاً ممزقاً، غاضباً، يرتعد من الغيظ.

كان اسم أنجلس في رأس غلاف الكتاب مكتوباً دون تشكيل. وهكذا يمكن نطقه بطرق مختلفة. أحد الخيارات الممكنة يسمح بنطقه: ”أنَجْلِسُ؟“، أي ”أنستطيع الجلوس؟“.

أجبت بصورة مسرحية مندهشة:

– إنجلس؟ أنا أقرأ ”أنَجْلِسُ؟“ أباه.

سجّلتُ نقطة. فرّت بسمة صغيرة من شفاه الرجل الداخل إلى غرفتي. صعب عليه كبحها أمام لعبة الكلمات غير المتوقعة هذه. كانت هذه نقطة ضعفه. كان ضعيفاً أمام كل ما يمسّ الكلمات. كان ببساطة يعشقها؛ كل ما يلوّنها ويدغدغها ويداعبها يسرّه. كانت ورشة الكلمات محرابه. تغويه جملة منحوتة نحتاً حسناً، أو فعل في محله من الإعراب، ويلطّف سروره. وعلى كل حال، كان يقدّس الكتب كثيراً لكي يفرض عليها رقابته. ويحب كثيراً أن يرانا نقرأ

ليفرض علينا قيداً معيناً. وكنت مرتاحاً تماماً بأن أراه يتخلّى عن المبالغة في غضبه الخاص بكتاب إنجلس.

ثم رأى في الحال قميصاً ذا ألوان صارخة، شبه مخفي وراء كتبي. وهنا دارت الأمور على نحو مختلف. شيء ما في المنحنيات الصارخة – غير المستطيلة – والأشكال الشاذة في قميصي ذو رائحة شيطانية. لم يحب أبي قط ثياب آخر صرخة في تلك الفترة. تلك الثياب التي يتباهى بها في الغالب أكثر الشباب "خفةً" كما قد يكون قال، أو استمتاعاً برائحة عطر الزمن. فلأقل مبسِّطاً المسألة: المستمتع برائحة عطر الزمن. وفي هذا الحوض بالتحديد كان أبي يجد أعداءه الأكثر إثارةً للقلق، وأكثرهم "ضلالاً" عندما كانوا يطرّزون كلامهم وأحاديثهم العامة بمجموعة من الصيغ، ومن علامات الوصل والتعنيف، والعبارات المعترضة، الدنيوية والمبتذلة، مثل "... دينك"، و"... ربك". كان أبي غاضباً وممزقاً في أعماقه وقد جرحه وملأه بغيظ شديد هذا الأسلوب – الذي كان موضة غير رشيقة في الواقع – تهين الحد الأدنى من الأخلاق. وبعد أن سحقه الرعب من الاستماع إلى الشباب يسبّ بعضه بعضاً على هذا النحو، كان يصرخ بخطاب حادّ النبرة ومضطرم. ينبغي

القول إن هذا الانحراف اللغوي كان شائناً. فكان من الصعب أن يتعايش مع بلاغة ”الذِّكْر“ الذي يبتهل إلى الله حتى بلوغ النشوة، يسبّحه ويعبده حتى الكمال.

النتيجة واحد لواحد. كان مصير قميصي المفضّل (الذي لم أرتدِه إلا مرة واحدة) قليل الألق! فقد غضب أبي بسبب ذوقي في اختيار الثياب. ولذلك أخذ القميص ووثب نحو الحمام ورماه في وسط ”النقرة“. وكنت، وقد هدّني التقزّز، غير قادر على الاحتجاج أمام قسوته غير العادية، مندهشاً لرؤيته – هو الذي كان مطبوعاً على الرقة والحب – يتصرف على هذا النحو. أشبهت كثيراً أباً عاجزاً أسيفاً منذهلاً أمام تمرّد طفله الذي التهمته مراهقة بربرية. سألني في ذروة ثورته الثقافية:

– والشطرنج! ألديك شطرنج؟

نظرت إلى أبي يفتّش كتبي وينتزع بفظاعة الشطرنج البائس المخفي تحت بعض الكتب والصحف. فكرت أن الجيشين المجيدين، الأسود والأبيض، سيُسلَّمان للمصير نفسه. أحسست بالراحة لفكرة القيام بعملية إنقاذ وتنظيف للشطرنج الغارق في عمق ”نقرة“ حزينة. قلت لنفسي: ”يكفي لإنقاذ جميع القطع أن أغمض عينَيّ

الاثنتين، وعلى الأخص حماية اليدين بكيسين من البلاستيك، بالأحرى أكياس عديدة. سأقوم بالعمل غير النظيف بنفسي وأخرجها من الحفرة. صحيح أنه لن يكون طريقاً مفروشاً بالورود، لكن العمل لن يدوم سوى بضع دقائق". هكذا استنتجت لأزرع التفاؤل الكبير وأقوّي عزمي تماماً. "لا. لا. سأعطي بالأحرى درهماً لعمال النظافة في حيّنا"، هكذا اعترضت راضياً عن تجنّب رحلة أقل مدعاة للفخار في أنهار قذارة "الجلّي". واصلت تبخير قلقي والتخطيط لهجوم أكثر أرستقراطية: "سيهتم عامل النظافة بالموضوع بنفسه. سيعيد لي جميع قطعي سالمة". لكن أبي غير اتجاهه! وبدلاً من مواصلة غزوته الظافرة لإلقاء الشطرنج في الحمام توقّف لوقت قصير وتراجع ليتجه ومعه الشطرنج نحو غرفته. لماذا غير اتجاهه؟ ماذا حدث في دماغه خلال هذه اللحظة الأساسية؟ أخطر بباله في هذه اللحظة بالذات أنه بالإجهاز على الملكة سيخنق بالحجر نفسه حيرة ابن يدير ظهره "للطريق المستقيم"؟ أأراد كسر شيء ما يرمز في عينيه إلى "الحياة الجديدة" التي تقتل مدينتنا ببطء؟ "الطريق الجديد" الذي يزعم تقديم "إجابات جديدة" (معارضة لإجاباته في الغالب) لجميع

الأسئلة؟ "الثقافة الجديدة" التي تمجّد عقيدة جديدة – اسمها الاشتراكية العلمية – مختلفة تماماً عن عقيدته؟ "الاقتصاد الجديد" الذي بدأ فيه كل شيء بالاختفاء باستثناء الشعارات؟ أم أن شيئاً ما غامضاً انبجس خلال ثانية فجأةً من جوف لاوعيه. شديد الكثافة. شديد العمق. شديد الحدة. (ثانية من الثواني التي يتكثّف فيها تاريخ كامل). أوَجد نفسه فجأةً منقاداً نحو "نقطة تحول"، أو نحو "انقطاع" صادم، وتحول مطلق العنان في "وظائفه البدائية"؟ أشنّ حربه على العدو الخطأ؟ أتصوّر نفسه، هو الذي لا يعيش إلا على الخيال، مع أصحاب وحدة الوجود، في يوم الحادي عشر من يناير سنة ٦٣٠ للميلاد (السنة الثامنة للهجرة) في حماسة أجمل فتح تمنّى المشاركة فيه، يحطّم آلهة الجاهلية وأصنام الضالّين؟ أكان سيعمل من قريب أو من بعيد لقطع رأس تمثالي الصغير؟ أكانت ستنتابه أبسط رغبة في التدمير لو أن سيوف جيش فتح مكة العظيم لم يدمّر تماثيل امرأة الغرانيق الأولى في الكعبة المشرّفة؟ أم أنه وقع فريسة إغواء غامض غير قابل للحساب، باقتراف ما لا يمكن إصلاحه؟ لماذا تُرتكب المذابح؟ لماذا يجري اقتراف الاغتصاب؟

إنني أنمحي أمام هذه الكتيبة من الأسئلة اللاذعة كالعقارب تلدغني وتمزّقني وتطعن في رأسي مثل كتيبة حرب مطاردة. لكنني أصرّ على الصراخ أن أبي، في تدفقه الصوفي وسكره بالحب الإلهي، لم يكن عنيفاً قط. آه! لو كان لديّ ما يكفي من الوقت لأشرح له معنى لعبة الشطرنج! ربما لم تكن الأمور لتسير على هذا النحو! لو كانت لديّ فكرة الجدال وقسم اليمين على أن لا علاقة لهذه القطع من خشب البلوط بتماثيل الأصنام التي كانت تُعبد، وأنها لم تُصمّم قط لجعل العقل أعمى! لو استطعت ابتكار حكمة أو بيت شعر تمدح هذه اللعبة. لو كنت سريعاً بما يكفي لأقول إن هذه الملكة الجميلة التي تصدم نظره في الحال لا تجسّد إلهة بأي حال. ليست "لات" معاصرة تطمح للحلول محل "الواحد الأحد"! بل هي قطعة هشة قابلة لأن تحلّ محلها أية حصاة. وإنها، على ما فيها من جمال وقوة، مجرد قطعة قابلة للزوال والموت. أيقونة شعرية رياضية، لا أكثر. نعم. رمز شبيه بتلك الرموز التي يستخدمها دون اعتدال في كتاباته.

ثم كانت هناك عشر دقائق هزت هذا التاريخ. فقد فتح كيس البلاستيك الصغير منتزعاً قطع الشطرنج. فظهرت اثنان وثلاثون

تمثالاً صغيراً. تماثيل جميلة ورصينة ومغرية. اثنان وثلاثون تمثالاً صغيراً أخذته بعيداً في التاريخ. كان كمن أُخذ نحو البداية القصية. كمن سقط في فضاء الزمكان الأساسي في صهر نفوسنا. كان يتقدّم مع مؤسسي الحقبة الجديدة على أنقاض أصنام الجاهلية نحو المعبد المقدس. كان لا بدّ من العثور على أول شهيد في مستوى الحدث. من سيكون أفضل من يحقق هذا إن لم يكن الأكثر قداسةً، والأكثر مهابةً وروعة؟ إنها هي، ممثلة الشر ذات الألف وجه؛ القوة العظيمة، والوثن المعبود منذ فجر تاريخ جميع الضالين. انتزع "اللات" ولواها في غيظ، فقاومت قبضتة الناعمة، فطرحها أرضاً وسحقها بقدمه. لكنها ظلت سليمة، عنيدة، يتعذّر أن تتجعّد. لم يكن ينقصه سوى حسام، فاتجه إلى صندوق قريب تتراكم عليه كتبه وأوراق كُتبت عليها مقاطع من أشعاره المفضّلة وأوراد صوفية ذات جمال لا مثيل له. سحب منها الفأس الكبيرة التي يستخدمها لتقطيع وصلات اللحم الكبيرة عند ذبح أضحية العيد.

أتذكر أنني كنت أتجنّبه في تلك اللحظات حتى يتوقف النزف، وحتى تبعد عن ناظري النظرة الدائخة للرأس المقطوع. كنت بعدها أقترب بخطوات صغيرة من مكان الذبح، أساعده في مهمة التقطيع،

مسروراً بإعانته، راضياً بأن أقطع معه كتل كبيرة من اللحم الطازج، وأنقلها لأضعها حيث أشاء بحرية. كانت اللحظة الوحيدة التي يتدخّل فيها الفأس. لحظة سرور بالأحرى عندي. استفدت منها لأمارس أمام العائلة جلسة أعمال تطبيقية لما تعلمته في المدرسة، فأشرح الجهاز الهضمي للكبش، وأنفخ في رئتيه حتى تمتلئا، وأقلب بعناية قلبه لأعرض شريانه الرئوي والأُذين والبُطين. وقد ترك لديّ أول هذه الدروس في التشريح انطباعاً بارزاً، إذ استطعت التأكد دون صعوبة من صحة صورة الجهاز الهضمي كله – من الفم حتى الأمعاء – تلك الصورة المعلقة على جدار الفصل الدراسي. استفدت منها بخاصة لأسخر من تصوري السابق على دخولي المدرسة حين كنت أتصور "داخل البطن" وكأنه أنبوبة تتفرع في وسط البطن وتنتهي بعلب مكعبة متخصصة كثيرة، إحداها للعتر، وأخرى للبطاطا، وثالثة للحم، وهكذا. وإذا بدا لي هذا المخطط للجهاز الهضمي للإنسان، اليوم وأنا أكتب هذه السطور، تصوراً طفولياً، فإنه بالنسبة للنفس البشرية ما زال صالحاً، إذ تبدو هذه النفس كعلبة مغلقة، ملفوفة بساتان صقيل نبيل، مزيّن بنحوت فخمة، وبنقوش أدبية رائعة، وتخفي في العمق فأساً صدئة. لا

تخرج الفأس الكبيرة المخصصة للعيد، في العادة، من فانوسها السحري إلا صباح العيد، ثم تعود منحنيةً مستسلمةً للنوم طوال السنة. فاز أبي بمباراتنا النهائية! رفع الفأس ليضرب. سالت دموعي بتوسلاتها. لم يعد يستمع إلى شيء. بدا غريباً طاغياً. انهالت ثلاث ضربات متتالية، ثم رابعة عنيفة قاتلة كاملة، اخترقت قلب الملكة التي انهارت محطّمةً مقطوعة، نصفها الأعلى مقصوف بالمنجنيق بعنف. لم أعرف قط ما إذا كان أبي في هذه اللحظة تحديداً قد أحس بنشوة انتصار فاتحي مكة، وما إذا كان أعاد الاستماع، ثملاً في تمثيله القاتل، إلى صدى جموعهم تردّد "الله أكبر" فوق كل كثيب من كثبان صحراء العرب، قبل أن يتفجّر صداه بعد قليل من الوقت على نحوٍ صاعق لا مثيل له من سمرقند إلى غرناطة. أم أنه أسف فجأةً وبصمت لإعدامها بلا محاكمة، ولعبث فعله، وعبث زماننا، وعبث حياتنا كلها. صرخت منذهلاً، مجروحاً ومنتهكاً:

– هذا الشطرنج ليس ملكي. يجب أن أعيده لصاحبه.

أوقف أبي مذبحته. أما أنا فبكيت كما لم أبكِ قط في حياتي. من العار ومن الحزن. يفنيني منظر هذه التحفة الفنية الجميلة تُعدم

وتهان بفأسٍ صدئة (لم يجد أبي حتى الوقت ليزيل الصدأ عنها كما اعتاد أن يفعل صباح العيد). لفّتْ أمي جثة القتيلة ببضع أشرطة لاصقة، سبعة أشرطة بالضبط. ربما كانت تكفي ستة منها. لكن ينبغي أن أذكّر هنا بأن أمي التي بُقرت بطنها كانت تفضّل الأعداد الفردية على الأعداد الزوجية.

روان، ٢٨ آذار/مارس ١٩٩٢ – ٢١ آذار/مارس ١٩٩٤

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

«الملكة المغدورة» تروي حكاية اليمن الذي لم يعد يذكر متى كان سعيداً؛ اليمن الذي يفرّ منه الحمام، ويهرب العشّاق، ويُحرَق فيه كلَّ جميل: مرةً باسم الماركسية، وأخرى باسم الدين.

ملكة شطرنج تُذبح بوحشية في دوامة غضب عاصف. أهي مأساة؟ من صنعها؟ أهو والد الراوي، الشاعر الصوفي المحترق عشقاً في حضرة السناء الإلهي؟ أم ذلك الراعي القديم الذي سيحوّل مدينة الراوي، ثُكنة عسكرية؟

ثمة سرّ يعبر العصور ولا مناص من جبروته!

قيل في الكتاب

«لغة نقدية ثائرة» جريدة الحياة

نبذة عن المؤلف

حبيب عبدالرب سروري كاتب وروائي يمني. بروفيسور في علوم الكمبيوتر في قسم هندسة الرياضيات التطبيقية، كلّية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا.

كتب أخرى للمؤلف

«أروى»، «ابنة سوسلوف»، «حفيد سندباد»